

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

الصعاليك

قراءة أخرى

د. فضل بن عمّار العماري

الصَّعَالِيك

قِراءَةٌ أُخرى

د. فضل بن عمَّار العمَّاري

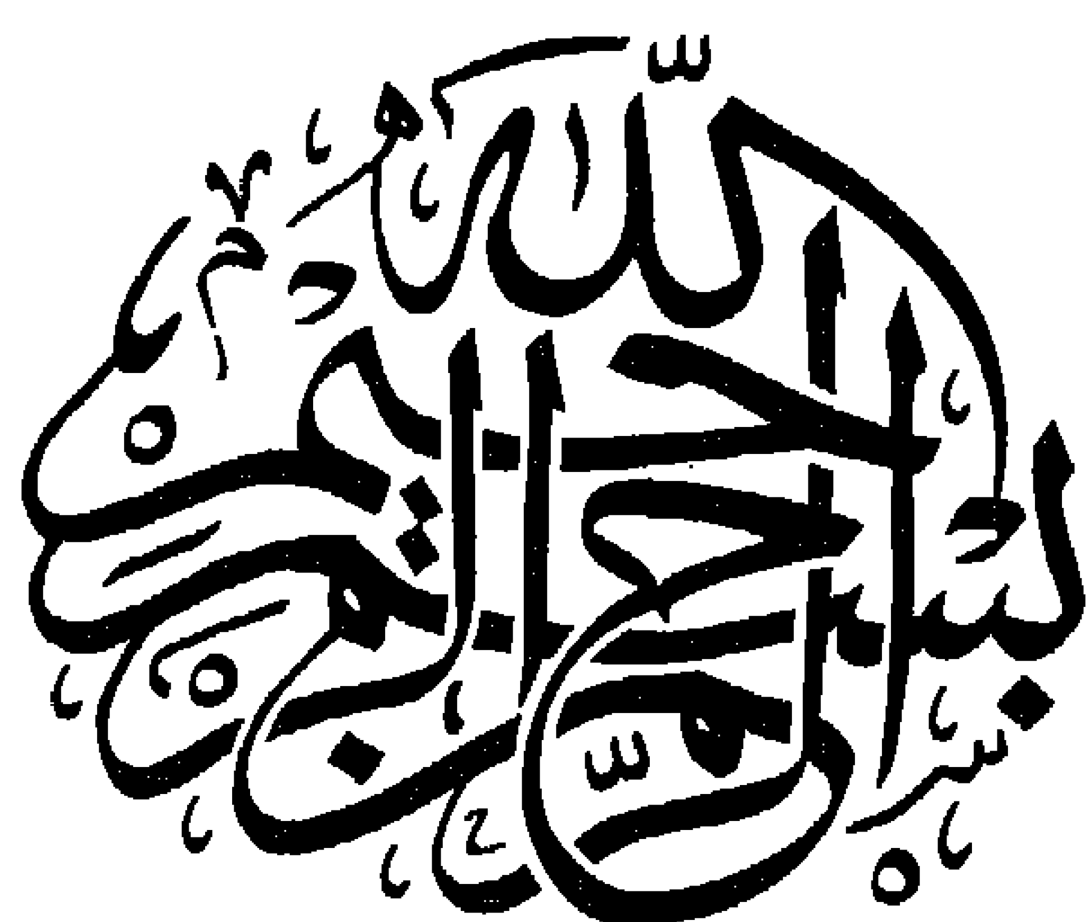
١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

ⓗ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
العماري، فضل بن عمار
الصعاليك.. قراءة أخرى. / فضل بن عمار العماري .-
الرياض، ١٤٣٣هـ.
٤٠٠ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٠-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨
١ - الشعر العربي - العصر الجاهلي ٢- الصعلكة
أ- العنوان
ديوي ٨١١,١ ١٢٤٥/ ١٤٣٣

رقم الإيداع: ١٢٤٥/ ١٤٣٣
ردمك: ٥-٣٠-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
ص . ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣
المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الباب الثالث

الانتماء والموطن

الباب الرابع

القراءات المعاصرة للصعلكة

المقدمة

تعد ظاهرة الصعلكة من الظواهر التي أُنهكت بحثاً في الأدب العربي الحديث، فهي جزء أصيل من دراسة الأدب العربي القديم بخاصة، والحياة العربية قبل الإسلام بعامة؛ فلقد خصَّ القدماء بعض الشخصيات بمسمى "الصعلوك"، وفي أذهانهم أنماطٌ معينة، يأتي على رأسها: تأبط شراً، والسُّليك بن السُّلكَة، والشَّنفرى، وعروة ابن الورد. وإنما ميز القدماء هذه الأنماط على أساس أفعالهم؛ أي: كونهم يهاجمون خِلسة وتسلّلاً.

أما أولئك الزعماء الأسياد، ممّن كان يغزو علانيةً، ويواجه مُعلَماً، فجعلوا أعمالهم غزواً. ومع ذلك تتداخل الصفات؛ فأحياناً تكون الصعلكة غزواً، ويكون غزو أولئك السادة نوعاً من الصعلكة.

هذا أمر. أما الأمر الآخر، فهو أن الصعاليك كانوا يقدِّمون أنفسهم نماذجَ للأَثَرَة والتضحية والمسؤولية تجاه الآخرين. والواقع أن أولئك السادة كانوا أيضاً نماذجَ مماثلةً؛ فالسيّد لا يكون سيّداً إلا إذا كان مثالاً للكرم والنجدة والفداء، بل إن الصعاليك هم في تكوينهم الطَّبقي سادة، وكثيراً ما كانوا يصفون أنفسهم بـ: الرئيس، الصفة العام للسيد في العشيرة، ونجدهم في حالات كثيرة أيضاً يصفون أقرانهم بـ"السيّد".

ومن ثم، يصعب جداً الخروج بنتيجة تفرِّق بين هؤلاء وأولئك. على أن حالاتٍ خاصة ربما ميّزت أحدهم عن المجموعة؛ فالشنفرى هجر قبيلته، وانضم إلى قبيلة أخرى، وكان بقية الصعاليك في قبائلهم، لم يخرجوا عنها أو عليها؛ حتى إن هذه الظاهرة - ظاهرة الصعلكة - تكاد تكون عامةً؛ سواء في هذيل، أو أزد السّراة، أو بين قبائل الحَرّات والهضاب، أو في البوادي والأودية، وكان الخلع لجوءاً في حالة الشنفرى وقيس بن الحدادية مثلاً، وليس نبذاً ومطاردةً.

لقد بحثنا طويلاً في أسباب الصعلكة، ولأننا صنّفناها ظاهرةً خاصة، لم نربطها

بالبيئة والمجتمع والزمان، فكان أنْ خرجنا إلى البحث عن الدوافع وراءها، وركّزنا على ناحيتين: الناحية الاقتصادية والناحية العِرقية، فجَرَّ هذا إلى ابتعادنا كثيراً عن الظاهرة نفسها.

وضع أحمد أمين اللبنة الأولى في دراسة الصعلكة، وأكمل يوسف خليف مشروعه، وكان عمل الرجلين منطلَقاً لدراسات متعاقبة لم تتوقف، قدّما تفسيراً كثيراً، وعطاءً كبيراً، فسادت قناعات، تحوّلت إلى مسلّمات؛ بل حقائق دامغة.

وإذ يقدم هذا الكتاب قراءةً أخرى لظاهرة الصعلكة في إطار ظاهرة الغزو والحرب والفروسية، فإنه لا يُنكر فضلَ الرواد الأوائل، وإنما يفتح باباً لعله يشكّل مساراً موازياً للأطروحة الأولى ، فتتلاقح الأطروحتان بما يحقق الهدف من البحث العلمي والدراسة الأدبية.

الباب الأول

الأطر الفكرية للصعلكة

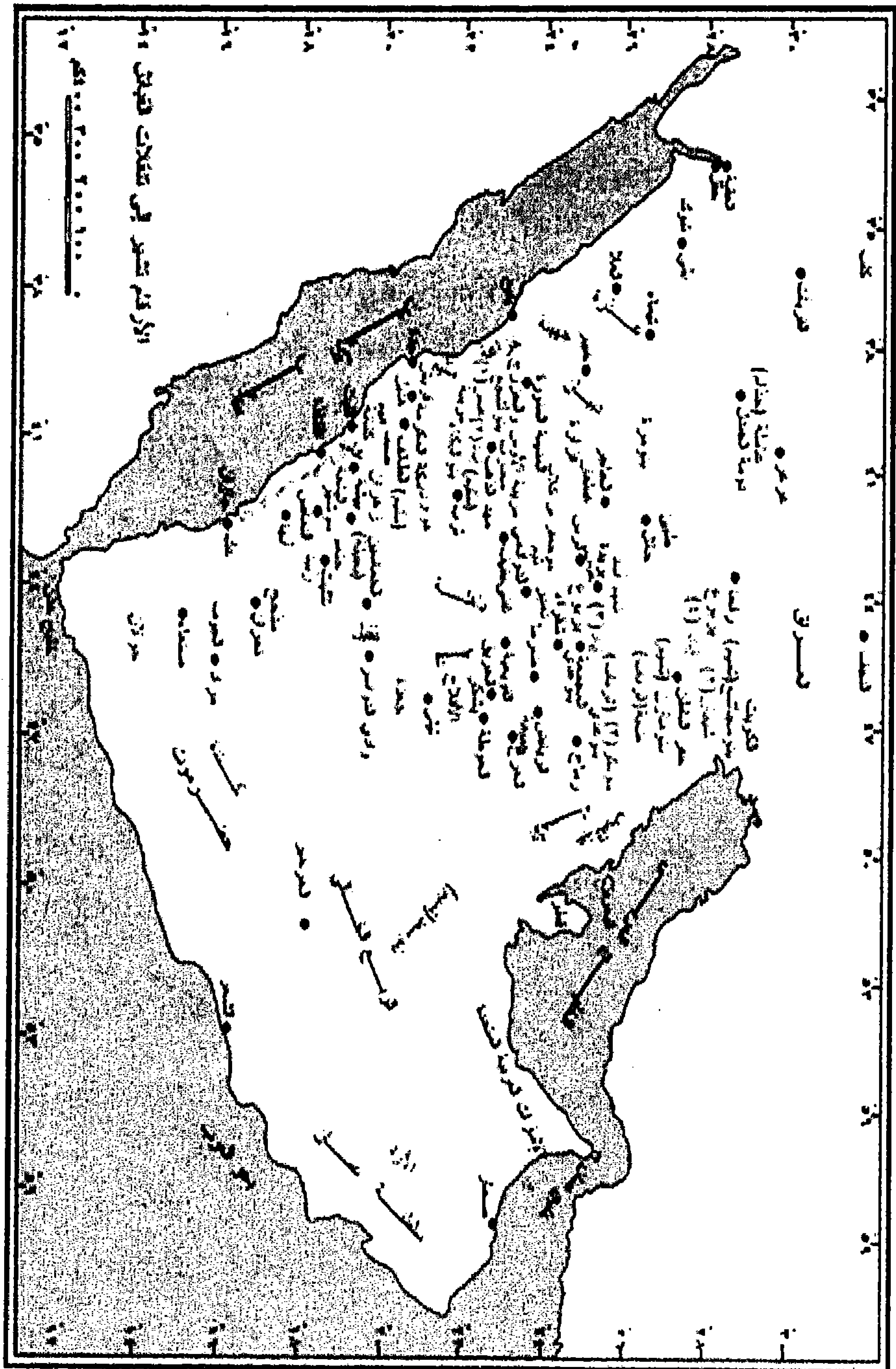
مدخل:

تعددت الدراسات الأدبية والنقدية حول الشنفرى وعلاقته بالصعلكة، وتداخلت الآراء، حتى أصبحت الصعلكة ظاهرةً اجتماعية لا بد أن يضعها الدارس في حسبانه عندما يتناول الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وحتى غدا الشنفرى معدوداً رمزاً من رموز الثورة الاجتماعية والتمرد على الأعراف القبلية، وهكذا وُضع الشنفرى وعروةُ بن الورد وتأبط شراً في منظور واحد، تجاوز كل فوارق الحياة والطبقية التي كانت تشكل شخصية كل فرد على حدة. وفي هذه الدراسة نجد أن كل هذه الأحاديث تدور حول نتيجة واحد، من غير أن نلجأ إلى التحليل وسبر القضية من أساسها، فعروة بن الورد لم يكن صعلوكاً حسب المفهوم الشائع ، وإنما كان رئيساً قَبَلياً، لا يختلف ما يقوم به من مهمات العشيرة عما كان يقوم به حاتم الطائي، الذي أشاد في شعره بالصعلكة. أما الجانب الآخر من الصعلكة، نفسها أي: الخلع، فلا يمثل تمرداً اجتماعياً، أو يعبر عن انقسام المجتمع إلى شرائحَ متباينةٍ متباعدة، وإنما هو اضطرار قسري، لم يكن هناك بد من اللجوء إليه تحت ضغط اجتماعي خاص، وهو رفض الجماعة لسلوك إنسان ما في أغلب الأحيان.

ووفقاً لهذين العنصرين وجدنا لقب "الصعلوك" يُطلق على مَنْ يعيش في المجتمع، وهو مقبول منه، لا أن يُطردَ خارج الجماعة، وهي حال تخص من اقترف "جريرة"، فاضطُر إلى الهروب. ولم يكن مسمى "الصعلوك" فقيراً، غير حامل للسلاح، أو "الصعلوك" المحارب، المغامر، مما أطلق على " الخليع " أبداً، فـ"الخلع" ـ الخليع الذي لم تعد له حماية قبلية ـ كان اسمه: "الخليع" فقط، ولم يكن بقادر ـ بأية صورة من الصور، نتيجة للانكسار والهزيمة النفسية ـ أن يغزو بمفرده، مهما كانت الأحوال. كان هذا النوع من الأفراد يعيش تائهاً، متشرداً، وحيداً، بائساً، أشد ما يكون البؤس والشقاء. ومسمى "الخليع " الآخر هو الذي

يشترك فيه مع "الصعلوك" الشجاع، وهنا يعني التهتك، واللامبالاة فقط، ومهما حمل من صفة، فهو جزء من المجتمع، تحتضنه الجماعة، وتدافع عنه، بل تثأر له. وبهذا، تحوّلت كل المفاهيم، لتعودَ مفاهيمَ قبليةً اجتماعية، ذات علاقة بطبيعة البناء الاجتماعي في الجاهلية.

ولقد تبين لنا تداخل تفسير معنى "الصعلكة" بـ"الصعاليك" الفرسان، "الفتيان"، فمُسمًّى "الصعاليك" أُطلق عليهم مجازياً، مهما كانت ألوانهم؛ لأنهم اعتمدوا على الغزو الخاص في الإغارة والنهب، وهذا الغزو ليس حرباً. على أن العبيد لم يكونوا في يوم من الأيام ضمن "الصعاليك" بوصفهم عبيداً، ولم يكن تركيب المجتمع القبلي في الجزيرة العربية في الجاهلية، أو حتى في الإسلام، يتيح الفرصة لمن كان رقيقاً أن يشارك في الغزو على أنه حر طليق، فإن حدث هذا، فهو ضمن التجمع القبلي، بوصفه حرّاً طليقاً، غيرَ مستعبد، ووَضْعُ عنترةَ خير شاهد على ذلك. أما التركيز على اللون، كما يذكر خليف، فليس متوافقاً مع التوزيع الطبقي في القبيلة، وهو أخذ باستنتاجات مسبَقة، وأهم من ذلك التيقن من دلالة الألوان في الجزيرة العربية، ثم التحقق من الأخبار. ذلك أنه لم يكن من بين كل اللصوص في الإسلام لصٌّ أسودُ، أو ذو سِحنة مغايرة لسحنة أبناء قومه. ولم يكن عروة أسودَ، ولم يكن حاتمٌ أسود، ولم يكن كلُّ شعراء هذيل، ممن يَعْدون على أرجلهم، ويغْزون، سوداً، بل كان أبو ذؤيب وغيرُ أبي ذؤيب مِنَ الصميم في هذيل.



الفصل الأول

المفهوم العام للصعلكة

تتردد في الشعر العربي القديم كلمتان مترادفتان: الأولى هي الفقر، والأخرى هي الصعلكة. وبهذا الترادف تتساوى المفردتان في المعنى. وهكذا، استُخدمت الصعلكة، لتدلَّ على الفقر حقيقةً أو مجازاً؛ فهي تعني:

انجراد الشَّعَر وزواله، أي: تساقطه.

يقول أبو دؤاد الإيادي، واصفاً حمار الوحش، وقد انسلَّ شعره في الشتاء، بعدما توافر له الكلأ والماء، فسَمِن، وبَدُن، وهو بين إناثه الأربع:

مثلُ عَيْر الفلاة صَعلكه البَقْـ
ـلُ مُشيحٌ بأربعٍ عُشَرات(١)

ويقول كذلك، في وصف خيله، وقد طارت أوبارُهن في الربيع، كنايةً أيضاً عن الامتلاء؛ إلا أنهن غيرُ متروكات، لِيبْدُنَّ، بل مركوبات منهوكات: "قرّع جلد الفرائص الأقدام":

---

(١) شعر أبي دؤاد الإيادي، ضمن دراسات في الأدب العربي، غوستاف غرونباوم، ترجمة: إحسان عباس وآخرين (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٥٩م)، ص ٢٩٨. وجاء في شرح البيت: "أضمره وأدقه"، ويبدو أن هذا ليس صحيحاً؛ لأن زوال الشعر في الربيع ليس دليلَ هُزال، وإنما دليل زيادة في الوزن، وقد ذكر أبو دؤاد نفسه أن البقل: أي الخضرة - العشب، هو الذي صعْلكه، وتساقُطُ شعر الحمير في الربيع مسألة لحظها الشعراء القدامى، فقال عروة بن أذنية:

ألقت عقيقة شَتْوة عن لونها قبل المصيف فخرَّقت سربالها

شعر عروة بن أذنية، تحقيق: يحيى الجبوري (بيروت: مطبعة التعاونية اللبنانية، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ص١٦٣. وقال العجاج:

واجتبن بعد البلق اكدرارا

ديوانه ص٤٠٠ .

وقوله: مشيح: مائل. الأربع: يعني بأُتُن أربع. عشرات: حوامل.

قـد تـصـعْـلَـكن في الـربـيـع وقـد قـ

ـرَّع جـلـدَ الـفـرائـص الأقـدام(١)

الضآلة وصغر الحجم:

يقول ذو الرمة في الظَّليم، مبيّناً ضآلة رأسه، على معنى العَدَم:

يُـخـيِّلُ في المـرعى لـهنَّ بـشـخـصه

مُصَعْلَكُ أعلى قُلّة الرأس نِقنِقُ(٢)

ويقول أيضاً في وصف ناقته:

بـنـغّـاضـةِ الأكـتـافِ تَـرمِي بِلادَهـا

بمـثل المَـرائي في رؤوسٍ صَـعـالك(٣)

أي: إن رؤوسها لا وَبَر عليها، (وهكذا جاء قولهم: تصعلكَتِ الإبلُ: أي ذهبت أوبارها)(٤).

المعنى المجازي:

لقد جاء وفق تلك المعاني الدلالية الأولى قول الشنفرى في تأبط شراً الذي وصفه بأنه "مصعلكة"، "ولا يقصر الستر دونها". فهو كالحمار الذي انسلّ شَعره شتاءً، وهو كالفرس الذي تساقط شعره من أثر السُّمنة في الربيع، وهو كذكَر النعام

(١) شعره، ص ٣٤٠. قرع: أزال الشعر، الفرائص: جمع فريصة: وهي موضع قدم الفارس، وجاء فيه أيضاً عن معنى "تصعلكن": "طارت أوبارهن ورقَقن". ويبدو أن ذلك ليس كذلك، وإنما جاءتهن الرقة من عدم تركهن حتى يسمَنّ.

(٢) ديوان ذي الرمة، تحقيق: عبدالقدوس أبو صالح (دمشق: مطبعة طربين، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، جـ١، ص ٤٨١. يخيل: أي هذا الظليم كالخيال لفراخه حتى يتبعه، أي: يرفع رأسه، مصعلك: دقيق الرأس صغير العنق، قلة: أعلى. نقنق: صوت ذكر النعام. وانظر: أبو الفضل، جمال الدين بن محمد بن مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د.ت)، "هجف". الدثور: المتدثر، المتغطي في فراشه.

(٣) ديوانه، جـ٣، ص ١٧٣٣، نغاضة: تحرك أكتافها، المرائي: جمع مرآة، ويقصد بها عينيها.

(٤) أبو زكريا، يحيى بن علي بن محمد التبريزي، شرح المفضليات، تحقيق: علي محمد البجاوي (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، جـ١، ص ٣٩٠.

- الظَّليم - الذي لا يغطي رأسَه شَعرٌ، وهو كناقة ذي الرمة، التي ذهب وَبَرُها (ومنه وَبَر رأسها)، إنه لا يغطِّي رأسه شعر، فقوله: "لا يقصر الستر دونها"؛ يعني: أن أجزاءً من جسد تأبط شراً مكشوفة، غيرُ مغطاة. وهذا يشير إلى أن اللباس الذي كان يرتديه هؤلاء كان محدوداً جداً، لا يتجاوز ما يغطي العَورة من البَدن كله، قد يكون مِئزراً قصيراً، وربما كان الصدرُ عارياً، والرأس مكشوفاً.

أما قوله: "مصعلكة"، فهو يسير وفق المعنى السابق، والمعاني الأصلية الأولى، أي: انكشاف تلك الأجزاء من الجسم، فهو لا يعني كما تردد طويلاً بين أولئك الدارسين، موافقة للشرح القديم:

مصعلكة: صاحبة صعاليك.

صعلكته: ذهبت بماله.

لا يقصر الستر دونها: لا تغطي أمرها فهي مكشوفة الأمر (وإنما يعني خفة اللباس من أجل خفة الحركة والتنقل السريع).

أما المعنى المجازي الذي حل محل المعنى المادي الأصلي، أي: الفقر والعدم، فنجده في مثل قول لقيط بن زرارة:

إن يقتلوا منا كريماً فإننا

أبأنا به مأوى الصعاليك أشْيَما[1]

والعبارة: مأوى الصعاليك، هي العبارة التي وُصف بها عروةُ وغيرُه من الأسياد، ولنلاحظ فكرة القتل والثأر، من سيّد القوم، الذي يحيا بينهم، ويؤدي حاجات ضعفائهم ومحتاجيهم. وهذا هو معنى قول أوس بن حجر، في رثاء عمر بن مسعود بن عدي الأسدي:

(١) أبو عبدالله، محمد بن عمران بن موسى المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٠م)، ص ٣٨. أبانا: قتلنا.

أودى ربيعُ الصعاليك الأُلى انتَجعوا
وكل ما فوقها من صالح مُودي(١)

وقد وصف الشنفرى تأبط شراً بأنه "مصعلكة" و"لا يقصر الستر دونها"، يقول:

مصعلكة لا يقصر الستر دونها
ولا تُرتجى للبيت إن لم تبيِّت(٢)

وتأكيد معنى الفقر واضح في قول أحدهم، في مدح راشد بن عمرو الجديديّ، سيد الأزد في زمن معاوية :

غزا السِّندَ ميمونُ النَّقيبة حازمٌ
منَ الأزد جَلْداً للصعاليك رافعُ(٣)

ويقول جبّار بن جَزءٍ:

يا واهبَ الجُرْدِ الجِيادِ بلُجْمِها
ومُمَوِّل الصعلوكِ بعد جُناحِ(٤)

ويقول الأسعر بن حمران الجعفي، في الخيل:

وتبيت للثَّغرِ المَخُوفِ طلائعاً
وتبيت للصُّعلوك غُرَّةَ ذي الغِنى(٥)

---

(١) ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، ص٢٥.

(٢) التبريزي، شرح المفضليات، جـ١، ص ٣٩٠. تبيت: البيات من القوم، وهو الإيقاع بهم ليلاً.

(٣) أبو محمد ، الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، الإكليل، تحقيق: محمد بن علي الأكوع (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، جـ٢، ص ٢٢٧.

(٤) أبو القاسم، الحسن بن بشر الآمدي، المؤتلف والمختلف، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م)، ص١٣٧ .

(٥) علي بن عبدالرحمن، حلية الفرسان، تحقيق محمد عبدالغني حسن (القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٢م)، ص ١٧٨ . ولكن قابل هذا ببقية أقواله؛ أبو سعيد، عبدالملك بن قريب الأصمعي، الأصمعيات، تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م) ، ص ص ١٤١-١٤٢ .

ويقول الأخطل، في خالد بن عبدالله بن خالد بن أسِيْد :

أخـــالـــدُ مــــأواكم لمن حَلّ واسعٌ

وكفاكَ غيثٌ للصعَاليكِ مُرْسَل(١)

ويقول كذلك :

فأنت الذي ترجو الصعـاليكُ سَيْبَه

إذا السَّنةُ الشهباءُ خَوَّتْ نجومُها(٢)

وقال جرير، يمدح رجلاً من بني عدي بن عبد مناة :

هو الذائد الحامي الحقيقةِ بالقَنا

وفي المَحْلِ زادُ المُرْمِلينَ الصعالِكِ(٣)

وسوف نرى أن هذا المعنى ينطبق في الإسلام على مجموعة خاصة من الناس، خضعت لسلطة الدولة، ولم تستخدم القوة لنيل مآربها، ولهولاء شَبَهٌ سنراه في الجاهلية.

ونجد مفهوم الصعلوك المُعْدَم أيضاً في قول حسان :

لـقـد عـلـمتُ بـأني غـالـبي خُـلُـقي

على السَّماحة صعلوكاً وذا مال(٤)

وقول العجاج:

---

(١) شعر الأخطل ، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت: دار الآفاق الجديدة، د. ت)، جـ ١، ص ٢٧ . غيث: مطر.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٧ . السنة الشهباء: عام الجَدْب والقحط. خوت: تخوية النجم، الا يمطر من طلوعه إلى سقوطه. القنا: الرماح.

(٣) ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين، طه (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)، ج١، ص ٤٠٤ . الحقيقة: الحُرْمة، أو الراية. المحل: القحط. المرملين: الفقراء المحتاجين الذين لا زاد لهم.

(٤) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: ولدي عرفات (لندن: مطبعة ستيفن أوستن وأولاده، ١٩٧١م)، جـ ١، ص ٣١٤ .

نُـتـبـعـهم خـيلاً لـنـا عـواتـكـا

في الحـرب جُـرداً تَـرْكَبُ المـهـالـكـا

ذات ارتـيـادٍ تُـنـكِح الـصـعـالـكـا(١)

أي: نغنم غنائم تكون مهوراً للصعاليك، ينكحون بها؛ أي: لهم نصيب نوفِّره لمن لا يقدر على المهر من رجالنا.

وقال أعشى همدان:

لمـغـتَـربٍ وصـعـلـوك عـديم(٢).

وقال ذو الرمة، يمدح مالك بن المنذر بن الجارود:

أَجِـدِّي إلى دارِ عـمـرةَ إنـه

مُنى هَمِّك الأقصى ومأوى الصعالك(٣)

وقال عقبة بن النعمان العَتَكي:

تـضـمَّـنه مـنـا عِـبـادٌ وجَـيْـفـر

وظـالِمُ الـمُـؤْوِي إلـيـه الـصـعـالك(٤)

وقال حوى بن سعيد السعدي:

فـمَنْ لـلـيـتـامى عـائلٌ بـعـدَ مـالكٍ

ومَنْ لـلرجـال المُرمِـلـين الـصـعـالك(٥)

---

(١) ديوان العجاج، تحقيق: عزة حسن (بيروت: دار صادر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ص ٨٣. عواتك: مغتاظة عليهم. جرداً: قصيرات الشعر، جمع جرداء.

(٢) رودولف غاير، الصبح المنير في شعر أبي بصير (فينا: مطبعة أدولف هلزهوسن، ١٩٢٧م)، ص ٣٤١.

(٣) ديوان، ج٢، ص٦٥٧.

(٤) محمد بن عمر الواقدي، كتاب الردّة، تحقيق يحيى الجبوري (بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص٥٦.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٨.

وقال آخر :

إني وإن كـان ابنْ عَـمِّيَ كـاشحـاً
لَـمُـزابنٌ مِنْ دونـه وورائـه

وبعده :

وإذا تَـخَـرَّق في غـنـاه وَفَـرتُه
وإذا تـصـعْلَك كـنتُ من قُـرَبـائه(١)

وهـذا دليل آخر على الترابط في المجتمع الأسري، في العائلة، وهو جزء من التماسك في العائلة الممتدة، العشيرة.

وقال غيره :

ولـه صـعـلـوك تَـشَـدَّدَ هَـمُّه
عليه وفي الأرض العريضة مَصقَعُ(٢)

ويتجلى هذا المعنى في وصف عدي بن الرقاع لأبناء صياد الحُمُر الوحشية :

يَـصـيـد لأولادٍ لـه قُلٍّ مـا غـدا
مُذ اجتمعوا إلا صعاليكَ سُغَّبا(٣)

وقد أوضح أحدهم بأن " الصعلوك " هو الفقير ، فقال :

إن اتِّـبـاعك مولى السَّـوء يَتْـبَـعُه
لك الصعاليك ما لم يتَّخذ نَشَبا(٤)

(١) أبو العلاء، صاعد بن الحسن الربعي البغدادي، الفصوص، تحقيق: عبدالوهاب التازي سعود (المغرب: مطبعة فضالة، ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٣م)، ج٥، ص ص٢٥٣– ٢٥٤. كاشحاً: غاضباً. مزابن: مدافع ومزاحم. تخرق: بَطِر وتباهى. وفرته: احتفظت به، ولم أضعه.

(٢) محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس (القاهرة: مطبعة الخيرية، الطبعة الأولى، ١٣٠٦هـ)، "صقع" . المصقع: المُتَوَجَّه.

(٣) شعر عدي بن الرقاع، تحقيق: نوري حمودي القيس وحاتم الضامن (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص ٢٢٩. سغب: جائعون.

(٤) الزبيدي، التاج، " صعلك " . النشب: المال.

وهذا ما بينه فُرْعان، من مُخضرَمي الدولتين، في رجل زوّجه، فقيل له: إنه صعلوك، فقال:

إن يكُ صعلوكاً شريكي فإنه
وهِملاجَه رَهْنٌ بأن يَتَمولا(١)

على أن معنى "الصعلوك": الفقير، واضح في قول الفرزدق، وهو يؤازر قولَ العجَّاج سابقاً:

غزونا به أرضَ العدوِّ ومَوَّلت
صعاليكَنا أنفالُه ومقاسمُهْ(٢)

فـ "الصعاليك" هنا هم: الفقراء. وهذا معنى قوله في ذكر داود بن قَحْذَم:

الله يعلم والأقوامُ قد علموا
أن الصعاليك أمسى جَدُّهم عَثَرا(٣)

وقد فهم الحوفي فهماً مغايراً قول لَقيط بن زُرارة، عندما قتل أشيم بن عوف:

فإن تقتُلوا منا كريماً فإننا
قتلنا به مأوى الصعاليك أشْيَما
جدعنا به أنْفَ اليمامة كلِّها
فأصبح عِرنِينُ اليمامةَ أكْشَما
قتلنا به خَيْرَ الضُّبيعات كلِّها
ضُبَيعةِ قيس لا ضُبيعةَ أضْجَما

يقول الحوفي: "ومما يدل على أن الصعلكة ـ على ما فيها من ثورة وعدوان ـ كانت

(١) الربعي البغدادي، الفصوص، ج٣، ص٩٥ . الهملاج: المركَب. يتمول: يغتني.

(٢) ديوانه، ج٢، ص٧٦٧. أنفاله: عطاياه. مقاسمه: غنائمه.

(٣) ديوان الفرزدق، تحقيق: كرم البستاني (بيروت: دار صادر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ج١، ص ٣٥٣.

دلالةَ القوة والفتوة أن لقيط بن زرارة، قتل أشيم بن عوف أحد الصعاليك"(١).

فإذا كان لقيط أحد الصعاليك، وهو أحد الكرماء، فإن كل كريم هو صعلوك، وبهذا تسقط تلك الفوارق بين الجميع. والحق مع الحوفي، لو جعلنا هذا هو القاعدة، وفهمنا الصعلكة كما هي؛ فأشيم كان شجاعاً، فارساً، وحالُه حال غيره ممن بَذل نفسه في سبيل سواه، وما ينطبق على عروة بن الورد، وحاتم، وتأبط شراً والشَّنفرى .. إلخ، ينطبق على أشيم؛ فكلاهما "مأوى الصعاليك"، وهو عزيز في قومه، لم يطردوه، أو يخرجوه، أو يخلعوه، بل هو "خير الضُّبيعات"، وتبكي عليه اليمامة بأسرها، وكذلك حال كل أولئك الفُتّاك الشجعان. والحق مع الحوفي أيضاً إذا وضعنا في الحسبان ظاهرة الالتزام الاجتماعي تجاه الفقراء والمحتاجين (الصعاليك الضعفاء)، أي: ظاهرة الكرم.

وكما كان ذلك تفسير الحوفي، نحا سيد حنفي المنحى ذاته في قوله:

"تحدث الصعاليك عن فقرهم وأسبابه، وتأثيره في نفوسهم، وفي أجسامهم، وأثره في حياتهم الاجتماعية، ثم الوسائل التي يتخلصون بها منه، وهم لا يخجلون من هذا الفقر، بل يردونه إلى كرمهم وإسرافهم ... وهذا أبو خِراش يدعو امرأته إلى ألا تدخر شيئاً، ولا تحسب حساب الغد فإن لم يجد فيه بعض زادهما، فسيحصل لها زاداً غيره، وإلا فلتُمسك فمَها عن الطعام :

لقد علمَتْ أمُّ الأُدَيبرِ أنني
أقول لها هَدِّي ولا تَذْخَري لحمي
فإن غداً إلا نجِدْ بعضَ زادنا
نفيء لك زاداً أو نَعَدُّك بالأزم(٢)

---

(١) الآمدي، المؤتلف والمختلف، ص٢٦٧. وانظر: أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي (القاهرة: دار نهضة مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٢م)، ص٣٠٥. جدعنا: قطعنا. عرنين: أنف. أكشم: مكسور.

(٢) سيد حنفي حسنين، الشعر الجاهلي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٧١م)، ص ٩٦. هدي: =

يمثل أبو خراش الكرم المسرف خيرَ تمثيل، أو بمعنى آخر: التضحية في سبيل إعاشة الآخرين، الأمر الذي يُحيله باستمرار إلى الفقر وعدم المِلْكيَة. وإذن، كيف يكون هؤلاء صعاليكَ، حسب معايير الصعلكة المتداولة، ويظلون فقراءَ، ثم هم مسرفون في الكرم؟ إنهم في هذه الحالة ليسوا فقراءَ، وإنما أغنياء، حالهم حال الأغنياء الآخرين في المجتمع، وهم أيضاً ذوو شأن في مجتمعهم، يُطعمون الطعام في أوقات الأزمات والشدائد، ويلبُّون دواعي النجدة والإغاثة، فهم كأولئك الأسياد الذين يُشعلون النيران للضِّيفان، ويُؤدبُون المآدب، وهذه المرأة حريصة على مال أبنائها، كما تحرص كل امرأة، وصوتها هو الصوت المتردد في أشعار الكرماء، شدّاً وجذباً، ليس بخلاً، وإنما رغبةً في شيء لأبنائها، بينما يسرف الرجل؛ لأنه سيعوّض هذا، وطريقة التعويض هي الطريقة التي يسلكها كل أولئك، إنها الغزو والإغارة على مال الآخرين.

= اقسمي هديتك وما عندك، ولا تذخري أي: ولا تختاري شيئاً تدّخريه. نفئ: نفيء. نعدك: نصرفك بإمساك فمك. الأزم: إمساك الفم عن الطعام.

الفصل الثاني

الوصف التفصيلي لحالة الصعاليك

الصعاليك العاجزون:

وضح لنا المعنى العام للصعاليك، غير أن مفهوم الصعاليك يتجاوز ذلك المفهوم العام، ليصبح نموذجَ ذمٍّ واستخفاف في نظرهم، فقد أعطى الشعراء أنموذجاً واضحاً لأولئك الذين لا يَعطُون، ولا يكلِّفون أنفسهم مشقة الجهد في سبيل توفير لقمة العيش، ودعَوْا هذا الأنموذج بـ"الصعلوك"، وهو مسمّى عدمِ رضاً، إنه يستحق العطف والمساعدة، ولكنه ليس جديراً بحمل الصفات التي يُسبغها المجتمع على آخرين غيره، ممن يتصف بالمروءة والشهامة، والترفُّع عن إذلال نفسه، والحطّ من شأنها، وهو ـ مع كل ذلك ـ مقبول من المجتمع، غير مغضوب عليه، ولا متبرئ منه، نجد هذا الأنموذج في قول عروة بن الورد:

لحا الله صُعلوكاً إذا جَنَّ ليلُه
مُصافي المُشاشِ آلفاً كلَّ مَجْزَرِ
يَعُدُّ الغنى مِنْ دهره كلَّ ليلةٍ
أصاب قِراها مِنْ صديقٍ مُيَسَّرِ
ينام عِشاءً ثم يصبح ناعساً
يَحُتُّ الحصا عن جنبه المتعفِّرِ
قليلُ التماسِ الزاد إلا لنفسه
إذا هو أمسى كالعريش المُجَوَّرِ
يُعين نساءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِنَّه
ويُمسي طَليحاً كالبعير المحسَّرِ(١)

---

(١) ديوان عروة بن الورد، شرح كرم البستاني (بيروت: مكتبة دار الشرق، ١٩٧١م)، ص ٣٤ ـ ٤٤.

لحاه الله: قبَّحه ولعنه. جن ليله: ستره الليل بشدة ظلمته. مصافي المشاش: مختار، مؤثر=

فمثل هذا الرجل، الذي يندرج تحت مسمى الصعلوك، هو عالة على المجتمع، رجل كسول، لا يعمل، ولا يكلِّف نفسَه عناءَ البحث عن عمل، وإنما يظل طيلة نهاره دون عمل، على حين أن نساء الحيّ يَغْدون صباحاً، ويَرْجعن مساءً في نشاط مستمر، وقد ربطه بالنساء إمعاناً في التأثير عليه، وتبياناً لكسله. ثم هو إذا جاع، يجد الغذاء ينتظره، وهو غذاء ليس بالقليل. وتنقل لنا الصور مجلساً قبلياً مفتوحاً، يَرِده مَنْ يشاء مِنْ سائلي الغذاء. ثم إن تلك الجزور ليست من فرد واحد، بل: "كل مجزر"، أي: أفراد متعدِّدون، وهؤلاء يكُونون بمنزلة الصديق: "صديق ميسر"، أي: هم يرحبون بمثل هذا الإنسان، على الرغم مما يعرفون عنه من كسل وتراخٍ.

وتنقل لنا صورة هذا الصعلوك صورة رجل لا يشكو نقصاً في زاد، أو افتقاراً إلى طعام، فهو ينام عشاءً؛ لأنه سيضمن عشاءه مساء اليوم التالي، وما قوله: "كالعريش المجوَّر"، و"كالبعير المحسر"، إلا دليل على أن هذا الصعلوك يجد الطعام الزائد عن حاجته حتى ينعكس ذلك على جسده بدانةً وسمنةً؛ حتى إن رجلاً سيّداً مثل حاتم الطائي، يستخدم الصورة التي استخدمها عُروة نفسها، مما يدل على أن هناك قاسماً فكرياً مشتركاً بين الاثنين، يقول:

لحى اللهُ صعلوكاً مُناه وهَمُّه
منَ العيش أن يلقى لَبوساً ومطعما
يرى الخَمْصَ تعذيباً وإن يَلْقَ شَبْعَةً
يَبِتْ قَلْبُه من قِلَّة الهمّ مُبْهَما

= للأكل؛ والمشاش: رأس العظم اللين. المجزر: الموضع الذي تُجزر فيه الإبل، القرى: الكرم. طليحاً: قد أعيا وحسر عن العمل، كأنه بعير محسر: أي حسير ضعيف. يعين: يساعد.

وهذه الأبيات تُنسب إلى العُجير السلولي، أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (بيروت: دار الثقافة، ط٤، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ج ١٣، ص ص ٦٦ – ٦٧. حتى قال ابن حبيب: "من الناس من يروي هذه الأبيات التي أولها: سلي الطارق المعتر يا أم مالك، لعروة بن الورد، وهي للعجير"، فماذا بقي لعروة، أو حتى لمفهوم الصعلكة بشكل عام؟

يَـنام الـضُّحى حتى إذا يومُـه استوى

تـنـبَّه مـثـلـوجَ الـفـؤاد مُـورَّمـا

مُـقـيـمـاً مع الـمُـثرين لـيس بـبـارحٍ

إذا كـان جَدوى مِنْ طعام ومَجْثَما(١)

وهذه المعاني هي المعاني نفسها التي طرقَها عروة؛ فقول عروة: "كل مَجْزَرٍ"، و"أصاب قِراها من صديق ميَسَّر"، هما المعنى نفسه في قول حاتم: "مقيماً مع المثرين"، وقوله: "ليس ببارح". أما قول عروة: "كالعريش المجوَّرِ" و"كالبعير المحسَّرِ"، فهما المعنى نفسه في قول حاتم: "مورما". وإذ تُقدِّم مجملُ أبيات عروة الصعلوك منتقلاً من مأوىً إلى آخر في الحي، فإن حاتماً يقول: "إذا نال جدوى من طعام ومجثماً".

ووفق هذه المعاني يقول السُّليك بن السُّلكة:

فلا تَـصِـلـي بـصـعـلـوك نَـؤوم

إذا أمـسى يُـعَـدُّ مِنَ الـعـيـالِ(٢)

وقال متمِّم بن نُويرة، في أخيه مالك:

ولا بَـرَمـاً تُـهْـدي الـنِّـسـاءُ لـعِـرْسِه

إذا الـقَـشْعُ مِنْ بـرد الـشتاء تَقَشَّعا(٣)

وقال غيرهما، في مقارنة بين نوعين من الصعاليك في بيت واحد:

---

(١) ديوان شعر حاتم الطائي، تحقيق: عادل سليمان (القاهرة: مطبعة المدني، د . ت)، ص ص ٢٣٩ – ٢٤٠. اللبوس: اللباس. الخمص: الجوع. المبهم: القليل الهم. المورم: المنتفخ من كثرة الأكل. المثرين: الأثرياء الأغنياء. جدوى: عطاء. مجثم: موضع يجثم فيه.

(٢) أبو العباس، محمد بن يزيد المبرد، الكامل، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة دار النهضة، ١٩٨٠م)، ج ١، ص ١٨ .

(٣) الزبيدي، التاج، "قشع". البَرَم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. عرسه: زوجته. القشع: قطعة من الجلد، وهنا: الرَّجل المنقشع لحمه عنه كبراً، فالبرد يؤذيه ويضره.

ألم تعلمي أن الصعاليك نومُهم
قليلٌ إذا عام الدَّثور المسالِمُ(١)

النوع الأول: الصعاليك الغُزاة. والنوع الثاني: المسالمون النائمون، أو حسب تعبير متمم: "بَرَماً تُهدي النساء لعِرْسه".

على أن الصعاليك هنا ليسوا جماعةً خاصة مميزة، وإنما جماعة عامة منتشرة، ذاتُ أسلوب خاص في الكسب والحصول على الغنيمة.

ويأتي الشَّنفرى بوصف مشابه لِمَا قاله عروة وحاتم، مما يُتَصَوَّر بأنه الصعلوك الخامل، في عدة أحوال، فيقول:

ولست بِمهيافٍ يُعَشِّي سَوامه
مجدَّعةً سُقبانُها وهي بُهَّلُ
ولا جُبَّأٍ أكهى مُربّ بعرسه
يطالعها في شأنه كيف يفعلُ
ولا خَرِق هَيْقٍ كأن فؤاده
يظل به المُكّاء يعلو ويسفلُ
ولا خالفٍ داريّةٍ مُتَغَزِّل
يروح ويغدو داهناً يتكَحّلُ
ولست بعَلٍّ شرُّه دون خيره
ألفَّ إذا ما رعته اهتاج أعزلُ(٢)

(١) اللسان، "دثر". الدثور: المتدثر، المتغطي في فراشه.

(٢) شعر الشنفرى الأزدي، تحقيق علي ناصر غالب (الرياض: دار اليمامة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، ص٧٠-٧٢. المهياف: السريع العطش. السوام: الإبل الراعية. مجدعة: مقطعة آذانها، ويعني هنا: السيئة الغذاء. السقبان: جمع سقب: وهو الذكر من ولد الناقة. بهل: جمع باهلة، وهي الناقة التي لا صرار عليها. الجبأ: الجبان. الأكهى: الضعيف الذي لا خير فيه البليد. عرسه: زوجته. الخرق: الدَّهش من الخوف. الهَيْق: ذكر النعام. المكاء: طائر لا يستقر على =

حتى إن الشنفرى في بيته الأول يستنقص حتى من يملك إبلاً، ولا يخاطر في طلبها، ولا يعرّض نفسه دفاعاً عنها.

ويقول الأعلم الهذلي:

هـواه مـثلُ بـعـلك مُـسـتـمـيـتٌ
علـى مـا في وعـائك كـالخـيـال
يُـلـطِّم وَجْهَ حَـنَّـتـه إذا مـا
تَـقـولُ تَـلَـفَّـتَنَّ إلى الـعـيـال
ويَـحـسِـب أنه مَـلِـك إذا مـا
تَـوَسّـد ظَـبْـيَـة الأَقِط الجُـلال
كـأن مُلاءَتَيّ عـلـى هِـزَفّ
يَـعُنّ مـع الـعَـشِـيّة لـلـرِّئـال[١]

إنها صورة نمطية تتكرر، تأتي دوماً في مقارنة بين نوعين من أهل الحيّ الواحد، أو العشيرة الواحدة.

واختصاراً لكل ما مر، نجد حاتم الطائي، يحدد النوع الأول من أنواع الصعاليك، فيقول مرة أخرى:

= الأرض. الخالف: الذي لا خير فيه. الداريّ: المقيم في داره لا يفارقها، ومنشغل بتطييب بدنه وثوبه. متغزل: مولع بمغازلة النساء ومحادثتهن ومراودتهن. الرواح: المجيء مساءً. الغدو: الذهاب صباحاً. الداهن: الذي يدهن نفسه بالدهن. المتكحِّل: الذي يتعاطى كحل عينيه. العل: القراد، والرجل المسن الضعيل الجسم. ألف: عاجز متهالك. رعته: أفزعته. اهتاج: أسرع. أعزل: لا سلاح معه.

(١) أبو سعيد، الحسن بن الحسين السكري، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (بيروت: مكتبة خياط، د.ت)، ج١، ص ٣١٩.
الخيال: شيء يصنع للذئب حتى لا يقرب الغنم. حَنّته: امرأته. ظبية: جراب صغير من جلد. الجلال: الضخم. الملاءة: الرداء. الهِزَف: ذكر النعام السريع. يعن: يَعرِض. الرئال: فراخ النعام.

وشَـرُّ الـصـعـالـيك الـذي هَمُّ نـفـسه

حـديثُ الـغـواني واتّـبـاع المَـآرب(١)

أما النوع الآخر، الجامع بين الصعاليك الفقراء والصعاليك الفرسان، فنجده في قوله، وفيه إشارة إلى النوع الأول كذلك :

ولـيلٍ بـهـيمٍ قـد تـسـربَـلْتُ هـولَه

إذا الليل بالنِّكس الضعيف تجهَّما(٢)

وعلينا أن نتبصر في قول حاتم ذاك عن كلا الحالتين؛ إذ هو قول يدلنا مباشرة على مفهوم الصعلكة. ذلك أن ما يتطلبه حاتم ـ ممثلاً لموقف اجتماعي ـ هو المخاطرة والمجازفة للكسب والغنى، ومن لا يقوم بهذا في نظره ـ ونظر مجتمعه في الجاهلية ـ فهو "النِّكس الضعيف" .

إنه لمن الواضح تماماً أن الموقف الاجتماعي، كما يمثله عروة وحاتم، وكما طبَّقه غيرهما، ليس راضياً عن أولئك الصعاليك المتقاعسين، بل يذمُّهم، ويعيب تصرفاتهم، في حين أن الموقف الاجتماعي العام نفسه، وإن تقبل هؤلاء، بوصفه نوعاً من التكافل الاجتماعي، لا يجد في المقابل، في أعمال الصعاليك السادة والصعاليك الفتيان، ما يستدعي العيب والذم؛ ولهذا عَدّ هؤلاء أعمالهم تلك أعمالاً بطوليةً شُجاعة، تستحق الفخر بها والإشادة.

وهذه الفكرة نفسها هي التي عبَّر عنها ابن أحمر الباهلي، من نجد وأطراف السَّراة: بيشة، يقول:

فـلا تَـصِـلـي بمَـطـروقٍ إذا مـا

سـرى في الـقـوم أصـبح مُـسْـتَـكـيـنـا

---

(١) ديوان شعره، ص ٢٠٦، وانظر بقية تعريضة بمن يذمه، ص ٢٠٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٨ . بهيم: شديد الظلام. تسربلت: اتخذت سربالاً، أي لباساً. هوله: خوفه. النكس: الجبان. تجهم: اشتدت ظلمته.

إذا شَـرِب الـمُـرِضَّـةَ قـال أوْكي
علـى مـا في سـقـائك قـد رَوِيـنـا
يَـلـوم ولا يُلام ولا يُـبـالي
أغَـثّـاً كـان لَـحْـمُك أو سَـمِـيـنـا
يـظل أمـام بـيـتـك مُـجْـلَـخِـدّاً
كـمـا أُلـقـيت بـالـسَّـنَد الـوَضِـيـنـا
إذا اشـتـد الـزمـان أكَبُّ لَـغـبـاً
فلا قَـرْحـاً يُـدِرُّ ولا لَـبـونـا(١)

وما قول ابن أحمر، إلا كقول السُّلَيك بن السُّلَكَة الأول:

فـلا تَـصِـلي بـصـعـلـوك نـؤومٍ
إذا أمـسى يُـعَـدُّ مِنَ الـعـيـال

ووفق الالتزام الاجتماعي الذي يؤدي إلى احتضان المجتمع للصعاليك المحتاجين، فإن الصعلوك - الفقير - ليس مذموماً، محتقراً، منبوذاً، وإن آخَذَه المجتمع على تقاعسه، وتراخيه؛ إذ هو أحد أفراد هذا المجتمع نفسه، مهما كانت حالته. يقول المخبَّل السعدي، أحد الشعراء المخضرمين:

وكـائِنْ رأيـنـا من غَـنِيٍّ مـذمَّمٍ
وصعلوكِ قومٍ مات وهو حـميدُ(٢)

(١) شعر عمرو بن أحمر، تحقيق: حسين عطوان (دمشق: مجمع اللغة العربية، د-ت)، ص ص ١٦١-١٦٤. تصلى: تتزوجي. المطروق: الضعيف الليِّن المسترخي. سرى في القوم: سار بالليل. أصبح مستكيناً: ذاهب النشاط. المرضة: لبن الحليب الحامض الخاثر. أوكي: شدي رأس السِّقاء وسديه. الغث: الرديء. المجلخد: المضطجع المستلقي. السند: المرتفع في الأرض. الوضين: بطان عريض منسوج بعضه على بعض من سيور أو شعَر يشد به الرَّحْل على البعير. اللغب: الإعياء. القرح: هنا التي أصابها الجرب الشديد. يدر: يسيل لبنه كثيراً. اللبون: ذات اللبن.

(٢) حاتم صالح الضامن، شعراء مقلون (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص ٣٢٣. مذم: مذموم.

والمخبل ينقل وجهة نظر المجتمع قبل تحوُّله من الجاهلية إلى الإسلام؛ فـ"الصعلوك" : حميد، مادام منخرطاً في سلك القِيَم القبلية، وكذلك " الغني " الذي يحفظ له المجتمع سوء ذكراه، إن أخلَّ بها.

على أن شيئاً ملحوظاً في العصر الأموي، حيث بدأ التحول الاقتصادي يسير لصالح فئة معينة من الناس هم الأغنياء، مقابل تبدُّل طريقة التعامل مع الفقراء، يقول عقيل بن عُلَّفَة:

أرى الناس للصعلوك حرباً ولا أرى
لذي نَشَبٍ إلا خليلاً مُصافِيا(١)

وكان هذا التعامل غريباً عن الجاهلية، فلم يكن الناس للصعلوك حرباً، بل كانوا أهل تكافل. ومع ذلك، فإن هذا التعامل الغريب ليس عاماً، بل كان ظاهرة جديدة من الظواهر التي بدأت في البروز آنذاك؛ إذ إن قول العجاج كان في العصر الأموي، وكان مدْح ذي الرمة في العصر الأموي أيضاً، وهلم جرًّا.

وإن الصورة السيئة هنا، تلك التي قدمها عروة وحاتم وغيرهما، تدعو إلى استنهاض الهمم، وكسب الرزق عن طريق القوة. ومع ذلك، فسبيل العيش متوافرة لدى أي صعلوك كان، يوفره له الأغنياء، والأصدقاء، والموسرون، الذين ينحرون الإبل: "كل مجزَّر"، وكل عشاء يومياً، فهو يتبعها هنا وهناك، بل إنه يألفها، فأصبحت لديه عادة يعتادها، ويتردد عليها، وهي ليست متباعدة، بل في الحيّ نفسه، إنه صعلوك شبعان، ممتلئ، مع أنه لا يصحو مبكراً، وقت يهب الناس للعمل، حتى إن المثرين الأغنياء، كل الأغنياء في الحي، يرون التزاماً عليهم إعالته، وتقبُّله، فلقد تكفل المجتمع باحتضانه، على الرغم من أنه عالة عليهم.

وهذا يعني من طرف آخر، "أن كل مجزَر"، ليس لصعلوك الحيّ وحده، بل

(١) الشريف المرتضى، الأمالي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ج ١، ص ٣٧٤. حرباً: أعداء. نشب: مال.

لكل من يفد ليلياً إلى هذا العشاء، وهذا هو معنى الضيافة عند العرب، ومعنى طارق الليل ... إلخ. ولهذا جاء وصف أولئك السادة الجاهليين بأنهم: "ترجو الصعاليك سيْبُه" و"للصعاليك رافع" و"ربيع الصعاليك"، و"غيث الصعاليك"، و"مأوى الصعاليك"، وهي الفكرة التي رددها شعراء الإسلام، مستلهمين القِيَم الجاهلية، التي حبَّذها الإسلام، فهم زعماء عشائرهم ووجهائها.

ومعنى هذا أن كل هؤلاء من أهل الكرم والضيافة، ولا قيمة للبخلاء، مع العلم بأن الفخر بالكرم، وهو ظاهرة أدبية في الشعر العربي، لم يكن مقصوراً على الزعماء فقط، هؤلاء الذين يمدحونهم؛ إذ كانت هذه القيمة قيمة مثلى عند الأفراد كذلك، ولهذا لم يخْلُ شعر أي شاعر من الاعتزاز بالتضحية في سبيل إغاثة الآخرين، وإن وُجد أيضاً في هذا الوسط من كان بخيلاً، على ندرة.

ومما لا شك فيه أن أولئك الصعاليك لم يكونوا قِلَّةً في المجتمع العربي قبل الإسلام، ولم يكونوا محدودين بمناطق معينة، أو مخصَّصين بقبائل معروفة، بل كانوا كثرة، وكانوا متفرقين هنا وهناك.

ومما لا ريب فيه أيضاً أنه وُجد في الجزيرة العربية عدد كبير من أصحاب الثروة، في صحاراها وقراها، وإذا لم يكن الكرم عند بعضهم عُرفاً وأريحية، فقد كان التزاماً أخلاقياً، وأدبياً، وقبلياً، ولو قارنّا الإشادات بالكرم، واستقصينا تطبيقاته في المجتمع العربي، لوجدنا أن الغالبية كانت تمارسه حتى في أشد أوقات الحاجة إلى اكتناز المال والاحتفاظ به. وعندما يستشري القحط ويضغط الفقر والقفر؛ وما فتْح العربي أروقتَه ليلاً لكل طارق، وما استبشاره بنباح الكلاب، إلا دليل على أن النفس العربية لم تكن بذلك الشُّح الذي يُغري بإظهار الصعلكة على حساب وجوده وسخائه. ولعلنا نستشهد أخيراً بقول أمية بن أبي الصلت، في مدح عبدالله بن جدعان، في مكة المكرمة، المدينة التجارية التي كان أهلها مشغولين بأموالهم وتنمية ثراوتهم، ومنهم ابن جدعان نفسه، ففية يقول أمية:

له داعٍ بمكة مُشْمَعِلٌّ
وآخرُ فوق دارته ينادي
إلى رُدُحٍ من الشِّيزي ملاءٍ
لُباب البُرِّ يُلْبَك بالشِّهاد(١)

وكما رأيناهم يمدحون رجالاً منهم بأنهم "مأوى" ، و "ربيع" ، "وزاد" ، نجد لبيداً يقول:

ولا من ربيع المُقْتِرين رُزِئْتُه
بذي عَلَق فاقْني حياءَك واصبري(٢)

فتلك قيمة في المجتمع، لا يفسدها الشذوذ أو الاستثناء.

ويوضِّح التكافل الاجتماعي، والالتزام بالقيم الاجتماعية القبلية، وهي قيم واعتبارات لا تختص بها قبيلة دون أخرى، قولُ الخِرْنِق، الذي يُثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا توجد فوارق طبقية بين أبناء العشيرة الواحدة، فكلهم يجمعهم مسمًّى "قوم" ، وأنهم يشكلون وحدة واحدة متجانسة تقول:

لا يَبْعُدَنْ قومي الذين هُمُ
سُمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزْرِ

وبعده:

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق: عبدالحفيظ السطلي (دمشق: مطبعة التعاونية، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م)، ص ٣٨١ . مشمعل: نشيط وسريع. الدارة: كالدار بما فيها البناء والفناء إلا أنها أخص من الدار. الردح: جمع رَداح، وهي الجَفنة العظيمة. الرجح: جمع رَجاح: وهي الجَفنةَ الملأى. الشيزى: خشب أسود تُتخذ منه الجفان. اللباب: الخالص من كل شيء. البر: القمح. اللباب: النِّشا. يلبك: يخلط. الشهاد: جمع شهد، وهو العسل.

(٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: إحسان عباس (الكويت: مطبعة الحكومة، ١٩٦٢م)، ص ٤٨ . ربيع: خصيب. المقترين: جمع المقتر، وهو ضيِّق الرزق قليله. اقني: احفظي. ذو علق: اسم موضع.

والخـالـطـون نَـحـيـتَـهـم بـنُـضـارهـم
وذوي الـغـنى مـنـهـم بـذي الـفـقـرِ[١]

إنه حال كل شاعر عن قبيلته، ولسان كل قبيلة عن نفسها، المستضعفون منهم عليتهم، وذوي اليَسار بالمعدمين المُدْقِعين.

أما عن طبيعة حياة الصعلكة، صعلكة أولئك الذين راحوا يطلبون ما في أيدي غيرهم، فهي طبيعة واحدة لا تتجزأ، ولها طرق متشابهة، ووسائل وصور متقاربة، وتكيِّفها علاقات اجتماعية خاصة، ثم هي تفترق افتراقاً جذرياً عن الخلع، أو القناعة بالعدم أو الكفاف.

(١) ديوان شعر الخرنق بنت بدر، تحقيق: حسين نصار (القاهرة: دار الكتب، ١٩٦٩م)، ص ص٢٩ ـ ٣٠. النحيت: الساقط الخامل الذكر. النضار: الرفيع.

الفصل الثالث

الصعاليك الشجعان

تدل كل كل المعطيات التاريخية والاجتماعية في الجزيرة العربية، على أن الفقر لم يكن ظاهرة اجتماعية خاصة، بل هو ظاهرة اجتماعية عامة، يعيشها الناس؛ أي: إن الفقراء لا يشكلون طبقة محدودة، بل هم أغلب أفراد المجتمع.

وكان في المجتمع أغنياء، وكانت ركيزة الغِنى هي الأبل؛ ولأن الظروف السياسية لم تُتِح الاستقرار والأمن، فلم تكن هناك قيمة كبيرة للعمل الزراعي، مما ولّد لدى العربي نظرة دونية للحرفة بشكل عام. ولهذا لجأ مَنْ له استعداد نفسيّ وجسديّ إلى المجازفة بحياته وإلى الانقضاض على أموال الآخرين والاستيلاء عليها، يقول السُّلَيك بن السُّلَكة:

وما نِلْتُها حتى تصعلَكْتُ حِقْبَةً

وكِدت لأسباب المَنِيَّةِ أعرِف

وحتى رأيت الجوع بالصَّيفِ ضَرَّني

إذا قُمت تَغْشاني ظِلالٌ فأسْدُف(١)

فالسُّليك يتحدث عن كسب: "نلتها"، بعد طول معاناة وضراوة عيش من أجل الحصول عليها، وليس لأنه فقير في الأصل، فالفقر أحد الملامح المشتركة بين الناس، ليس في الصحراء فحسب، بل حتى في جبال السراة التي تتمتع بشبه اكتفاء ذاتي اقتصادياً، كما هو حال هذيل.

ولا بد من التأكيد هنا أن قول السُّليك: "حتى تصعلكتُ حِقبة"، يشير إلى أن الصعلكة مبدأ اجتماعي مشروع من أجل كسب العيش، وهو ما دعا إليه كلٌّ من عروة وحاتم، ولا يستطيع القيام به إلا من يُقْدِم ببسالة على أسباب المنية، فَتَصَعْلُك

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٠، ص ٣٥٠. تغشاني: تغمرني وتغلبني. أسدف: تطبق عيناي وتغمض.

السُّليك وأمثاله ليس تصعلُكَ خروج على الأعراف، وإنما هو يقع ضمن الأعراف، استجابةً للظروف البيئية. ثم إن قوله: "تصعلكت" لا يعني حالة الاستخذاء والاستجداء، بل يعني العكس تماماً، إنه يعني: "كدت لأسباب المنية أعرف"، أي: خاطرت، وغامرت، وتعديت، وصبرت على الجوع مدة من الوقت حدده بالصيف.

لقد قال الأصمعي عن عدد من هذيل:

"وبالسَّراة أكثر من ثلاثين، يعني الذين يَعْدُون على أرجلهم ويَختلسون"(١).

وقول الأصمعي "بالسَّراة"، يعني: وسط أقوام، وليس على أطراف السراة، ومعرفتنا بهؤلاء لا تجعلهم خارج هذيل، بل هم جزء منها. ثم إن العدد قليل إزاء الكثرة، وهذيل تمتد من أسفل يلملم جنوب مكة حتى أسفل الطائف، وأجزاء من مكة جنوبها وشرقها، ولو أن العدد أكبر مما قال الأصمعي، فإن هذا يعني تأكيد استخدام القوة للسطو على أموال الآخرين، وأنه كان سلوكاً نمطياً في المجتمع، بل بعض أعرافه، وقول الأصمعي واضح في أن هؤلاء الذين نَصِفهم بـ"الصعاليك"؛ لأنهم يختلسون، كانوا شجعاناً أشداءَ.

والواقع أن ممارسة الصعلكة لم تكن محصورة بهذا العدد القليل، الذي يصل إلى حد الندرة، بل كان وضعاً اجتماعياً سائداً، يُعطي صورة حقيقية عن مجتمع الجزيرة كله، فإذا كانت هذيل التي تعيش في منطقة توافر مياه، تلجأ إلى هذه الممارسة، فالأحرى أن تكون القبائل في صحارى الجزيرة وبواديها أشدَّ ضرورةً لها، يقول الجاحظ:

"ليس في هذيل إلا شاعرٌ، أو رامٍ، أو شديدُ العَدْو"(٢).

---

(١) أبو سعيد، عبدالملك بن قريب الأصمعي، فحولة الشعراء، تحقيق: ش توري (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧١م)، ص١٥.

(٢) أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: مؤسسة الخانجي، د-ت)، ج١، ص ١٧٤.

وهذا يوسِّع العدد، ليصبح كثيراً. ومع هذا، فهذه الكثرة تعني أن من هذيل من لم يمارس الصعلكة "شديد العدو" . وهذه هي الحقيقة في كل الجزيرة العربية ببواديها أيضاً.

إن معنى الشجاعة في "الصعلكة"، من هؤلاء، واضح في قول حسان ، في هجائه أبا سفيان :

فأبلِغْ أبا سفيان عنِّي رسالةً
فإنك من شَرِّ الرجالِ الصَّعالكِ(١)

فأبو سفيان لم يكن فقيراً، ولم يكن جباناً، وإنما نسبَه حسان إلى الصعاليك، مراعياً فيه خصال الصعاليك التي لا تعتمد على المواجهة المباشرة، وتَميل إلى التخفِّي. وهذا أكثر وضوحاً في قول خُفاف بن نُدْبَة :

تَيَمَّمْتُ كبشَ القوم لَمَّا عرفتُه
وجانبتُ شُبَّانَ الرجال الصعالكا(٢)

والصعاليك من النوع الأول لا يقاتلون؛ فهم مسالمون بطبيعتهم، أما المقاتلون، فهم هؤلاء، إنهم أيضاً "الفتيان" ، أو مَنْ سماهم: "شبان الرجال الصعالكا" ، أو هو وصف أم الشنفرى له بـ: "فتى فَهْم" .

وسنجد صورة الصعلوك الشجاع بجلاء في قول عروة بن الورد وحاتم الطائي، وهو ما عبّر عنه القائل سابقاً:

ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليل. .

إن هذا الصعلوك هو الذي جاء في قول أبي النَّشْناش النهشلي :

وسائلةٍ أين الرحيلُ وسائلٍ
ومَنْ يسألُ الصعلوكَ أين مذاهبه(٣)

---

(١) ديوانه، ج١ ،ص٨٥.

(٢) شعر خفاف بن ندبة، تحقيق: نوري حمودي القيسي (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٦٧م)، ص ٦٥.

(٣) الأصمعي، الأصمعيات، ص ١١٨.

وقد وصف أبو ذؤيب الهذلي، أحد هؤلاء الصعاليك، فقال:

وأَشْعَثَ بَوْشِيٍّ شفينا أُحاحَه
غداتئذ ذي جَرْدَةٍ متماحلِ

أهمَّ بنيه صيفُهم وشتاؤهم
فقالوا تَعَدَّ واغز وسط الأراجلِ

تأبَّطَ نعليه وشِقَّ فَرِيرِه
وقال أليس الناسُ دون حَفائلِ

دَلَفْتُ له تحت الوَغَى بِمُرِشَّة
مُسَحْسَحَةٍ تعلو ظهور الأناملِ(١)

فهذا "بَوْشِيٌّ": لفظ آخر من ألفاظ "الصعلكة"، دفعته الحاجة والفاقة والفقر إلى (الغزو). ومن الفوارق أن هذا الرجل المتصعلك يُقتل على يد رجل، متصعلك آخر، إنه أبو ذؤيب الذي ضحَّى بنفسه في سبيل توفير عيش أفضل لبنيه، بعدما ألحوا عليه شديد الإلحاح، وطلبوا منه أن يبتعد عنهم "تَعَدَّ" فلبس نصف فرو: "شِقّ فَرِيره" وظن أن التصعلك (الغزو): "اغْزُ وسط الأراجل" سهل، وأن الإبل ستكون بالقرب منه، قريباً من موقع "حفائل"، وكانت منيته قبل أن يصل هنالك.

ولتأكيد هذا مرة أخرى نأخذ قول الأعلم الهذلي، وهو يتحدث عن أولاده

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ص١٦٠- ١٦١. أشعث: مُغْبَرّ شعر الرأس متفرِّقه. أحاحه: ما يجد في صدره من الغم والهم. ذو جردة: ذو شملة أو بردة أوكساء منجرد خلَق. متماحل: طويل. أهم: أقلق وأحزن. تعدَّ: اذهب متعديّاً. الأراجل: الرَّجّالة. دلفت: دببت وسعيت. الوغى: المعركة. مرشة: ترش الدم. مسحسحة: لها صوت تسح الدم سحاً. تعلو: يعني دمها.

و"البوشي": الفقير، الكثير العيال "معيَّل". وسيمر بنا قول أبي مزاحم الثمالي: "إذا حضر البوش..." . وهنا هم الفقراء (الصعاليك الضعفاء). كما سيمر بنا قول الآخر: "وفي الأرض أوباش..."، وهو المعنى الآخر، أي: (الصعاليك) الغزاة. حفائل: اسم موضع.

الشُّعْث الصغار، الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشيء يأكلونه، مع ملاحظة حديث الصعاليك عامة عن أُسرهم، فهم في وسط اجتماعي، وليسوا خارجين عنه، يقول الأعلم :

وذكــــرت أهـــلي بــــالــــعَــــرا
ء وحــاجــةَ الــشُّــعث الــتَــوالِبْ
الـــمُـــصْـــرَمـــين من الـــتِّلا
د اللامــــحـــين إلى الأقـــاربْ(١)

فهنا نرى مجموعة تعاني الفاقة والحرمان.

وكما قال الأعلم :

ولـــو رقّــعتَ ثــوبَك في خُــروقٍ
تَـروعُك في مـهـالـكـهـا الـشُّـدوفُ
تَـخــافُ لِـزامَ عــاديــةٍ ثَــعــولٍ
كـمـا يَتَـفَـجَّـر الحـوض الـلَّـقيفُ(٢)

وفي وصف دقيق لهؤلاء الصعاليك الشبان، يقول ابن أحمر :

وبَـــلِّي إن هـــلــكتُ بـــأرْيَــحِيٍّ
من الـفـتـيـان لا يُـضـحي بَـطـيـنـا
كـأن الـصـقـر يَـقـلِبُ مُـقـلـتَـيه
إذا نَـفَضَ الـعُـيـوب وقـد خَـفِـيـنـا

(١) المصدر السابق، ص ٣١٥ . العراء: المكان المكشوف. الشعث: أولاده المغبرُّ شعر رؤوسهم. التوالب: الجِحاش. المصرم: المُقِلّ، الذي لا مال له . التلاد: المال القديم الموروث عن الأجداد. اللامحين: المتطلِّعين.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٨. الخروق: جمع خَرق، وهو الفلاة تؤدّي إلى الفلاة. تروعك : تفزعك. الشدوف: الشُّخوص. لزام: عذاب. عادية: رجال يتعادون. ثعول: كثيرون. اللقيف: المصلَح قد طُيِّن وسُوِّي من جوانبه.

كــأن الــلــيـل لا يــغْــسَى عــلــيـه

إذا زَجَــر الــسَّــبَــنْــتَــاة الأمــونــا

يُــصــيـب مَـغـارمـاً في الـقــوم قَـصْـداً

وهَنٌ لـغــيــره لا يَــبــتـغــيــنــا(١)

إنها ثقافة المجتمع وأخلاقياته، تنظر إلى الرجولة والشخصية بمنظار محدد، وفق رؤية خاصة، فرضتها طبيعة الحياة وظروفها في الجزيرة العربية، ذلك أن مثل ذلك الرجل الذي يتحدث عنه ابن أحمر، توافرت لديه وسيلة الحياة على قدرها في وقته، غير أن ابن أحمر لا يريد هذا، وفقاً لمنظور مجتمعه، إنه يريد رجلاً "كأن الصقر..." يطوف البلاد ويعيّن الفريسة.

وهنا لا بد أن ننبّه إلى تصنيفين في الصعلكة:

التصنيف الأول: هو صعاليك السراة والحجاز، الذين لا يبتعدون عن مجالهم الحيويّ كثيراً، وينهبون ما قدروا على حمله، يحوزُونه لأنفسهم في الغالب، ويتقاسمونه فيما بينهم، إنهم يغزون، وهذا النوع من الغزو مشابه كثيراً لنوع الحروب التي تدور فيما بينهم هناك، ولذلك اختلط عندهم النهب بأخذ الثأر، ومثل هؤلاء - في جانب النهب - أولئك الذين لا يتعدَّون أحياءهم أيضاً، ويلتزمون التصيُّد للحجاج؛ إن هؤلاء لا يفرِّقون بين غنيّ وفقير، فهدفهم الكسب فقط، يقول الشنفرى:

وإنّي لأهــوى أن أُلفَّ عَــجــاجــتي

عــلى ذي كِـســاءٍ من سَلامـانَ أو بُــردِ

فهو يكتسح الفقير/ ذو الكساء، والغني: ذو البُرْد(٢).

(١) شعره، ص ص ١٦٣-١٦٤ . بلي: تزوجي. الأريحي: الكريم ذو النخوة. البطين: العظيم البطن، الكثير الأكل. كأن الصقر يقلب مقلتيه: أي، كأن نظره نظر الصقر في حدّته. نفض العيوب: أظهر نقائص غيره، وكشف عنها. يغسى: يظلم. السبنتاة: الناقة الجريئة على السير. الأمون: الناقة الصلبة الموثّقة الخَلق. المغارم: الدِّيات. القصد: العزم.

(٢) اللسان، "عجج" . ألف عجاجتي: أُغير.

والتصنيف الآخر، هو تصنيف أهل نجد والبادية الذين لا يفرّقون بين الغارة والسلب والنهب، ويمضون بعيداً في غزوهم بعيد المدى فرساناً، ويمتطون الإبل والخيل، وربما طاف أحدهم ماشياً .

وفي الإسلام، أي: العصر الأموي يقول عبيد بن أيوب :

رَأَتْ خَلَقَ الدِّرْسَيْنِ أَسْوَدَ شاحباً
من القوم بَسّاماً كريمَ الشمائلِ
تَعَوَّدَ من آبائه فَتَكاتِهم
وإطعامَهم في كلِّ غبراءَ شاملِ

وبعدهما يقول :

فَنَهْساً كنَهْس الصقر ثُمَّ مِراسُه
بكَفّيه رأس الشِّيحة المتمايل(١)

ومن أجل أن نتبين حقيقة الصعلكة في المجتمع الجاهلي، حيث يتجه الفرسان والشجعان إلى تحقيق مطالبهم بالهجوم على أصحاب الإبل، بعد أن يترصدوها، ويتثبتوا من مواقعها، نستشهد بالأبيات التالية التي تصوّر كيف يتوغل فتيان من قبيلة وابش في الشعاب وبين رؤوس الجبال، فلا يتركون أثراً لهم، ويظلون نهارهم يتحيّنون الفرصة لاغتنام الإبل ليلاً، ثم يعْدون بها مشمِّرين أُزُرَهم، تقول الأبيات:

طَرَقَتْهم فِتْيَةٌ من وابشٍ
حازمو الأَسْوُق أفضال الأُزُرْ
لا يَسُورُ النَّزُّ في أقدامهم
ويَقُون الماء أطرافَ الغُفُرْ

---

(١) الربعي البغدادي، الفصوص، ج٣، ص٦٦ وانظر بقية شعره، ص٦٧ - ٧٢. الخلق: البالي. الدرس: الثوب البالي. الغبراء: السنة المجدبة. شامل: ماحل مجدبة. النهس: النهش. مراسه: افتراسه. الشيحة: نبت.

عَـذَّبـوا شـمـسَـهـم يـومَـهُمْ
بـتـبـاريح فـآبت في عُـذُرْ(١)

وهذا عمرو بن براقة الهمداني، وهو الذي يقول على غرار بقية الصعاليك، ويذكر الهجوم ليلاً:

تقول سُلَيمى لا تَعَرَّضْ لتَلفةٍ
وليلُكَ من ليل الصعاليك نائمُ

يعود، فيركّز على الهدف الرئيس من الصعلكة، حسب الفهم الذي نوضحه هنا، ألا وهو الغزو، فيقول:

وكنت إذا قوم غزَوْني غزوتُهم
فهل أنا في ذا يالَ همدانَ ظالمُ(٢)

فالغزو، من أجل النهب والسلب شريعة المجتمع آنذاك، وليس فيه ما يستحق اللوم أو العتاب، ولهذا تتكرر مفردات الغزو في أشعارهم، كما أن شرّاح أشعارهم لا يرون في عملهم هذا إلا غزواً(٣)، حتى ليقول الشنفرى نفسه:

أُمَشّي على أيْنِ الغُزاة وبُعْدِها
يُقَرِّبُني منها رَواحي وغُدوتي(٤)

---

(١) الأشناندانی، معاني الشعر، تحقيق: صلاح الدين المنجد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٤م)، ص ص ٥٢- ٥٣. طرقتهم: جاءتهم ليلاً. حازمو الأسوق: شمّروا ازرهم. أفضال: ما أُسبل منها. النَّزّ: ما يتحلب من الأرض من الماء، ولا يسور النَّزّ في أقدامهم: لا ينْزلون، فتندى أقدامهم، إنما يتوقّلون في رؤوس الجبال. يقون: يمنعون. الغفر: ولد الأنثى من الوعول. عذبوا شمسهم: طردوا طريدتهم من الصباح إلى المساء، فاثاروا الغبار، فغطوا الشمس، فجعل ذلك عذاباً للشمس. آبت: غابت. العذر: جمع العذار، وهو القطعة المستطيلة من الأرض.

(٢) الآمدي، المؤتلف والمتخلف، ص ٨٨. التلفة: الهلاك.

(٣) التبريزي، شرح المفضليات، ص ص ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

وقد عبر عروة تعبيراً دقيقاً عن حالات الفقر التي تنتاب رجال الجزيرة العربية، فقال :

ومن يكُ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتِراً
من المال يَطْرَح نفسه كلَّ مَطْرَحِ(١)

فهو يكشف عن أحد دوافعه وراء طرح نفسه كلَّ مطرح، إنها المسؤولية تجاه الأسرة التي يعولها. وبالرغم من ذلك الفخر الذي يبديه عروة في التضحية من أجل الآخرين، فإن أحد خصومه، ومن أبناء قومه، يقول له :

لا تَشْتُمَنِّي يا بن وَرْدٍ فإنني
تَعُودُ على مالي الحُقوقُ العوائدُ
ومن يُؤثِر الحَقَّ النَّؤوب تكن به
خَصاصةُ جسم وهو طَيّان ماجدُ
وإني امرؤٌ عافي إنائيَ شِرْكَةٌ
وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ
أقَسِّمُ جسمي في جُسومٍ كثيرة
وأَحْسو قَراح الماء والماء باردُ(٢)

فالكرم، أو مشاركة الآخرين سرَّاءهم وضرَّاءهم، هما عرف المجتمع، والتضحية بهذه الطريقة التي كنى فيها عروة وخصمه "أقسِّم جسمي ..." مبدأ أخلاقي، يلتزم به كلُّ من ألزم نفسه بها بدوافع خاصة وعامة.

ولم يأت ذلك الهجوم على عروة - مما يُخِلّ بالصورة التي طالما رسمناها عنه، أو

---

(١) ديوانه، ص ٢١. مقتر: قليل المال.

(٢) المبرد، الكامل، ج ١، ص ٥٧. النؤوب: الذي ينوبه. طيان: جائع. عافي إنائي: أي ما يُبقي مستعير القِدر في القِدر لمعُيرها. أحسو: أشرب. القراح: الصافي الخالص، وهو الماء الذي لم يخالطه شيء يُطيَّب به كالعسل والتمر والزبيب.

هو في واقع الأمر نموذج للمجتمع القبلي مثله مثل سواء – من جهة واحدة، بل قال غير ذلك القائل السابق، قولاً يجعل عروة هو "الصعلوك" الضعيف المتهالك، وليس "الصعلوك" الشجاع الفاتك، كما قال عن نفسه، يقول قيس بن زهير، يخاطبه :

أَذنبٌ علينا شَتْمُ عُرْوَةَ حاله
بقُرَّة أحساءٍ ويوماً ببَدْبَدِ
رأيتك ألّافاً بيوتَ معاشرٍ
تَزالُ يَدٌ في فضل قَعبْ ومِرقَد[(١)]

وهذا هو عروة "أبو الصعاليك" الثائر المتمرد – كما هو قارٌّ لدينا – يقول :

رحلنا من الأجبال أجبال طَيِّئ
نسوق النساء عُوذَها وعِشارها[(٢)]

أليس هذا غزواً فيه السلب والنهب، والسبي؟

وفي ضوء هذا نفهم قول الشنفرى:

نحن الصعاليك الحماة البُزَّلُ
إذا لقينا لا تُرى نهلَّلُ[(٣)]

أي: إن هؤلاء فرسان، يغيرون، فينهبون، ويعودون إلى أهليهم كما بدؤوا أول مرة، فهم صعاليك، لهم أهم خاصية من خصائص الفروسية، وهي الحماية "حماة"، إنهم مسؤولون مسؤولية اجتماعية عن أهليهم وذويهم، ومن هم ملتزمون بالقيام عليهم من عشيرتهم، فليسوا هم خارجين على المجتمع، ولا يشكلون طبقة، وإنما لهم طريقة في الغزو، وأسلوب في النهب والسلب فقط.

---

(١) شهاب الدين، أبو عبدالله، ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، "بدبد". قرة أحساء وبدبد: اسما موضعين. القعب: القَدَح الفخم الغليظ الصُّلب.

(٢) ديوانه، ص ٥٤.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ١٨١.

وعلى الرغم من أن البحتري وصف بعض المتمردين في العصر العباسي بـ"الصعاليك"، فإنه يشير إلى النواحي السلبية كما تطورت بعد ذلك، في قوله:

فلم يَبْقَ في جَمْعِ الصعاليك مخبِرٌ
عن القوم كيف استَجمعوا ثم فُرِّقوا(١)

ومهما يكن، فمعنى "الصعلكة" الإيجابي نجده في قول حُجر بن قحطان الوادعي:

ألا يابن قيسٍ قَرّت العين إذ رأت
فوارسَ همدانَ بن زيد بن مالك
على عارفاتٍ للقاء عَوابسٍ
طِوالِ الهوادي مُشرِفات الحَوارك

وبعدهما:

وكانت بحمد الله في كل كُربةٍ
حُصوناً وعِزّاً للرجال الصعالك(٢)

وهو المعنى نفسه الذي استعمله المتنبي في قوله:

فتركتُه وإذا أَذَمُّ من الورى
راعاك واستثنى بني حمدان
مُتَصَعْلِكِين على كَثَافة ملكهم
متواضعين على عظيم الشان(٣)

أي: هم متشبِّهون بالصعاليك، يتعرضون للغارات وشدائد الأسفار.

---

(١) ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م)، ج٣، ص ١٤٩٧.

(٢) نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٨١م)، ص ص ٤٣٨-٤٣٩. قرت العين: سُرّت النفس. العارفات العوابس: الخيل. الهوادي: الأعناق. المشرفات: المرتفعة. الحوارك: ما بين الكتفين. الكربة: المصيبة. هَمْدَان: همدان بن مالك بن زيد، وقدَّم الشاعر الجد على الأب للقافية.

(٣) ديوان المتنبي، تحقيق: عبدالرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ج٤، ص٣٩٥.

الصعاليك المرتزقة:

ويفسّر لنا هذا تلك المقولة التي طال ترديدها عن تجوال امرئ القيس: "إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه"(١).

وهؤلاء هم "القراضبة" الذين جاؤوا في قول الحارث بن حلزة:

فتأوّتْ لهم قراضبةٌ من
كلِّ حيٍّ كأنهم ألقاءُ
فهداهم بالأسْوَدَيْن وأمر الـ
لَه بَلْغٌ يَشقى به الأشقياءُ
إذ تَمَنَّونهم غُروراً فساقتـ
ـهمْ إليكم أُمْنِيّة أشْراءُ(٢)

كما قال:

ما ذنبنا في أن غزا ملك
من آل جفنة حازم مُرْغِمْ
مُقابَلٌ بين العَواتك والـ
ـغُلّف لانِكْس ولا تَوْءمْ
حارب واستعوى قراضِبةً
ليس لهم ممّا يُحاز نَعَمْ

---

(١) الأصمعي، فحولة الشعراء، ص١٠.

(٢) ديوان الحارث بن حلزة، إعداد طلال حرب (بيروت: الدار العالمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ص ٤٨.

تاوت: اجتمع بعضها إلى بعض.

الألقاء: جمع لقى، وهو الشيء المطروح الذي لا يكترث به.

هداهم: أي عمرو بن هند.

الأسودان: التمر والماء. أشراء: من الأشر وهو البطر والتجاوز.

بِـيضٌ مـصـالـيتٌ وجـوهُـهم
لـيـست مـيـاهُ بـحـارهم بـعُـمُمْ(١)

ومعنى "القراضبة" هنا: الصعاليك. والملحوظ أن الصفات التي أسبغها عليهم الحارث، وهي صفات تعكس مكانتهم الاجتماعية التي لا يمكن أن تجعلهم بالمستوى الذي يصبح مفهوم: "القراضبة": الصعاليك، أي: اللصوص.

وقال قائل في هذا المعنى:

قـومٌ إذا صَـرّحتْ كَـحْلٌ بـيـوتُـهم
عِزُّ الضعيف ومأوى كلِّ قُرضوبِ(٢)

وهذا هو الذي يعني ما يعنيه: "الصعلوك" في العرف المتداول، أي: الفقير المحتاج.

إن أولئك "الصعاليك" ليسوا من النوع الأول، الضعفاء المسالمين، بل من النوع الثاني: المحاربين، وطالبي الغنيمة، وكانوا ممن يقول الشعر كذلك.

ويخلط يوسف خليف بين مفهوم الصعلكة، كما تبيّنا دلالته، ومفهوم آخر وَصفوا به من ينضَمُّ لصفوف المحاربين، طلباً للكسب والغنيمة. يقول:

"وقد نشأ عن كفر صعاليك العرب بالعصبية القبلية، وإيمانهم بعصبية مذهبية قوامها "الغزو والإغارة للسلب والنهب" أنهم كثيراً ما كانوا يقومون في المجتمع الجاهلي بدور يشبه دور "الجنود المرتزقة" عند الأمم الأخرى. فما دام هؤلاء الصعاليك لا يعرفون العيش إلا في ظلال سيوفهم، وما داموا لا ينتظرون في

(١) ديوان الحارث بن حلزة، شرح عمر فاروق الطباع (بيروت: دار القلم، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) ص ص ١١٢-١١٣. النكس: الضعيف. الغلف: غلفاء وسلمة عما امرئ القيس. العواتك: نساء من كندة. استعوى: استدعى. حاز: ملك. نعم: إبل وماشية. بيض: سادة. مصالين: أولو عزم. عمم: كثيرة.

(٢) المصدر نفسه، حاشية ص ٥٦. وانظر، التاج: "قرضب". صرحت: انكشفت وبانت. كحل: سنة مجدبة مقفرة مهلكة.

حياتهم أي سلام أو أمن، فقد كانوا يقاتلون أحياناً كما يقاتل الأبطال الشجعان... وتحدثنا الأخبار أن قوماً من شُذّاذ العرب كانوا يكونون مع الملوك، وكانوا يسمونهم الصنائع"[1].

وهذه المقولة وحدها تنقض نظرية الصعلكة رأساً على عقب، فقد عرفناهم كما يقول: ثائرين على المجتمع، يطلبون العدالة الاجتماعية، رافضين الظلم والدونية، يسعون لإثبات هُوِيَّتهم ... إلخ.

فكيف يصبحون "مرتزقة" في صفوف أسياد لهم، وهم المطلوبون المطاردون؟ أليس هؤلاء من تجمعات قبلية مختلفة، معترَفاً بهم، ومنتمين إلى عشائرهم، ولكنهم يسعَون لكسب رزقهم بالتبعية لسواهم؟

---

(١) خليف، الشعراء الصعاليك، ص ص ١١٦-١١٧. وهذا هو الاستخدام الذي سار عليه القدماء، كما في وصفهم أصحاب الأمين، انظر: أبا الحسن، علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب (بيروت: دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ج٣، ص٤١٩.

الفصل الرابع

مفهوم الخلع

الطرد – النبذ: أما الصعلكة ذات المفهوم الواسع الذي يتردد بين الدارسين، فهي صعلكة "الخلعاء"، أو الذين رفضهم المجتمع ولفظهم، والفرق الثابت بين كل أولئك وهؤلاء، هو أن أولئك يعودون إلى أحيائهم، ويعيشون في أوساطهم، وتظل القبيلة ملتزمة بالدفاع عنهم واحتضانهم ما لم تخلعهم، أما هؤلاء، فمنبوذون مطاردون؛ الأوّلون يسعون؛ إما للنمال من من أجل المال، وإما من أجل أهداف إنسانية نبيلة، في ظروف متفاوتة. أما الآخرون، فلا يطلبون إلا العيش والبقاء في ظروف دائمة الشظف، بالغة القسوة والشقاء.

ولعل من المثير للانتباه، أن هذا الاستنتاج ليس خاصاً بالجزيرة العربية وحدها، بل هي ظاهرة معروفة في المجتمعات البشرية، وهي ظاهرة تدعى: الطرد، أو البراءة، أو النبذ Ostracism، وهي إحدى وسائل الضبط الاجتماعي، حيث يُعزل أولئك الذين اعتادوا الإجرام من بقية أعضاء المجتمع، وكانت هذه الوسيلة مطبّقةً على كل من يهدد أمن الدولة.

وكان الناس في مدن أرغوس وميليتوس، وسبراكوس وميغارا Argos , Miletus , Spracuse and Megara، يعقدون اجتماعاً محدداً في وسط الشتاء، ويُجمعون على خلع من يريدون خلعه؛ أي: ذلك المطرود، أو المنبوذ، أو المتبرّأ منه Ostracized man، على أن يترك مدينة أتيكا Attica في خلال عشرة أيام، ويذهب بعيداً لمدة عشر سنوات، ولكنه يبقى محتفظاً بممتلكاته. وهذا يختلف عن النفي في روما، حيث يُجَرَّد المرء من حقوقه كاملة، ويُنفى إلى الأبد. وقد ذكر أرسطو الخلع، عندما استعمل المفردة في إصلاحاته Cleisthenes لدستور أثينا، بعد نفي هبياس Hippias في حدود سنة (٥٠٨ ق. م)، ولعل استعمالها يعود إلى سنتي (٤٨٨ – ٤٨٧ ق. م)، عندما خلع هيبارخوس Hiparchus بن خارموس Charmus من مدينة

كوليتوس Collytus، ثم خلع أربعة رجال بعده، كان آخرهم أريستيديس Aristsdes، حتى جاء العفو سنة (٤٨١ ق. م).

ومعروف أن المنبوذين Outcaste في الهند: هم جماعة أو أفراد صُنِّفوا ذلك التصنيف، لأمر طقسي، حيث يُجَرّد أحدهم من مكانته الاجتماعية والاقتصادية، إنهم المبعدون أيضاً: Avarna , Castless, Out of cast.

لقد كان اللص، أو المجرم، أو الشرير، أو المطرود، أو الملعون، أو الخليع Warg , Warag , wearg , wearh، وهي مفردات تعني في اللغة الألمانية: الذئب، أيضاً، يعيش حياة انزعاج وقلق، وسط الغابات، كالذئب تماماً، وكان القانون يحرِّم على كل الناس أن يقدِّموا له المأوى أو العون، ويحق لأي أحد أن يقتله، فقد أدت ظروف حياة الاثنين إلى الجمع بينهما في مسمى واحد(١).

وهذه الظاهرة - ظاهرة الطرد، أو النفي، أو الإبعاد - تستحق العناية والنظر، حتى في المجتمعات المعاصرة، فحين نلتفت إلى الحياة الاجتماعية في مصر، نجدها عند بدو صحراء مصر الغربية، كما نجدها في جبال الأنقسنا في السودان، وعند جيرانهم من المناطق المحيطة في كردفان وغيرها(٢). ويعرف الناس في السودان مثلاً، هؤلاء باسم الهمباتا أو القلاعين، وحالهم كحال أولئك، يأخذون الإبل، ولهم أشعار.

واستناداً إلى كل هذه المواضعات في التراث الاجتماعي العالمي، فإن فكرة الخلع في الحياة العربية قبل الإسلام لم تكن تعبيراً عن ممارسة عادية، وإنما كانت فكرة تنظيم اجتماعي، ارتكزت على أصول دينية، تخضع لطقوس خاصة؛ ولذا، فليس اتفاقاً أن قال الشمَّاخ في صفة الخليع، "مقام الذئب كالرجل اللعين"، فـ"اللعين"

---

(1) Erik, Zimmer, The Wolf: His Place in the Natural world , The New Encyclopaedia, Britannica, P .300.

(٢) فاروق إسماعيل، تأثير الإسلام على الوثنية (الإسكندرية: دار المعارف، ١٩٨٧م)، ص ٢٠٣.

صفة دينية، مرتبطة باللعن والطرد والغضب، وقد أطلقها الشمّاخ على ذلك المخلوع؛ لأنه في الجاهلية كان قد استحق اللعن والطرد، ومن المتصوَّر أنَّ ذلك الخلع كان يتم أمام أيدي الآلهة، وفي داخل المعبد على يد الكهنة، ليكتسب شرعية دينية، يصبح فيها إهدار دم الخليع أمراً مقبولاً ومعترفاً به.

وربما دلتنا إلى شيء من هذا الإشارة إلى أن التعبير بالخلع كان قد تم ذات مرة في سوق عكاظ(١)؛ إذ لا بد أنه كان هناك في سوق عكاظ معبد لإحدى آلهة العرب الثلاث: اللات، والعزى، ومناة، ولا بد أن طقوس الخلع كانت تشمل خلع الثياب من على المخلوع، وإعلان التبرؤ منه أمام الملأ، وكان الكهنة حاضرين(٢).

الخليع:

المقامر، الكثير العيال، المفلس، المحتاج:

يقول امرؤ القيس في صفة الخليع:

لَقِيتُ عليه الذئبَ يعوي كأنه
خليعٌ خلا مِنْ كل مالٍ ومن أهلِ(٣)

وهو ما سيؤكده تأبط شراً في قوله:

ووادٍ كجوفِ العَيْرِ قَفْرٍ قطعتُه
به الذئب يعوي كالخليعِ المعيَّلِ(٤)

فهذا هو المعنى الثابت، والذي ترسّخ في الشعر، وهو الذي استمر على هذا المنوال كما في قول عدي بن الرقاع:

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٤ ،ص ١٣٧ .

(٢) ابن منظور، اللسان، " خلع " .

(٣) ديوان امرئ القيس، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة دار المعارف، ١٩٥٨م)، ص٣٦٣ .

(٤) ديوانه، ص ١٨٢.

وغـريبِ قـومٍ أسـلمـوه لِـمَـا به
ومـتى تـراه كـالخـليع الـمُـهْـمَل(١)

ويذكره الفرزدق، فيذكره بصفة الذئب، وليس الصياد كما جاء في شرح الديوان، فيقول:

عـلـيه فـلـم يَـئِل ورأى خـلـيعٌ
قـلـيلُ الـشيء يـتَّـبِعُ الـقِـفـارا(٢)

ويكرر كُثيِّر صورة امرئ القيس، فيقول في صفة ذئب أيضاً:

وصـادفتُ عَـيَّـالاً كـأن بـكـاءه
بـكاءُ مجرَّدٍ يـبكي المبيت خليعُ(٣)

ويقول المجنون، فيما نُسب إليه:

فـضعَّـفـني حُـبـيكِ حتى كـأنـني
من الأهـل والمـال الـتِّلاد خـلـيعُ(٤)

وهذا هو ما عناه الشمَّاخ بقوله:

ولـكـنِّي إلى تَـرِكـات قـومي
بَـقِـيتُ وغـادروني كـالخـليعِ(٥)

---

(١) شعره، ص ٧١.

(٢) ديوانه، ج ١، ص ٢٢٩. الضمير في "عليه" يعود إلى ولد البقرة الوحشية، والجار والمجرور متعلقان بالفعل في البيت السابق "أضمرت الحذارا"، أي البقرة. لم يئل: أي، إن ولد البقرة لم يلجأ إلى ملجأ. القفار: الأراضي المقفرة البعيدة.

(٣) ديوان كثيِّر عزة، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص ٣٦١. العيال: الذئب. مجرد: الذي ذهب ماله.

(٤) أبو علي القالي، الأمالي (بيروت: منشورات دار الآفاق، الجديدة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ج١، ص ١٣٧. التلاد: التليد، المال الموروث الخالد.

(٥) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق: صلاح الدين الهادي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ص ٢٢٤. التركات: الحسب والشرف.

وصورة هذا "الخليع" بارزة واضحة في الشعر العربي القديم؛ فمنه قول كعب بن زهير، في الحمار الوحشي:

وقَفّى فأضحى بالسّتار كأنه

خليعُ رجالٍ فوق علياءَ صائمُ(١)

وقال كعب أيضاً، في صورة مشابهة ، ولاحظْ الصفة "سليب" التي تعني التجرّد من المال:

فَصَدّ فأضحى بالسَّليل كأنَّه

سَلِيبُ رجالٍ فوق علياءَ قائم(٢)

بل إن زهيراً، ليقول :

فظل كأنه رجلٌ سليب

على علياءَ ليس له رداءُ(٣)

وهذا المعنى هو الذي طرقه عدي بن الرقاع سابقاً، حين قال :

وغريب قوم أسلموه لِمَا بِهِ

ومتى تراه كالخليع المهمَلِ

ويمكن أن يُستشفّ هذا أيضاً من قول أبي ذؤيب :

ألا لله نُصرةُ آل عمروٍ

وليس إلى الخليع أبي الهِزَبْر(٤)

---

(١) ديوان كعب بن زهير (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م)، ص ١٥١.
وهي إحدى روايات البيت. قفى: تبع ، أي تبع الأُتن التي يسوقها. الستار: اسم موضع.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤١ . السليل: اسم واد.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: فخر الدين قباوة (حلب: المكتبة العربية، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م)، ص١٤١.

(٤) وهب بن منبه، التيجان (حيدرآباد – الدكن: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٧هـ)، ص ص ٢٤٤–٢٤٥ .

والذي جاء عنه:

"رئيس بني خزيمة، عمرو بن بكر الأسدي، وكان يُكنّى بأبي الهزبر".

الخليع المطرود:

أما "الخلع" Proscription فيأتي، وفق تشريع اجتماعي متفق عليه، للطقس الوثني أثر فيه، فلقد:

"كانوا إذا غدر الرجل، أو جنى جناية عظيمة، انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ .. فإن أُعتب، وإلا جُعِل له مثل مثاله في رمح، فنُصِب بعكاظ، فلعن، ورجم، وهو قول الشماخ:

ذَعَرْتُ به القطا ونَفَيتُ عنه
مقامَ الذئب كالرجل اللعين"(١)

وقالت الخنساء:

تركتني وسط بني عِلّةٍ
أدور فيهم كاللعين النَّقيل(٢)

وجاء النابغة بتوضيح معنى اللعن الطقسي في الجاهلية، فقال:

فَبِتُّ كأنني حَرَجٌ لعين
نفاه الناس أو دَنِفٌ طعينُ(٣)

---

(١) أبو علي، المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، د-ت) ج٢، ص ١٧٠. وانظر، غسان نيازي التل، المجتمع العشائري، قضايا ومشكلات، (عمّان: دار الكندي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ص ص١٥٠-١٥١، ١٦٢.

(٢) ديوان الخنساء، تحقيق: أنور أبو سويلم (الأردن: دار عمار، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٣١٠. وهي إحدى روايات البيت. النقيل: الغريب. بنو علة: الذين من أب واحد، وليسوا من أم واحدة.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م)، ص ٢٢٢. الحَرَج: خشب مشدود يحمل عليه المريض أو الميت، وهو مجاز، يعني به الرجل نفسه. الدنف: الذي براه المرض حتى أشفى على الموت.

وإضافة إلى هذا، فـ"الخليع" في الجاهلية، هو:

"الرجل يجني الجنايات، يُؤخذ بها أولياؤه، فيتبرؤون منه ومن جناياته، ويقولون: إنا خلعنا فلاناً، فلا نأخذ أحداً بجناية تُجنى عليه، ولا نؤاخذ بجنايته التي يجنيها، وكان يُسمَّى في الجاهلية: الخليع"(١).

ثم إن "الخليع" هو من:

"كان طريد جنايات يَجرُّ الجرائر على عشيرته حتى تبرَّم به من كان ينصره".

ولهذا قال الشنفرى: "ولا الجاني بما جرَّ يخذل".

وقال أيضاً:

طريد جنايات تياسَرْنَ لحمَه
عقيرتُه لأيِّهما حُمَّ أوَّل

وهنا تلتقي صورة كل الخلعاء فيما مرّ آنفا مع هذا الحكم الاجتماعي الذي يعني التخلي والتبرّؤ منهم في حالات خاصة، ليس من بينها أبداً أية حالة من حالات الصعاليك المشهورين، سواء كانوا من تميم، كالسليك بن السلكة، أو من فهم، كتأبط شراً، أو من عبس، كعروة بن الورد .. إلخ. بل ليس من بينها حتى أولئك الذين تخلت عنهم قبائلهم، فلجؤوا إلى غيرها؛ مثل الشنفرى، وقيس بن الحدادية، وسواهما، حتى إن قول الشنفرى يمكن فهمُه على أنه خُلع من قبيلته الأم، الأزد – زهران:

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القِلَى متعزَّلُ
لَعمْرُك ما بالأرض ضِيقٌ على امرئٍ
سَرى راغباً أو راهباً وهو يَعْقِل(٢)

(١) ابن منظور، اللسان، "خلع".

(٢) التبريزي، شرح المفضليات، ج ١، ص ٣٩٤ – ٣٩٥.

ومن الملاحظ أن الصفة "خليع" أصبحت اسماً لا علاقة له بمفهوم الخلع المتداول، تقول ليلى الأخيلية:

إن الخليع ورهطه من عامرٍ
كالقلب أُلبس جؤجؤاً وحَزيما
لا تقربن الدهر آل مطرّف
إنْ ظالماً فيهم وإنْ مظلوما

تمتدح بذلك همام بن مطرف، وهو من ولد الخليع، من بني عُقيل، وإياهم عنى الخطيم بقوله:

فلو كنت من رهط الأصمِّ بن مالك
أو الخلفاء أو زهير بني عبس
إذاً لَرَمَتْ قيسٌ ورائي بالحصى
وما أُسلِم الجاني لِما جَرَّ بالأمس(١)

(١) أبو محمد الأعرابي، الأسود الغندجاني، فرحة الأديب، تحقيق: محمد علي سلطاني (دمشق: دار الكتاب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص ص ٨٣-٨٤.

الفصل الخامس

نموذج الخليع المطرود

أما "الخليع" : المطرود، المنبوذ، فحالة شاذة أصلاً، فمن حالاتها:

"كان عمرو بن عمران الصيداوي جاراً لحَرِيٍّ بن ضمرة، فأخذ قيس بن حسان بَكْراً من إبل الصيداوي، فشكا عمرو ذلك إلى حَرِيٍّ بن ضمرة . . . فضربه ضربة بالسيف، فقطعت أحد زنديه، وأخذ من إبله ثلاثين بعيراً، فدفعها إلى عمرو بن عمران، جاره . . .، فغضبت بنو مجاشع، أخوال قيس بن حسان، فقالت لبني نهشل: إما أن تردوا على قيس إبله، وإما أن تجعلوا حَرِيًّاً خليعاً، فجعلوه خليعاً، فأخذوه، فضربوه بأضاخ . . . وفي ذلك يقول شماس الطهوي :

يا ويح حَرِيٍّ علينا ورهطه

ببطن أُضاخٍ إذ يُجَرُّ ويُسْحَبُ"(١)

فهذه هي بعض حالات "الخلع"، وهي هنا التخلي عن مؤازرة ابن العشيرة لجريمة ارتكبها، ومعاضدته، ومناصرته، ولم تجد العشيرة وسيلة للدفاع عنه، بل رضيت بتسليمه، لقد تبرأت من فعلته، مع ملاحظة أن حَرِيًّاً لم يترك بلدته، ولم يُنف عنها، بل ظل فيها، غير أن أهم عنصر من عناصر العرف القبلي أصبح مفقوداً؛ لأن عشيرته نأت بنفسها عنه.

ومع ذلك، فإن "الخليع" كثيراً ما يجد من يؤويه، إذا ما فرّ من وجه طالبيه، فهذا دثار بن شيبان النمري يأتي بوصف دقيق لحالة المطرود نتيجة جرائره، وبيّن أن الحدث تم في الجاهلية قُبيل الإسلام، ثم إنه التجأ إلى الزِّبْرقان، الشاعر المخضرم، من سكان الوشم بنجد، قادماً من الجزيرة الفراتية بالعراق، حيث استقرت النمر بن قاسط هناك، يقول:

---

(١) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: أ. أ . بيفان (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٥م)، ج٢، ص ٩٤٣ – ٩٤٤ .

فَمَنْ يكُ سائلاً عنّي فإني
أنا النّمري جارُ الزبرقانِ
طريدُ عشيرةٍ وطريدُ حرب
بما اجترمت يَدَيّ وجنَى لساني
كأني إذْ نزلتُ به طريداً
طلعتُ على المُمَنَّع من أبانِ
أتيتُ الزبرقان فلم يَضِعْني
وضَيَّعني بتَيْرَم من دعاني(١)

إن فَهْمَ "خلع" الشنفرى، بمعنى طرده وانتباذه، فهمٌ لا يتَّفق مع معطيات الحدث، فالشنفرى لجأ / استجار / دخل على - في فَهْم، وحاله كحال قيس بن الحدادية الذي يقدِّم له أبو الفرج بقوله :

"لما خلعت خزاعة قيساً، تحوّل عن قومه، ونزل عند بطن من خزاعة" .

فقيس من خزاعة، طردته عشيرته في خزاعة، فانتقل إلى غيرها منها، يقول ابن الحدادية نفسه:

جزى الله خيراً عن خليع مطَرَّدٍ
رجالاً حمَوْه آلَ عمرو بن خالدِ
فليس كمن يغزو الصديق بنَوْكِه
وهِمّته في الغزو كسب المزاودِ
عليكم بعَرْصات الديار فإنني
سواكم عديدٌ حين تُبلى مشاهدي

(١) ياقوت، معجم البلدان، "تيرم". وانظر لجوء عبيدالله بن زياد البكري إلى عُمَان استجارةً بابن الجلندى في العصر الأموي، المصدر نفسه، "مسكن".
"أبان" و"تيرم": موضعان.

ألاوذتُمْ حتى إذا ما أمنتم
تعاورتمُ سَجْعاً كسجع الهداهدِ
تَجَنّى عليَّ المازنان كلاهما
فلا أنا بالمغضي ولا بالمساعدِ
وقد حدبتْ عمرٌو عليَّ بِعزّها
وأبنائها من كل أروَعِ ماجدِ
مصاليتُ يومَ الرَّوْع كسبُهُمُ العُلا
عِظامُ مَقيلِ الهام (شُعْر) السواعدِ
أولئك إخواني وجُلُّ عشيرتي
وثروتهم والنصر غير المُحاردِ(١)

ومفهوم "الدخيل" قديم عند العرب، قال جرير:

وكندةُ لو نزلْتَ بهم دخيلاً
لزادهم مع الحسب اشتدادا(٢)

ولنا أن ننظر في الخبر التالي:

"البَرّاض بن قيس بن رافع، أحد بني ضمرة بن بكر بن عبدمناة بن كنانة، كان سِكِّيراً فاسقاً، خلعه قومه، وتبرؤوا منه، فشرب في بني الدِّيل، فخلعوه، فأتى مكة، وأتى قريشاً، فنزل على حرب بن أمية، فحالفه، فأحسن حرب جواره، وشرب بمكة حتى هَمّ حرب أن يخلعه، فقال لحرب: إنه لم يبق أحد ممن يعرفني إلا

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص ١٤٤ – ١٤٥. النوْك: الحمق. المزاود: أوعية الزاد. العرصات: الساحات. لاوذتم: تهربتم. حدبت: عطفت. مصاليت: شجعان مقدامون. الهام: الرؤوس. مقيل الهام: مستقَر الرؤوس، أي العنق. الثروة: كثرة العدد من الناس. المحارد: غير المنقطع. ورواية "شعر السواعد"، رواية مصحَّفة، فالعربي لا يمدح بكثرة شعر الساعد، فهذه من صفات الأعاجم غير العرب، وإنما الرواية الصائبة هي: "شمر السواعد" .

(٢) ديوانه، ج١، ص٢٥٨.

خلعني سواك، وإنك إن خلعتني لم ينظر إليّ أحد بعدك، فدعني على حِلْفك، وأنا خارج عنك، فتركه، وخرج، فلحق بالنعمان بن المنذر بالحيرة"(١).

وهذا نموذج آخر للخلع؛ ففيه مفهومان رئيسان؛ هما: "الجوار"، "الحلف". ثم هنا عبارة من أوثق العبارات صلةً بمعنى الخلع، وهي:

"إن خلعتني، لم ينظر إليّ أحد بعدك، فدعني على حِلْفك، وأنا خارج عنك، فتركه، وخرج، فلحق بالنعمان....".

أي: إن هذا الرجل لو ظل مخلوعاً، لم يجد أحداً يؤويه، فستضيق عليه الأرض بما رحُبت، وسيتعرض للهلاك لا محالة، وهو لم يتمسك بـ "الحلف" إلا احتياطاً للمستقبل؛ لأن حرب بن أمية، وقريشاً كلَّها، ستكون حينذاك مسؤولة عنه، وستقوم دونه، وتقف معه، وستوفِّر له الأمن، وكان هذا هو ما حسب له البَرَّاض الذي جرَّت تصرفاتُه فيما بعد حروب الفجار(٢).

على أن في الخبر مسألةً جد مهمة، وهي أن الخلع تَمّ؛ لأن الرجل كان: "سِكِّيراً، فاسقاً". وشرْب الخمر عادة بين الوثنيين، ولم يكن الزنى عاراً عندهم، فخلع البَرَّاض تَمّ؛ لأنه كان "سكيراً"؛ أي: لا يسيطر على نفسه وهو يتناول الخمر، ولأنه يصل إلى تلك الحالة من فقدان الوعي، كان يقوم بالاعتداء على الأعراض علناً، مما قد يجرُّ ذلك إليه، أو وقع حقيقة، كانت القبيلة التي تجيره، تخلعه، وإن كنا حسبنا أن هذا داخل في موضوع الخلع(٣)، وأغرب شيء أنه يندرج في مثل هذا عبدُالله بن جدعان المشهور بكرمه، وممدوح أمية بن أبي الصلت، وهكذا، طرفة، مع أن طرفةَ لم يكن مخلوعاً، وإنما هي حالة أخرى(٤).

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٤ – ٧٣.

(٣) انظر مثلاً: يوسف خليف، الشعراء الصعاليك، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م)، ص ٩٢.

(٤) المرجع نفسه. وانظر: أبا محمد، عبدالملك بن هشام، السيرة، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م)، ج١، ص ١٤١.

بل هل كان عمرو بن العاص مخلوعاً، إن خلعته بنو سهم، ونادت بخلعه في أسواق مكة؟!(١).

إن مفهوم "الخليع"، كما هو حال البَرَّاض بن قيس، هو الذي قال عنه اللسان:

"تخلّع في الشراب المسكر ... وهو الذي انهمك في الشراب .. لازمه ليلاً ونهاراً، كأنه خلع رَسَنَه، ثم أعطى نفسه هواها... مستهتراً بالشراب واللهو"(٢).

وعلى هذا، فالحارث بن ظالم المريّ ليس من شعراء اللصوص(٣)، إذ لم يكن الحارث بن ظالم إلا واحداً من فُتّاك العرب، وهي إحدى الخصال التي يصفون بها أولئك الرجال الذين مارسوا الغزو بكل تحدٍّ واقتحام وجرأة.

وعلى العموم، فإدراج الحارث بن ظالم يؤكّد أن أولئك الرجال كانوا "صعاليكَ"، حسب ما فهمه العرب؛ أي: الاعتماد على القوة الذاتية الفردية.

وقال الحربي:

"الأبرقان: بين بلاد كلاب وسُليم وفَزارة وعامر بن ربيعة، لا تسكنها القبائل، وكل مشرد يلجأ إليها".

ويعني بذلك موضعاً بين (الخضارة) والدفينة، في وسط نجد، يدعى: "الأبرقان". وقوله: "وكل مشرد يلجأ إليها"، تعبير يناقض قوله بعد ذلك مباشرة: "السِّيّ: مأوى اللصوص وعُشُّهم"(٤).

---

(١) حمّور، عرفان محمد، أسواق العرب، (بيروت: دار الشورى، ١٩٧٩م)، ص ٦٩.

(٢) ابن منظور، اللسان، "خلع". وانظر فهم "الخلع" عند، محمد محمود جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، (بيروت: مطبعة بيبلوس الحديثة، ط٣، ١٩٦٦م)، ص ص ١٤٨-١٥١، عن البراض، حليفاً، ثم خليعاً. والفرق بين الخلع عند الساميين، الذي يشبه الطرد من الكنيسة، وهو نوع من الخلع معروف عند العرب، والخلع الآخر، حيث يجد المخلوع من يجيره عندهم كذلك. الرسن: الحبل.

(٣) انظر: ريجيس بلاشير، تاريخ الآداب العربية، ترجمة: إبراهيم الكيلاني (دمشق: دار الفكر، ١٩٥٦م)، ص ٣١٧.

(٤) أبو إسحاق، الحربي، المناسك وطرق الحج، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: مطبعة اليمامة، =

واستشهاده بقول عطيه بن القليح الضبابي :

ذئـاب تـعـاوت من سُـلـيم وعـامـرٍ

وجَسْرٍ وقد تُلفى هـنـاك ذئابُـها(١)

فهذه المنطقة كلها منطقة لصوص، وهي منقطة سُليم وعامر وجَسْر، وهذه الطريق هي طريق الحاج الكوفي، فهؤلاء غير مشرَّدين، وإنما هذه ديارهم، يتجمعون فيها، حتى إن الحربي نفسه يستشهد بقول الشاعر :

أشـاقَـتْك بـين الأبـرَقَـيْن المـنـازل

محَتْها السَّوافي والهَمِيُّ الهواطلُ(٢)

فهذه ديار مسكونة، ومأهولة، وغير مقفرة دائماً، مع التنبّه إلى أن هذا القول يخص العصر الأموي.

وتأكيداً على معنى "الخليع" السابق:

الخليع :

لاعب القمار: أما المعنى الآخر لـ "الخليع"، فهو لاعب القمار، قال رقيع الوالبي :

مُجِدٌّ كقِدْح الفَرْض بالكَفِّ صَكُّه

على عادةٍ منه خليعٌ مقامرُ(٣)

ويقول ذو الرمة :

إذا صَكّها الحادي كما صَكَّ أَقْدُح

تَقَلْقَلن في كفِّ الخليع المشارك(٤)

= ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، ص٦١٣ .

(١) المصدر السابق، ص ٦٤ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٦١٣ . السوافي: الرياح اللواتي، يسفين التراب. الهمي: الأمطار التي تهمي، أي تسيل.

(٣) حاتم صالح الضامن، قصائد نادرة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ٣٤ . الفرض: الحز في الشيء والقطع. القدح: السهم قبل أن يُعمل فيه الريش والنصل.

(٤) ديوانه، ج٣، ١٧٣١ . صكها: زجرها. تقلقلن: تحركن.

ويقول القطامي، وذكر أن المقامر هنا ذو مال "صاحب خُلعة" :

فما ذكرى جُمانة غير أني

كصاحب خُلعةٍ ذكر القمارا(١)

ويقول الطرماح :

في تيه مَهْمَهَةٍ كأن صُوِيَّها

أيدي مُخالِعَةٍ تَكُفّ وتَنْهَدُ(٢)

ويقول الأخطل :

كأنما العِلجُ إذ أَوْجَبْتُ صفقَتَها

خليعُ خَصْلٍ نكيبٌ بين أقمارِ(٣)

لقد لحظوا الحالة النفسية للخليع المقامر، فوصفوه بذلك على التشبيه بالخليع الجاني؛ ذلك أن الخاسر في المقامرة يُحال بينه وبين اللعب، كما حيل بين الخليع والمجتمع، والجامع بينهما الخلع، قال النابغة :

فبتُّ كأنني يَسَرٌ غَبين

يُقَلِّب بعدما اختُلِعَ القِداحا(٤)

ووضع الخلع هذا نجده في صورة مؤثّرة، عرضها عمرو بن معديكرب الزبيدي، الخاسر في القمار؛ قمر، فباء بالخيبة والخسران، ويشبِّهه بالحمار الوحشي الذي أصابته الرماة، فراح يتهاوى، يتضرَّج في دمه، يقول :

---

(١) ديوان القطامي، تحقيق: أحمد مطلوب وإبراهيم السامرائي (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦١م)، ص١٣٤.

(٢) ديوان الطرماح بن حكيم، تحقيق: عزة حسن (بيروت: دار الشرق العربي، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ص ١٤٤. صُوِيّها: جمع صُوَّة، وهي أعلام المفازة التي ترتفع أمام الشخص، ثم تختفي. المخالعة: المقامرون. تكف: تجتمع. تنهد : ترتفع.

(٣) شعره، ج١، ص١٧٠. العلج : بائع الخمرة الأعجمي. الخصل: الغلبة. أقمار: جمع قمير، وهو الملاعب في القمار. النكيب . المغلوب.

(٤) ديوانه، ص ٢١٤ . اليسر: اللاعب بالقِداح. الغبين: المغبون المخدوع.

تـــراه حـــين يـــعـــثـــرُ في دمـــاهُ

كـمـا يمـشي بـأقـدُحه الخـلـيعُ(١)

ويقول سوار بن المضرِّب، في وصف يديْ ناقته :

يـقـيـسـان الـفَلاةَ كـمـا تَـغـالى

خـلـيـعـا غـايـةٍ يـتـبـادرانِ(٢)

فالمتقامران اللذان يتسابقان إلى راية (غاية) القمار، هما في تسابقهما كما ترمي الناقة بعيداً بيديها.

وليس بعيداً عن معاني هذا الخليع ما جاء في الخبر:

"مقيس بن عبد قيس .. كان بيته مألَفاً لشباب قريش، فكان يعتاده فُتَّاك قريش وخلعاؤهم ..."(٣).

على أن ثمة ملحوظة جديرة بالانتباه، فيما يخص هذا المسمى هنا: "خليع"، "خلعاء"، فإذا اختص الجزء الأعم فيه بالخسارة المادية، فإنه يظل محتفظاً بالانتماء: "فتاك قريش وخلعاؤهم".

فلم يكن هؤلاء مبعَدين عن قريش، بل بين جوانبهم. ومثل هذا ما ورد عن أبي جندب الهذلي من أنه:

"خرج في الخلعاء من بكر وخزاعة، فاستجاشهم على بني لحيان،فخرجوا معه حتى صبَّح بهم بني لحيان، فقتل فيهم قتلى، وسبى من نسائهم وذراريهم"(٤).

فهل يعني هذا التعبير هؤلاء الخلعاءَ؟ أو يعني أولئك المطرودين؟ إن ما يُفهم من التعبير "خليع" هو أن الذي خلعه هم أهلُه، وهذا لا دَمَ فيه، ولا ثأر عنده،

(١) الأصمعي، الأصمعيات، ص ١٧٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤١ . تغالى : من المغالاة، وهي المراماة لينظر أيهما أبعد غلوة، وقد جعل المغالاة هنا لسباق الخيل.

(٣) ديوان حسان، ج٢، ص ١١٥ .

(٤) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ١، ص ٣٥١. وانظر ج ٢، ص ٨١٠ .

حسب مفهوم الخلع، إلا أن نتيجة ذلك الغزو دفعت بني لحيان إلى الهجوم على خزاعة وبكر، والانتقام منهم، ولذلك قال عمرو بن هُمَيل، جرّاء تلك الغزوة:

قـتـلـنـا بـقـتـلانـا خُـزاعـةَ كـلَّـهـا

وبَكـراً ففي كِلا الـفـريـقـين نَعْتَلي(١)

فرد عليه الخزاعي، مُشيداً بسبي نساء بني لحيان قائلاً:

وكنَّ يُـراكِـلْنَ الـمُـروط نـواعـمـاً

يُـمَـشِّـين وسط الـدارِ في كل مُـنْعَل(٢)

وهـذا يعني أن أولئك الخلعاء ليسوا مخلوعين من القبيلة، وإنما هم جماعة خاصة، كان هدفهم السلب والنهب.

ولا يدخل تحت هذا النوع من الخلعاء تلك الإشارات إلى المقامر، أو المقامرين، ممن وُصفوا بتلك الصفة كما سنرى.

ولعل مما يوضح هـذا المفهوم قولَ نهشل بن حَرِيٍّ، الشاعر المخضرم، ضارباً المثل في ملاقاة الموت بقتل الأسد، على غرار أمثال أولئك الخلعاء:

ومـــا سَـــبَق الحـــوادثَ لـــيـثُ غـــابٍ

يـــجـــر لـ (مـــرسـه) جَـــزَر الـــرفـــاق

كُـــمَـــيتٌ تَـــعـــجِـــزُ الخُـــلـــعــاءُ عـــنه

كـــبـــغل المـــرجِ حَـطٌّ من الـــزِّنــاق(٣)

وما يأتي من شرح أحياناً في كون "الخليع"، أو "صاحب خلعة": هو الذي

---

(١) المصدر السابق، ص ٨١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨١٧. المرط: الثوب. منعل: طويل يسحب في الأرض فيوطأ.

(٣) حاتم صالح، الضامن، شعراء مقلون (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص ص ١١٧، ١١٨ الزناق: الوثاق. وقوله: "مرسه"، تصحيف مؤكد، وصواب الرواية ينبغي أن يكون "عرسه". كما في أبي عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب البغال، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مطبعة العربية الحديثة، ١٩٧٩م)، ج٢، ص ٣١٠.

خلعه قومه، فطردوه، مخافة جريرته[1]، ينضوي في ذلك الجو العام؛ ف "الخليع" من لعب القمار، بعد أن خسر، فهو هنا على الحقيقة؛ أي: المخلوع، المقمور ماله[2]، لا "الخليع": المطرود.

إذن، فالواقع هو أنه، كما يقول شوقي ضيف:

"وبمجرد أن تدخل القبيلة في حِلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق"[3].

وهذه حقيقة تؤازرها حقيقة أخرى، يقول عنها:

"وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، وبذلك يصبح له حق التواطن في القبيلة الجديدة"[4].

مع أن ضيفاً يعود، فيقول:

"ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء، يتّخذون السلب والنهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم"[5].

إن ما لم نضعه في الحسبان هو أن القبيلة تشكل كياناً مستقلاً، وأن لها منطقة جغرافية معلومة؛ أي: هي دولة صغيرة، ذات مساحات وحدود، ولها استقلال ذاتي، حتى لو كانت تابعةً اسمياً للمناذرة أو الغساسنة، أو داخل اليمن، أو بعيدة عن سيطرة القوى الكبرى. ولها جيوش، ورؤساء، ومجلس استشاري، إنها تنظيم متكامل، حتى إن لها رايةً خاصة بها، وهناك مبدأ متعارف عليه بين القبائل؛ هو مبدأ الإجارة والاستجارة. والخليع يستجير بقبيلة – غالباً ما تربطه بها رابطة، كالخؤولة مثلاً، أو أنها قبيلة معادية لقبيلته – فإذا أجارته، حمته، وهذا شبيه بمدأ اللجوء السياسي المعاصر، ومن لم يحصل على ذلك، يهلك، ويصبح عُرضةً

(١) انظر، ديوان ذي الرمة، ج٣، ص ١٧٣١. ديوان الطرماح، ص ١٣٤.

(٢) انظر، ابن منظور، اللسان، "خلع"، الزبيدي، التاج، "خلع".

(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، (القاهرة: دار المعارف، ط٨، ١٩٧٧م)، ص ٦٧.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) المرجع السابق.

للانتقام، أو الاعتداء، أو يصبح شريداً، طريداً، خائفاً، غيرَآمن، ولا يستطيع المقاومة، أو البقاء طويلاً، ولعل لجوء امرئ القيس إلى عامر بن الجوين الطائي الموصوف بأنه:

"أحد الخلعاء الفُتّاك، قد تبرأ قومه من جرائره"[1].

يُلقي كثيراً من الضوء على مفهوم "الخلع" .

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٩، ص ٩٥ .

الفصل السادس

مشهد الذئاب في لامية تأبط شراً

الخليع المطرود:

وليس في الشعر الجاهلي كله، مما يتصل بالصعاليك، إلا ذاك التصوير، وأبيات قالها تأبط شراً، وهي أبيات تقدم صورة دقيقة عن علاقة الذئب بالإنسان في الجزيرة العربية، وهي علاقة، مهما يبلغ وجه الشبه بينهما، تظل منفصلة وغير متطابقة من الناحية الشخصية، وإن تطابقت مع الواقع الخارجي، يقول فيها :

وَوادٍ كجوف العَير قَفْرٍ قطعته
به الذئب يعوي كالخليع المعيَّلِ
تعدَّى بزَيْزاة تَعُجُّ من القَوا
ومن يَكُ يبغي طُرقةَ الليل يُرمِلِ
فقلت له لَمَّا عوى إنَّ ثابتاً
قليلُ الغِنى إن كنتَ لما تَموّلِ
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته
ومن يحترثْ حرثي وحرثَك يُهزَلِ
كلانا طوى كشحاً عن الحيّ بعدما
دخلنا على كلاّبهم كلَّ مَدخَلِ
طرحت له نَعلاً من السِّبت طَلَّةً
خلافَ نَدىً من آخر الليل مُخْضِلِ
فولّى بها جَذلانَ يَنْفُض رأسه
كصاحب غُنْم ظافرٍ بالتَّموُّلِ(١)

---

(١) ديوان تأبط شراً، جمع وتحقيق: علي ذو الفقار شاكر (بيروت: مطبعة المتوسط، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ص ١٨٣، ١٨٥ . الزيزاة: الغليظة من الأرض. تعج: تُصوِّت، ويتردد فيها=

وتحمل هذه الأبيات صورة مختصرة للخليع، في مقارنة بيِّنة الانفصال: "وواد كجوف العير قفر قطعته"، الفقر وضنك الحياة، "قليل الغنى"، "كلانا إذا ما نال شيئاً أضاعه"، والتسلل إلى الأحياء: "كلانا طوى كشحاً عن الحي بعدما.."، وعدم الاتصال المباشر بالذئب "طرحت له نعلا".

وتلتقي هنا جميع الصور التي دارت حول لقاء الذئب، سواء أكانت جاهلية أم إسلامية، حتى يمكن اتخاذها صورةً نمطية عن لقاء الإنسان بالذئب، وهو لقاء يتعمق فيه البُعدان: النفسي والذهني، كما نجدهما في تصوير الشنفرى.

ولك أن تلحظ، حين تدقق في الصورة، أنَّ تأبط شراً، لم يكن هو المخلوعَ، بل كان عابرَ طريق، لقي الذئب كما لقيه غيره، أما الخليع في الأبيات، فهو الخليع المقامر، حسبما تؤدِّي إليه الكلمة مباشرة، إنه رجل آخر غيره، تائه، فأصبح تلك حالته، وقوله: "كلانا طوى كشحاً عن الحي بعدما"، لا يعني "الحي" أهله أو من قومه، بل يعني أولئك الذين يُغِير عليهم، ويغزوهم، وهذه الصورة هي التي أبعدتنا عن فهم "الخلع". "الذئب"، "يعوي" هنا وحده، قد أهلكه الجوع وأضناه، وليس الخليع كالذئب، بل الذئب كالخليع، والصورة عكسية تماماً لحالة تأبط شراً، فتأبط شراً هنا ذلك الصعلوك الشجاع، الفاتك، الغازي، الذي يمرّ بالوادي مروراً، مجتازاً إلى ناحية أخرى، أما الخليع - وهو المقامر، وليس المخلوع - فهو صاحب عيال خسر القمار، فأصبحت نفسه تتقطّع حسرات، بعد أن فَقد ماله. وهذه الحالة هي ما يَجمع بين الذئب وبينه، إنه التألُّم والتوجُّع والتشكِّي "يعوي"، بينما حالة تأبط شراً ليست كذلك.

= الصوت لخلوها. القوا: الخلاء القفر من الأرض. يرمل: يقل زاده وينفد. طوى كشحاً: انصرف. الكلأب: صاحب الكلاب الذي يعتني بها. السبت: الجلد المدبوغ. الطلة: الشَّربة من اللبن أو الخمر. خلاف ندى: أي بعد نزول الندى في آخر الليل. مخضل: مبلل بللاً خفيفاً. جذلان: فرحان.

وعلى هذا المعنى، قال الفرزدق، كما قال غيره مما مَرّ بنا سابقاً(١):

عــلــيه فــلم يَـئِل ورأى خــلــيعٌ
قــلــيلُ الــشيء يــتّـبِعُ الــقِــفــارا

أما الخليع الملعون، اللعين، المطرود، والذي إذا ما وجد من ينقذه ويضمه إليه، لم يعد كذلك، فهو كما قال زهير:

ومــلــعّنٍ ذاق الــهــوانَ مــدفّعٍ
راخيتَ عُقدة كَبْله فانحلّت(٢)

ولعل أقرب وضع يمكن تصوُّره لحالة الخليع المطرود / المنبوذ، في حالة خلعه، هي حالة عَبيد بن أيوب العنبري، في العهد الأموي الذي كشف عن معاناة شديدة، وهو هارب في الصحراء، خشيةَ العقاب الرسمي من الدولة، يقول:

أذقنيَ طَعْمَ الأمن أو سَلْ حقيقة
عليّ فإن قامت ففصِّل بيانيا
خلعت فؤادي فاستُطير فأصبحتْ
ترامَى بِيَ البِيدُ القِفار تراميا
كأني وآجال الظباء بقفرةٍ
لنا نسب نرعاه أصبح دانيا
رأين ضئيل الشخص يظهر مرةً
ويخفى مِراراً ضامِرَ الجسم عاريا
فأجْفَلن نفراً ثم قُلْن ابنُ بلدةٍ
قليلُ الأذى أمسى لَكُنّ مصافيا
ألا يا ظباءَ الوحش لا تُشهِرُنّني
وأخفِينَني إذْ كنت فيكُنّ خافيا

---

(١) انظر ص ٥٤، فيما مضى.

(٢) ديوانه، ص ٣٣٥ . مدفع: مُطارد. الكبل: الوثاق.

أكلت عُروقَ الشَّرْيِ مَعْكُنَّ والتوى
بحلقيَ نَوْرُ القفر حتى ورانيا
وقد لَقِيَتْ مني السُّباعُ بَلِيَّةً
وقد لاقتِ الغيلانُ مني الدواهيا
ومنهنَّ قد لاقيتُ ذاك فلم أكن
جباناً إذا هولُ الجبان اعترانيا
أذقت المنايا بعضَهنَّ بأسهمي
وقَدَّدْن لحمي وامتَشقن رِدائيا
أَبيتُ ضجيعَ الأَسْوَدِ الجَوْن في الهُوى
كثيراً وأثناءُ الحِشاشِ وِساديا
إذا هِجْن بي في جُحرهن اكتنَفْنَني
فليتَ سليمانَ بنَ وَبْرٍ يرانيا(١)

إن الشيء المميز لهؤلاء اللصوص أنهم جميعاً خائفون من السلطة وعقاب الدولة؛ فكلهم كان يتوارى عن الأنظار، ويهرب بالإبل المسروقة بعيداً عن مواطن الشك والريبة، فيبيعون إبلهم في أسواق لا تثير الشبهة فيهم، فذلك اللص الذي يرى أن من حقه سرقةَ إبل غيره: "وبعران ربي في البلاد كثيرُ" يقول:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى
وصَوَّت إنسان فكِدت أطيرُ

---

(١) أبو عثمان، عمرو بن بحر، الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٣هـ/ ١٩٢٤م)، ج ٦، ص ص ١٦٥ -١٦٧. البيد: الصحارى. الآجال: القطعان. نفراً: نفوراً. النور: الزهر. بلية: داهية وأذى. امتشق: جَرّ وسحب. قدَّدن: مزّقن. الأسود: الضخم من الحيات. الجون: الأسود أيضاً. أثناء: ما تثنى منه. الهوى: جمع هُوّة، وهي المنخفض من الأرض. الحشاش: ما يوضع فيه الحشيش.

رأى الـــلّهُ أنّي للأنِـــيسِ لَـــشَــانئٌ
وتـبـغـضـهـم مِـنّي مُـقـلـةٌ وضـمـيـرُ(١)

وقال أيضاً:

أخـو فَـلـواتٍ صـاحَـبَ الجِنَّ وانـتـحى
عن الإنس حتى قد تَقَضَّت وسائِلُه(٢)

كما قال:

أراني وذئبَ الـقَـفْـر إلْـفَـيْنِ بـعـدما
رآنـــا كلانـــا يَــشْــمَــئِــزّ ويُــذْعَـــر
تَـــألّـــفَــــني لَـمَّـــا دنـــا وألِـــفْــتُه
وأمـكَـنـني لـلرّمي لو كـنت أغدِر(٣)

وقال عَبيد بن أيوب أيضاً:

لعمـري لشخص الـذيبِ والـذيبُ جاهدٌ
عليَّ وشـخص الغول في الـبلد القفرِ
أَحَـبُّ إلى قَـلْــبي من الإنس طَــلْــعَـةً
ولـو حـدّثوني بـالـغنيمـةِ والنصرِ(٤)

حالة من الخوف والنفور، وهروب من المجتمع خشية أن يُقبض عليه، فيقدَّم للعدالة، وكانوا يودِعون اللصوص السجن، ويعاقبونهم. ولهذا، فعندما هرب القَتّال، قال:

---

(١) أبو تمام، حبيب بن أوس، كتاب الوحشيات، تحقيق: عبدالعزيز الميمني (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م)، ص٣٤.

(٢) المبرد، الكامل، ص٣٤١.

(٣) أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م)، ج٢، ص ٧٨٨.

(٤) الربعي البغدادي، الفصوص، ج ٣، ص ٢٥٧.

أَوَ اَلْحَقُ بالعنقاء في أرضِ صاحةٍ
أو الباسقاتِ بين غَول وغُلغُلِ
وفي باحة العنقاء أو في عَمايةٍ
أو الأُدَمى من رَهْبَة الموت مَوئِلِ(١)

وكانت التهمة التي يسجن عليها أولئك هي: طرد الإبل(٢).

وكل هذا على خلاف ما كانت عليه الحال في الجاهلية، حيث هو - في نظر أهله وقومه - سيد، ورئيس، سواء سماه الآخرون، لصاً، أو كان ينظر إلى نفسه على أنه صعلوك من نوع خاص. أما الخليع المطرود، المنبوذ، فذلك هو "اللعين" / "الملعَّن".

وهذا أبو النشناش يُعطي صورة واضحة عن الفرق بين الجاهلية والإسلام، بعد وجود السلطة والتشريع، فقبلاً كان الصعلوك إذا ضَنَّ عليه أقاربه، لجأ إلى القوة: "ليدرك ثأراً أو ليكسب مغنما" - والْحظ فكرة الكسب، هنا - فإذ ما تخلَّت عنه قبيلته، احتمى بقبيلة أخرى، ولم يعد إلا جزءاً منها. أما بعد الجاهلية، فيؤخذ، ويُسجن، فإذا ما تمكن من الهرب، فمآله مآل عَبيد بن أيوب والقَتّال، يقول أبو النشناش:

وسائلةٍ أين الرحيلُ وسائلٍ
ومن يسأل الصعلوكَ أين مذاهبُهْ
وداويةٍ يَهْماءَ يُخشى بها الردى
سرت بأبي النشناشِ فيها ركائبُهْ

---

(١) ديوان القتَّال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م)، ص ٧٧. وانظر شعر المرار الفقعسي، الشاعر، اللص/ الصعلوك. نوري حمودي القيسي، شعراء أمويون، (بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، ج٢، ص ص ٤٣٤ - ٤٨٦. الباسقات: الشاهقات. "صاحة"، "غول"، "غلغل"، "عماية" "الأدمى": أسماء مواضع. موئل: ملجا.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، "رحا".

لِـيُـدرِك ثـأراً أو لـيـدرك مـغـنـمـاً
جـزيلاً وهـذا الـدهـر جَمٌّ عـجـائـبُـهْ
إذا المـرءُ لم يَـسْـرَحْ سـوامـاً ولم يُـرِحْ
سـوامـاً ولـم تـعـطِفْ عـلـيه أقـاربُهْ
فلَلْـمـوت خـيـرٌ لـلفتى مِنْ قعوده
فـقـيـراً ومِنْ مـولى يَـدِبُّ عـقـاربُهْ
ولم أر مـثـل الـهـمِّ ضـاجـعَه الـفـتى
ولا كـسـوادِ الـلـيـل أخـفق طـالـبُهْ
فـمُتْ مـعـدَمـاً أو عِش كـريماً فـإنـني
أرى الموت لا ينجو مِنَ الموت هاربُهْ(١)

فهذه صور الصعاليك في العصر الأموي، وهي صور بائسة، تعكس حالات التشريد والملاحقة من قبل السلطات.

ويقدِّم سَوّار بن المُضَرَّب صورة دقيقة للمطارَد في العصر الأموي، وكيف تضيق الأرض عليه بما رحُبت، فلا يجد من يلجأ إليه حتى بين قومه، يقول:

أُحِبّ عُـمَـان من حـبِّي سُـلـيـمى
ومـا طِـبّي بـحبٌّ قُـرى عـمـان

ثم يقول:

تَـذَكَّـرْ مـا تَـذَكَّـرْ مِنْ سُـلـيـمى
ولـكنَّ المَـزارَ بـهـا نـآني
فلا أنـسـى لـيـالِيَ بـالـكَـلَـندى
فَـنِـينَ وكلُّ هـذا الـعـيش فـاني

(١) الأصمعي، الأصمعيات، ص ص ١١٨-١١٩. وأليس غريباً، فيما يتعلق بعروة بن الورد، أن تنسب له هذه الأبيات، انظر: ديوانه، ص ص ٥-٦. جمّ: كثير. يسرح: يرعى الإبل. السوام: الإبل الراعية. الداوية: المفازة البعيدة الأطراف. اليهماء: المجهولة. الردى: الهلاك.

ويـومـاً بـالـمـجـازة يـومَ صـدقٍ
ويـومـاً بـين ضَـنْكَ وَصَـوْمـحـانِ

وبعده:

أمِن أهل الـنَّـقـا طـرقتْ سُـلـيـمى
طـريـداً بـين شُـنْـظُب والـشـماني؟
سـرى من لـيـلِـه حـتى إذا مـا
تَـدلّى الـنـجم كـالأُدم الـهِـجـانِ
رمى بـلـدٌ به بـلـداً فـأضـحى
بـظَـمـأى الـريحِ خـاشعـةِ الـقِـنـانِ
تـمـوت بـنـاتُ نَـيْـسَـبِـهـا وتَـغـبى
عـلى رُكـبـانـهـا شَـرَكَ المِـتـانِ
تُـطَـوِّي عـنـك رُكـبـةَ أَرْحَـبِيٌّ
بـعـيـد الـعَـجب من طَـرف الجِـرانِ
مـطـيـةِ خـائف ورَجـيـع حـاجٍ
شَـمـوذِ الـذيل مـنـطـلِق الـلَّـبـانِ
قـذيفِ تـنـائفٍ غُـبْـرٍ وحـاجٍ
تَـقـحَّم جـائـفـاً قُـحَمَ الجَـنـانِ
كـأن يـديه حـين يُـقـال سـيـروا
عـلى مـتن الـتَّـنـوفـة غـضـبـتـانِ
تَـقـيـسـان الـفَـلاةَ كـمـا تَـغـالى
خـلـيـعـا غـايـةٍ يـتـبـادرانِ
كـأنـهـمـا إذا حُثَّ المـطـايـا
يـدا يَـسَـرِ المِـتـاحـة مُـسـتـعـانِ

سَـبـوتـا الـرَّجع مـائـرتـا الأعـالي
إذا كَلَّ المـطيُّ سـفـيـهـتـانِ
وهـادٍ شَـعْـشَعٍ هَـجَـمَت عـلـيه
تَـوالٍ مـا يُـرى فـيـهـا تـواني(١)

السجون:

وهناك مفارقة قوية جداً بين هؤلاء وسواهم في العصر الجاهلي، فبينما هناك لجوء في الجاهلية واحتماء، وبينما تتشكل في القبيلة وحدات صغرى وكبرى للإغارة والنهب، معلنين عن أنفسهم مشهورين، كان الصعاليك في العصر الأموي أفراداً، لا يجدون الأمن حتى عند عشيرتهم، أو في منازلهم، وحيث لم تكن هناك سلطات رسمية تعاقب وتطارد في الجاهلية، أُعدت قيود الحديد لهؤلاء في الإسلام، وهُيئت السجون المظلمة. ومن أشهر هذه السجون سجن "دُوّار" بـ "حَجْر" (الرياض)، يصف عبادة بن البراء، أحد بني عبدالله بن جعدة هذا السجن، فيقول:

(١) الأخفش الأصغر، كتاب الاختيارين، تحقيق: فخر الدين قباوة (دمشق: مطبعة محمد هاشم الكتبي، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ص ص ١٠٦-١٠٩. "الكلندي"، "المجازة"، "ضنك"، "صومحان"، "النقا"، "الثماني": أسماء مواضع. الأدم: الإبل البيض، يخالط بياضها سواد. الهجان: الكرام. بظمأى الريح: أي بأرض ظمأى الريح، أي: ريحها جافة، لا تعرف المطر. القنان: جمع قنة، وهي الأكمة السوداء الململمة الرأس. تغبى: تخفى. الشرك: الطريق الواضح. بنات نيسبها: الطرق الصغار التي تتشعب في الطريق الأعظم. المتان: جمع متن، وهو ما صلُب من الأرض وارتفع. الجران: باطن الحلقوم. أرحبي: بعير منسوب إلى أرحب، حي من همدان. العجب: أصل الذنب. الحاج: جمع حاجة. شموذ الذيل: يشول بذنبه من النشاط. قذيف: يقذف بهذا البعير. التنائف: الفَلَوات. الجائف: الخائف. القحم: جمع قُحْمَة، وهي الشيء السديد يُقتحم. الجنان: كل ما توارى عنك. الغضبة: الصخرة الصلبة المركبة في الجبل. تغالى: تسابق. يسر: سهل. المتاحة: الاستقاء على البكرة. مستعان: استعين به، فهو أسرع له. سبوتا الرجع: سريعتا الرجع في السير. السفيهة: الخفيفة. الهادي: العنق. الشعشع: الطويل. التوالي: الأعجاز.

فأبلغ عني أهلَ كُوزٍ رسالةً
طويلاً بحَجْر حبسُها ونشوبُها
لقد ضمَّ سجن الهاشمي عصابةً
تراها جميعاً وهي شتى شعوبُها
إذا حرَّك البوابُ أقفالَ سجنه
رأيت رجالاً وهي تنزو قلوبُها
فمن يُدْعَ منهم باسمه وهو مجرم
تكن روعة لا بد وهو مجيبُها
ذكرتكِ والحدادُ يقفل قيدَه
على الساق من عوجاءَ عارٍ كعوبُها
ترى الثوب منها قالصاً وهو سابغ
سريع إلى الداعي المضاف وثوبُها(١)

وذكره جحدر، فقال:

كانت منازلُنا التي كنَّا بها
شتّى وألَّف بيننا دُوّارُ
سجنٌ يلاقي أهلُه من خوفه
أزلاً ويُمنع منهم الزُّوّارُ
يغشون مَقْطَرَةً كأن عمودها
عُنُق يعرِّق لحمها الجزارُ(٢)

---

(١) الهجري، التعليقات والنوادر، ج ٣، ص ١٣٢٦ . وانظر شكوى المهريّ العُكَلّي من سجنه. أبو تمام، الوحشيات، ص ٢٢٢.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، "دوار". المقطرة: خشبة فيها خروق، كل خرق على قدر سعة الساق تدخل فيها أرجل المحبوسين.

كما ذكره عُطارد، فقال:

لـيـست كـلـيـلـةِ دوّارٍ يـؤرقـني
فـيـه تـأوُّه عـانٍ من بـنـي الـسّـيـدِ
ونـحن من عُـصبـةٍ عضَّ الحديد بـهم
من مُـشْـتَكٍ كَبْـلَه فـيـهم ومـصـفـودِ
كـأنمـا أهل حَـجْـرٍ يـنـظـرون مـتى
يَـرَوْنَـني خـارجـاً طـيـراً أبـاديـدِ(١)

ومن السجون التي ذكروها سجن "بيضاء" بالبصرة، والذي يصفونه بأن "المخيَّس" ـ ومن اسمه يتضح أنه كريه الرائحة متعفِّن ـ ففي وقت مبكر من الدولة الإسلامية قال بعض لصوص طيِّئ، في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

تجـلَّـلْتُ الـعـصـا وعـلـمت أني
رهـينُ مـخـيَّسٍ إن أدرعـوني(٢)

وبعد ذلك، قال جحدر:

أقول لـلـصحب في البـيـضـاء دونَـكُمُ
مَـحَـلـةٌ سَـوَّدت بـيـضـاءَ أقـطـاري
مـأوى الـفـتُـوَّة للأنـذال مـذ خُـلـقت
عـنـد الـكـرام مـحلُّ الـذُّلِّ والـعـارِ
كـأن سـاكـنـهـا من قـعـرهـا أبـداً
لـدى الخروج كـمُـنـتـاش من الـنـارِ(٣)

---

(١) المصدر السابق. الكبل: القيد. مصفود: مقيّد. أباديد: متفرقة.

(٢) أبو علي، أحمد بن محمد الحسن، المرزوقي، شرح الحماسة، تحقيق: أحمد أمين وعبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ/ ١٩٧٠م)، ج٢، ص ٦٢٩. أدرعوني: وضعوا في عنقي حبلاً.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "البيضاء". منتاش: خارج.

وفيه يقول نهار بن سبل الشهاق :

أقـول وأبــواب الـمُـخَـيَّسِ دونَـنـا
مـظاهـرة الأركـان قُـفلاً عـلى قُـفلِ(١)

ويقول ذو الرمة:

فـلـم يَـبْقَ إلا داخـرٌ في مُـخَـيَّسٍ
ومُنْجَحِرٍ من غير أرضِكَ في جُحر(٢)

وقد صور الفرزدق حالته فيه، فقال :

ومـا كـنتُ أخـشى أن أُرى في مُخَيَّسٍ
قصيرَ الخطا أمشي كمشي الرواسفِ
أَبِيتُ تَـطوف الزُّطّ حـولي بـجُـلْجُلٍ
عـليَّ رقيبٌ مـنـهـمُ كـالـمُحالف(٣)

وقال أيضاً :

فـهل يُـخْـرِجَـنِّي مُـنـذرٌ من مُـخَـيَّسٍ
وعُـذْرٌ بـه لي صـوته يَـتَـكَـلَّـم(٤)

وفي كل مكان كان هناك سجن شهير لهؤلاء، يقول طهمان، ذاكراً سجن نجران :

---

(١) أبو علي، الهجري، أبحاث الهجري، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: مطبعة اليمامة، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص ٣٦٥.

(٢) ديوانه، ج ٢، ص ٩٧٩ وانظر، صورة المصلوب، ص ص ٨٤٦، ٨٨١ . الداخر: الصاغر . منجحر: متحرز في جحر.

(٣) ديوانه، ج٢، ص ٥٣٨ . الرواسف: الذين يمشون في القيود، فيكونون قصار الخُطا. الزط: جيل من الهند. الجُلجل: الجَرَس الصغير. المحالف: المعاهد.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٠٤. وانظر: محمد بن موسى الحازمي، الأماكن، تحقيق : حمد الجاسر (الرياض: المطابع الأهلية للأوفست، ١٤١٥هـ)، ج١، ص ٥٢ .

لـقـد هَـزِئت مـني بـنجـران إذ رأت
عِـشـاريَ في الـكَـبْـلَـين أمُّ أَبـان(١)

وكان سجن "ديماس" بـ"واسط" : قرب النجف، مشهوراً، كان للحَجّاج، سُجن فيه جحدر الذي يقول عنه :

إن الـلـيـاليَ نَـجَّت وهي محـسـنـة
لا شك فـيـه من الـدِّيمـاسِ والأسـدِ
وأطـلـقـتـني من الأصفـاد مخـرجـةً
من هول سجن شديد الباس ذي رَصَدِ
كـأن سـاكـنَه حـيّـاً حُـشـاشـته
مَـيْتٌ تَـرَدّدُ فيه الـسُّمُّ في الجسد(٢)

وقال جرير :

ومـا زالت مـعـلـقـة بـشَـدْيٍ
بـذي الـديمـاس أو رَجُل قـتـيـل(٣)

ويقول الفرزدق عن سجنه هو نفسه :

فـإن يكُ قـيـدي رَدَّ هـمّي فـربمـا
تَـرامى بـه رامي الـهـموم الأبـاعدِ(٤)

وبعده :

يـقـول لي الحـدّادُ هل أنت قـائم
وهل أنـا إلا مـثلُ آخـر قـاعـدِ

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، "دمخ" . عثاري : سقوطي.

(٢) المصدر نفسه، "ديماس" . الأصفاد : القيود.

(٣) ديوانه، تحقيق : محمد إسماعيل الصاوي (بيروت : مكتبة الحياة، د. ت)، ص ٤٣٣ .

(٤) ديوانه، ج١، ص ١٥٧-١٥٨ .

وبعدهما، منسوباً لجرير:

فهل لك في عانٍ وليس بشاكر

فتطلقه من طول عضّ الحدائد(١)

وكانت السجون قَبْلاً آباراً، فأول من بنى السجون علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد بنى سجني: نافع والمخيس، وفيه يقول علي رضي الله عنه:

بنيت نافعاً مخيساً(٢)

وفي المدينة سجن، وفي مكة سجن "عارم"، وصارت حالة هؤلاء هي الحالة التي عبَّر عنها القتّال، أو غيره:

كأن بلاد الله وهي عريضة

على الخائف المطلوب كفّة حابل

يؤدّى إليه أن كل ثنيةٍ

تيمّمتُها توحي إليه بقاتلٍ(٣)

على أننا يجب أن لا نبالغ في المفارقة، فقد كانت هناك سلطات في الجزيرة العربية قبل الإسلام، إلا أن تلك السلطات لم تكن قوية باسطة النفوذ، فـ"دوار" في "حجر" (الرياض)، كان قديماً، ولا بد أنه كان سجناً لأمثال أولئك، وكان هناك سجن "المشقّر" بـ"هجر"(٤). ومن السجون المحلية: سجن "الغموص" في خيبر(٥).

(١) ديوانه، تحقيق الصاوي، ص١٧٨.

(٢) ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان امين طه (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الاولى، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م)، ص ٢٠٦.

(٣) ديوان القتال، ص ٩٩. وانظر، ص ص ٧٥ – ٧٦ . وانظر عن السجون، حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م)، ص ص ١٢٠ –١٢٩، وقارنه بكتابه الآخر: الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي (عمّان: دار الجيل، ط٣، ١٩٧٧م).

(٤) ديوان الأعشى، تحقيق: محمد محمد حسين (القاهرة: مطبعة النموذجية، ١٩٥٢م)، ص ١٠٩.

(٥) شهاب الدين، أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة (القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ)، ج٢، ص ٣٩٥.

وهكذا، يمكن أن يقال عن بقية السجون المذكورة.

والملحوظ أن اللصوصية أصبحت ظاهرة بين البدو في الجزيرة العربية في العصر الأموي، وهي ظاهرة لها خصائص اللصوصية، حيث لا يجد اللص من يحميه، ولا يفتخر أهله بعمله، يقول جرير في مدح المهاجر:

تَرَكَ العُصاةَ أذلةً في دِينه

والمعتدين وكلٌّ لصٌّ ماردِ(١)

ثم هم كثرة في البادية أيضاً، يقول أيضاً:

إن المواجِنَ من بنات مجاشعٍ

مأوى اللصوص وملعب العُهّارِ(٢)

وقد وصف أبو النشناش حاله في السجن، فقال:

كأن لم تَرَ قبلي أسيراً مُكَبَّلاً

ولا رَجُلاً يَرمي به الرَّجَوانِ

كأني جوادٌ ضمَّه القيدُ بعدما

جرى سابقاً في حَلْبَةٍ ورِهانِ(٣)

ويقول ذو الرمة، يمدح مالك بن المنذر بن الجارود، وكان على شُرَط البصرة، مبيّناً مآل اللصوص الذين أُقيم عليهم حدُّ الحَرابة، ومصوِّراً سيادة الأمن:

تقول التي أمست خُلوفاً رحالُها

يغيرون فوق المُلْجَمات العَوالكِ

لجارتها أفنى اللصوصَ ابنُ منذر

فلا ضَيْرَ أن تغلقي باب داركِ

---

(١) ديوانه، ج٢، ص٦٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٩٨. المواجن: الماجنات، اللاتي لا يبالين ما يفعلن.

(٣) الأصفهاني، الأغاني ج ١٢، ص ١٦٧. وانظر، الهجري، أبحاث الهجري، ص ص ٢٠٢ – ٢٠٣. الرجوان: مثنى الرَّجا، أي الناحية؛ والمعنى: استُهين به، فكأنه رمي به في المهالك.

وآمَنَ لـيلَ المسـلمين فـنَـوّموا
ومـا كـان يُـمسي آمـنـاً قـبل ذلكِ
تـركتَ لـصوصَ المِصر من بـين يائس
ومن بين مَكنوعِ الكراسيع بارِكِ(١)

وهنا تتجلّى المفارقة بين الحريّة في السطو والنهب، والملاحقة والعقاب في الاعتداء على الأموال المحروزة، وإنما تفيدنا تلك الحالات في بيان الطريقة التي كان الغزاة "الصعاليك" في الجاهلية يأخذون بها الإبل، كما تُبيّن أوجه الشبه في قطع الطريق، إلى جانب اختلاف نظرة المجتمع في الزمنين، وبيان تطبيق الشرع، إزاء القبول بالأعراف والتقاليد في الجاهلية.

وأخيراً علينا أن نلحظ أن صورة "الصعلوك" الغازي، في قول تأبط شراً، تجعله يخترق الوديان: "وواد كجوف العير . . ." جيئةً وذهاباً، والوديان موضع استيطان، ففيها يعيش من يغير عليهم، و"الخليع"، المقامر، اجتمعت حاله وحال الذئب في هذه اللحظات فقط، أي: العواء، الألم والفاقة. وفي العصر الإسلامي (الأموي) كان اللصوص يهربون بعيداً حتى عن مناطق الخصب والمياه؛ ولهذا، ترددت في أشعارهم مفردات: "البيد"، "القفار"، "المقفر"، "الفلوات"، "الداوية". أو على أحسن حال، هم يلجؤون إلى قمم الجبال، وهي مناطق جفاف ومشقة عيش، كما جاء في تصويرهم. ويؤكد الوضع الأول قول الشنفرى الآتي الذي يذكر "التنائف"، فهذه "التنائف" ليست صحارى قاحلة، وإنما هي أجزاء تلك الوديان في السَّراة وأطرافها: "يخوت بأذناب الشعاب".

(١) ديوانه، ج٢ ص ٦٦١. أمست خلوفاً رجالها: أي نسوة غابت رجالها. العوالك: الخيل التي تعلك اللُّجُم. نوموا: ناموا. المكنوع: المقطوع الكراسيع: جمع كرسع، وهو أسفل الكعب.

الفصل السابع
مشهد الذئاب في لامية الشنفرى

الصعلوك الشجاع:

لقد قدّم الشنفرى في لاميته صورة للتوافق والانسجام في حياة أولئك الصعاليك الغزاة؛ فكما جعل نفسه كالذئب، ثم إن الذئاب اجتمعت وتفرقت بسرور، وكما قارن نفسه بالقطا، فإن الوعول هنا أيضاً تجتمع فوق قمة الجبل، وهو مكانها الطبيعي، كما كانت المرقبة مكاناً طبيعياً لتجمع الذئاب ومورد الماء مساءً "الآصال"، وهو وقت تجمّعها الطبيعي، ولكنها عندما يطلع النهار، ستغادر هذا المكان، وستفترق مرة ثانية، وبذلك يتأكد لنا أن لجوء الشنفرى إلى الأراوى لم يكن تعويضاً أو تكيُّفاً، وإنما كشفاً عن واقع، وفي مشهد الذئاب في "لاميته"، نجد حالة الانفصام بين الذئب والصعلوك، تماماً كما كانت الحال بين الذئب وتأبط شراً. وإذا كانت "لامية" تأبط شراً تبيِّن وضعين متشابهين: وضع الصعلوك العابر، ووضع "الذئب" المقيم، فإن "لامية" الشنفرى شهادة مفصَّلة على ذلك الوضع الأول، وإثبات لتفسير "الخليع" هنا، فإذا لم يكن تأبط شراً صعلوكاً مخلوعاً، وإنما كان منتمياً، فإن الشنفرى يقدِّم صورة مماثلة لما قدَّمه تأبط شراً بإيجاز شديد، غير أن الشنفرى، حسبما قدم نفسه في اللامية، وحسبما استنتج المرزوقي: "تَرَأْبَل"(١).

وتفسير "تَرَأْبَل": "لص رِئبال: وهو من الجرأة، وترأبلوا: تلصَّصوا، وخرجوا يترأبلون: إذا غزوا على أرجلهم ..، وفلان تَرَأْبَل: أي يغير على الناس ويفعل فعل الأسد .. جرير: "ربابيل البلاد يخفْن مني.." (٢).

وهم: "رآبيل العرب"(٣).

(١) التبريزي، شرح المفضليات، ج١، ص ٣٩٥. وجاء في حاشيته: " الربيل " اللص الذي يغزو القوم وحده، ورآبلة العرب: هم الخبثاء المتلصِّصون على أسوقهم ..... ".

(٢) ابن منظور، اللسان، "رأبل".

(٣) الزبيدي، التاج، " ترأبل ".

فهو يلتقي هنا مع حديث تأبط شراً في كل جوّه، إنه يعبر عن إحساسه. إن معاناة الشنفرى وقسوة حياة "الصعلكة" ظاهران في كل أجواء شعره، فهو في اللامية التي كثُر الحديث عنها؛ يقول:

أقيموا بني أُمّي صدورَ مطيِّكم
فإنّي إلى قوم سواكم لأَمْيَلُ

ثم يأتي إلى القول:

ولي دونكم أهلون سِيدٌ عَمَلَّسٌ
وأرْقَطُ زُهلولٌ وعَرفاءُ جَيْأَلُ

فهنا مفارقتان:

الأولى: بنو أمه، قبيلته بما في تعبير الأمومة، من رابطة وحنين.

والثانية: هذه الوحوش التي تُمثّل الجماعة البشرية الجديدة، كما في استخدامه لضمير الجماعة في "أهلون" و"لديهم"، إضافة إلى معنى "الأهل" ذاتها، وأهم ما فيها كلمة "قوم": الجماعة البشرية. وإن لوحة الذئاب التي قدمها الشنفرى لأصدق دليل على ذلك، فحيث تُقرُّ الدراسات العلمية أن الذئاب، بممارستها العويلَ، إنما تمثل أجمل لحظات الغناء والسعادة عندها، نجد الشنفرى: الذئب، الأزلّ، الطاوي، المتجوّل، ينخرط في هذه المجموعة، وينسجم معها: حياة انضباط شديد، وتناغُم بالغ، وليس الشنفرى ولسنا نحن، وليس كل لغات العالم بمسؤولة عن وصف هذا المشهد بـ"العويل"، "والمناحة"، فهكذا، استشعرها الإنسان الأول، وتناقلتها القرون، بينما هي حتى في وصف الشنفرى في غاية ابتهاجها وفرحتها، يقول:

وأغدو على القُوتِ الزهيد كما غدا
أَزَلُّ تهاداه التنائف أَطْحَلُ
غدا طاوياً يُعارض الريحَ هافياً
يَخُوتُ بأذنابِ الشِّعاب ويَعسِلُ

فلما لواه القوت من حيث أمَّه
دعا فأجابته نظائرُ نُحَّلُ
مُهُلْهلةٌ شِيبُ الوجوه كأنها
قِداحٌ بكَفَّيْ ياسرٍ تتقلقلُ
أو الخَشْرمُ المَبعوثُ حَثْحَثَ دَبْرَه
مَحابِيضُ أرداهُنّ سامٍ مُعَسِّلُ
مُهَرَّتَةٌ فُوهٌ كأن شُدوقَها
شُقوقُ العِصِيّ كالحاتٌ وبُسَّلُ
فضجَّ وضَجّتْ بالبَراحِ كأنها
وإياه نَوْحٌ فوق علياءَ ثُكَّلُ
وأغضى وأغضت واتّسى واتّستْ به
مراميلُ عزّاها وعزَّتْه مُرمِلُ
شكا وشكت ثم ارعوى بعدُ وارعوت
وللصَّبْرُ إن لم ينفع الشكوُ أجملُ
وفاء وفاءت بادراتٌ وكلُّها
على نَكَظٍ مما يكاتِمُ مجملُ(١)

---

(١) الأزل: القليل لحم الوركين. التنائف: جمع تنوفة، وهي الأرض. أطحل: في لونه كدرة. الطاوي: الجائع. هافياً: يذهب يميناً وشمالاً من شدة الجوع. يخوت: يختطف. الشعاب: المسائل الصغار في الوادي. أذنابها: أواخرها. يعسل: يمر مروراً سهلاً. لواه: دفعه. أمَّه: قصده. نُحَّل: ضوامر. مهلهلة: رقيقة اللحم. شيب: جمع شيباء وأشيب. ياسر: الذي يضرب بالقداح. الخشرم: رئيس النحل. حثحث: حرك وأزعج. الدَّبْر: النحل. المحابيض: جمع محبض، وهو العود مع مشتار العسل. السامي: الذي يسمو لطلب العسل. معسل: طالب العسل. مُهَرَّتة: مشقوقة الفم. البُسَّل: الكريهة المراى، ويقال للشجاع: باسل أيضاً، البراح: الأرض الواسعة. نَوْح: جمع نائح ونائحة. العلياء: البقعة المشرفة. ثكل: جمع ثاكلة، وهي التي فقدت ابنها. اتّسى: تعزى. اتّست به: جعلته أسوة وقدوة. مراميل: الذين لا أقوات لهم. فاء: رجع. البادرات: المسرعات. النكظ: شدة الجوع. يكاتم: يكتم ما عنده. المجمل: الذي يعامل صاحبه بالجميل.

وأول ملحوظة حول هذه المقطوعة هي أن الصراع من أجل البقاء قاسم مشترك بين الذئاب من جهة، وبينها وبين الصعاليك عامة من جهة أخرى. وصورة الذئب هنا هي صورة الصعلوك، وهي صورة عابسة، متجهمة في جزئها الأول. أما الجزء الآخر، فهناك من يرى أن ذلك يمثل "مناحة"، وأن لفظة ترعوي، تعني تتلاشى عن خشبة المسرح(١)، وهو أمر لا ينطبق مع واقع الصورة، فهذا الجزء من لوحة الذئاب إنما يشكل قمة الفرحة والسعادة، فهناك وجهان لهذه اللوحة: الوجه الأول هو: الوجه الخلقي للذئاب، الذي يعني التكيُّف مع الطبيعة وظروفها، والوجه الآخر، هو الوجه النفسي؛ فالذئاب عندما تجمَّعت، لم تتجمع؛ لأنها تفتقد الغذاء، وإنما تجمَّعت لتؤدي أجمل لحظاتها الحياتية المتكررة، إنها العويل؛ إذ تأتي أعمق أصداء العويل مساءً وصباحاً خاصة في هزيع الليل الأول وهزيعه الأخير، ومع أن أغلب أوقات هدوئه هي في الظلام أو الفجر، فقد يُسمع أيضاً نهاراً، ويتضاعف حدوثه في فترات التناسل، خاصة آخر الشتاء، كما ينخفض عقب ذلك في أوائل الصيف، ثم يبدأ بالزيادة في يوليو وخلال الصيف، ولكن الذئاب لا تمارس العويل في ضوء القمر. يبدأ أحد الذئاب بالعويل، وليس من الضروري أن يكون من الذئاب العليا، فتنضم إليه بقية المجموعة، فتحرك أذنابها، وتَصِيء، وتمسح الذئاب الدنيا أنوفها ببعضها، وترفع الذئاب رؤوسها بحيث يكون أنفها البارز متوجهاً نحو الفضاء، وآذانها منتصبة، ثم تبدأ في العويل، ويبدو صوتها عميقاً حاداً على شكل: آ-وه، آ-وه، آ-وه. وبعد عويل أو عويلين، تنتظم المجموعة في جوقة واحدة، ويأخذ كل ذئب بارتفاع وانخفاض في عويله، وقد يصل معدل العويل إلى ٨٥ ثانية.

---

(١) يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي (بيروت: دار الحقائق، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م)، ص ص٢٢٦-٢٢٧. وانظر، ص٢٤٢، وانظر: سعود الرحيلي، لامية العرب أو رحلة التوحش، (الرياض: جامعة الملك سعود، مركز البحوث، ع٢٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، ص ٧.

ويسمع العويل على بعد ٥ – ٦ كم، أو أحياناً على بعد ١٦ كم؛ إذ يعتمد كل ذلك على طبيعة المنطقة؛ ففي الليل مثلاً، قد يُسمع على بعد حوالي ٥٠ ميلاً – ١٤٠ ميلاً. ويعود ذلك التنغيم في العويل إلى أن كل ذئب ينسق عويله وفقاً للآخر، فعندما يُعْوِل ذئبان، يغيِّر أحدهما نغمته بسرعته، بحيث تصبح النغمتان ذات صدىً خاصٍ يرعب سامعه.

ومن الملحوظ أن صوت الذئب يمتاز بالعمق أثناء العويل، بينما يمتاز صوت الذئبة بالحِدَّة، أما صغار الذئاب، فأصواتها ذات نبرة. وإضافة إلى ذلك، فإن الذئاب الأخرى، إذا ما سمعت عويل مجموعة مساءً، فإنها قد تستطيع أن تميز مكانة هذه المجموعة الاجتماعية وحجمها، إذا ما أعقب هذا العويل فترة صمت تستغرق ما بين ١٥ – ٢٠ دقيقة، ولكن العادة أن تنفعل تلك الذئاب بأصداء العويل، فتُصدر هي نفسها عويلاً آخر، استجابةً لذلك العويل، فتُشكِّل جوقة كما مَرّ سابقاً، وبهذا يتم تحديد المنطقة.

أما العويل، فمن أهدافه: التحية، وممارسة الطقوس. وهو كذلك وسيلة تجمُّع، خاصة من الذئب المُبْعَد، أو عند تفرق المجموعة، وهو أيضاً إعلان للصغار بالعودة. ثم إن الذئاب تلجأ إلى العويل قُبيل مغادرتها للصيد في الظلام، على أنه تنغيم لحني، ربما مثَّل الموسيقى العسكرية، لِبَثّ روح الشجاعة والفتك في أفراد المجموعة(١).

ولكي نكون أدقَّ في توضيح الصورة علينا أن نلحظ أن هذه المجموعة مجموعة متوافقة في أشكالها الجسمانية، حتى استخدم هو لها كلمة: "نظائر"؛ فهي: نُحّل / مهلهلة شيب الوجوه / كالحات وبُسَّل، فلا فوارقَ جسدية فيها، ولا اختلافات نفسية فيما بينها، إنها هي كلٌّ سواء، مما يعطي كلَّ ذئب منها صورة واحدة، فيضعه في صف الذئب القائد، وهذا أمر واقعي لتفكير الشنفرى نفسه، إنه يصف

(1) H. Frank, Man and wolf, Dordrecht, W. Junk, 1987 , pp 313 - 348.

نفسه ويصف أمثاله من الذين تجمَّعوا للغزو.

وهي، فوق كل ذلك، تستشعر القسوة والمعاناة:

فَضَجّ وضجت بالبَراح كأنَّها
وإياه نَوحٌ فوق علياءَ ثُكَّلُ

فأغضى وأغضت واتَّسى واتَّست به
مراميلُ عزَّاها وعَزَّتْه مرملُ

وتُختم لوحة الذئاب بما يتوافق مع صورة الذئب القائد:

... ارعوى بعدُ وارعَوَتْ
وللصَّبْرُ إنْ لم ينفع الشكْوُ أجملُ

لقد تفرقت الذئاب التي اجتمعت، فعاد كل ذئب إلى سيرته الأولى في البحث عن مغنم. وهنا لا توجد مجموعة متشرذمة، بل مجموعة مشدودة إلى بعضها بعضاً، وإن تقطعت بها السبل، وتباعدت بينها المسافات، فهي ذئاب متجانسة فيما بينها، استجابت لندائها الغريزي، فتجمعت، ثم افترقت. وهكذا، دواليك في كل لقاء مشابه.

إن كل مفردة، وكل عبارة من تلك الأبيات تتحدث بواقعية وصدق عن نفسية أولئك الصعاليك / الغزاة، الذي يخاطرون بأنفسهم، فينبَثون فُرادى بحثاً عن الغنائم، وهم في انتشارهم ينتظرون أمر القائد الذي يعيد توزيعهم مرة أخرى، ويكشف المشهد عن الدافع من وراء الصعلكة / الغزو، إنه الحاجة إلى الكسب "القوت"، ومن ثم فهم: "مراميل". فالشكوى لم تعد تجدي، ولم يبق إلا الصبر الجميل. إذن، فلا بد من العمل من جديد.

إن أهم ما في هذه اللوحة هو بروز عنصر القيادة، أو السيادة، وما تضمنته الأبيات من عناصر القوة والشجاعة والصبر والفتك والبسالة وقسوة المعاناة .. إلخ. وذلك إلى جانب المشاركة والاجتماع، وكون انطلاقة الذئاب الأُولى من مكان

معيّن، واتفاقها على التجوال في جهة محددة، ولا شك أن عبارة: "أغدو" / "كما غدا" تشير إلى العودة إلى مكان ذلك الغُدُوّ، وإن كانت العبارتان غيرَ مناسبتين لتوقيت انطلاق كل من الذئب و"الصعلوك" / الغازي؛ إذ إنهما إنما ينطلقان مساءً، لا أول النهار، ولا سيما الذئب.

لقد قدم الشاعر وصفين مختلفين:

الأول:

مُهلهلَةٌ شِيبُ الوجوه كأنها
قِداحٌ بكفي ياسرٍ تتقلقَلُ
أوِ الخشرمُ المبعوثُ حَثْحَثَ دَبْرَهُ
محابيضُ أرداهنَّ سامٍ مُعَسِّلُ

فالقائد هو الياسر: لاعب القمار، ولاعب القمار، وهو مقبل على القمار، ممسك بقداحه (سهامه قبل تجهيزها بالريش للعب)، لا يكون محطَّماً معنوياً، والخشرم: ملكة النحل، وهي تصعد عالياً تتبعها النحل، لا تُصدر أصواتاً تبعث على تفريق عمالها، وإنما تصدر أصواتاً تبعث في نفوسها الإرادة والعزيمة.

والثاني:

... ...
وإياه نَوْحٌ فوقَ علياءَ ثُكَّلُ

وهذا يناقض ذاك، إلا أنه ينقل إحساساً بالفقد المشترك، فما الذي فقدتْه هذه المجموعة؟ إنها لم تفقد شيئاً سوى أنها لم تحصل على حاجتها من الطعام، وهي اجتمعت، لتعاود الكرة، فهي مسرورة. إذن، أسقط الشاعر ما في نفسه على هذه المجموعة، فهو القائد الذي جمع هؤلاء الرجال الصعاليك، الغزاة، ومازال محتفظاً بإرادته، ثم هم جميعاً محتفظون بعزيمتهم، وهذا هو معنى قوله: (ولَلصَّبْرُ إن لم ينفع الشكْوُ أجملُ).

إن صورة الذئب والذئاب كلّها في هذا المشهد هي الصورة التي قدمها حاتم عنها:

ولله صعلوك صفيحةُ وجهِه .....

وأمر آخر ذو علاقة بتصوير الشنفرى، وهو - باستثناء هذا العويل الفريد في الشعر عامة - هل اقتصر الحديث عن الذئاب على هذه الفئة من الصعاليك، الغزاة، أو شمل الصحراء العربية، كما هو الحال في ذئب سواه؟

أما الصورة التي طالما وضعناها، على أنها تمثل الخلع والطرد، فهذه صورة مغايرة كليةً للصورة التي يقدمها الشنفرى، إن الذئب المخلوع هو الذئب الذي يعكس شخصية مهتزة متهاونة: The Omega Wolf، إنه الذئب اللعين، ولو كانت لوحة الذئاب لوحةً سلبيةً، كما يفهم من قوله: "شِيب الوجوه .."، وتعكس الاعتلال والضعف والخَوَر، لانطبقت عليها تلك المقولة التي رددها التراث العربي عن أكل الذئاب بعضها بعضاً في حالة هُزالها.

إذن، نحن هنا أمام صورة تربط بين نموذج الصعلوك الغازي ونموذج الذئب. ومن هنا، فتوحُّدهما في الرؤية يجعلنا نذهب إلى الانتقال نحو الطبيعة نفسها، خرج الاثنان بحثاً عن الكسب، مهما كانت قيمته، وكلاهما مؤمَّن نفسياً من حيث الجماعة، وما بقاء الذئب في وسط الوديان إلا حباً في الحياة، وحرصاً على رمقها. فهذا الذئب هو الذئب القائد Alpha Wolf، وليس هو الذئب من المرتبة الثانية التي تلي القيادة Beata Wolf. أما بقية الذئاب، فهي التي تشكّل المجموعة الذئبية الواحدة، التي احتفظت بتماسكها، وذات التأثير والنفوذ، وهذا أمر غاية في الأهمية، فالذئاب التي تجمّعت، لا يمكن أن تتجمع وهي غير متجانسة، إذ لا بد في مثل ذلك التجمع أن يكون هنالك رباط عصبي حتى بين هذه الذئاب، إنها من عائلة واحدة، ومن أسرة واحدة، وتعيش في منطقة واحدة، ويربطها انتماء واحد، بالضبط تماماً كما الصعاليك الغزاة، فهم ينتمون إلى قبيلة، بل إلى عشيرة، ويقطنون موطناً واحداً، يجدون فيه الحماية والأمن، في إطار تلك القبيلة وفي

نطاق مواطنها، وهذا هو ما يعبّر عنه في حالة الذئاب بـ (الحِمى)، فهم إذ يخرجون عنه للسلب والنهب، يعودون إليه ويدافعون عنه، ولا يسمحون لمتطفل بالبقاء فيه؛ أي: إن الذئاب، كذلك لا تدع أي ذئب وافد يدخل حِماها.

ونستطيع في إطار هذا المشهد أن نستخرج ما يتوافق مع الذئب القائد في وسط مجموعة ذئبية واحدة؛ فالشنفرى يقدّم أول لوحة وآخرها عن تجمع الذئاب في تاريخ الأدب العربي كله، بل العالمي بأسره، فلوحة الذئاب لوحة عاكسة لحياة الصعاليك: الغزاة / الفرسان / الفتاك، وهي لوحة تتطابق تطابقاً مع الذئاب في حياتها، فلقد ترك الشنفرى في الصورة ما يتوافق مع صورة الذئب القائد؛ فهو:

فلمّا لواه القُوتُ مِنْ حيثُ أمَّهُ
أزلٌّ تهاداه التنائِفُ أطحَلُ

غدا طاوياً يعارِضُ الريح هافياً
يخوتُ بأذنابِ الشِّعابِ ويَعْسِلُ

إنه ذئب تولّى زمام القيادة، فترك كل واحد من المجموعة يذهب باحثاً عن فريسته، وافترق هو عنها، وهذه هي حالة افتراق كل مجموعة الذئاب عند انطلاقها، ولا سيما الذئاب العربية التي لا يتوافر لها الطعام في تجمع سكاني، فالذئاب:

أولاً: لا بد أن تكون في وسط مجموعة، صغيرة كانت أو كبيرة، ومن المفترض أن مجموعة ذئاب الجزيرة العربية محدودة العدد جداً، لا تتجاوز أبناء العائلة الواحدة، فهي غالباً ما تتكون من زوجين وجرائهما، وقد تصل المجموعة إلى عشرة(١).

وثانياً: أن العويل بين ذئاب الجزيرة العربية نادر(٢)، وهو نادر حقاً، بدليل اختفائه من الأدب العربي، سوى هذه الصورة.

(١) وانظر: J. Kingdom, Arabian Mammals (Bahrain; gov. press, 1990, p.77. Christian Gross, Mammals of the Southern Golf (Dubai: Emirates Printing press, 1987) p. 43.

(2) Gross , Mammals of the Southern Gulf P. 44-45.

كما أن ذئاب الجزيرة العربية عامة، تعيش على أطراف الأرض؛ إذ يذكر ديفيد هاريسن أن الذئاب العربية تعتمد اعتماداً كلياً على الماء؛ ولذا فهي لا توجد في قلب الصحراء، وإنما في الأطراف المتاخمة لها، ومن المحتمل أنها لا تتوغل بعيداً في الصحراء أبداً(١)، ويذكر (هـ- ميند لسزوهن) أن الذئاب تبتعد عن الماء بمقدار ٥٠ كم(٢).

وثالثاً: أن هذه المجموعة الكبيرة نسبياً، والتي سرعان ما اجتمعت، وإسقاط الشنفرى ما في نفسه عليها، ليَدلُّ على أن هذه الذئاب من ذئاب المناطق المتاخمة للسَّراة الشرقية؛ أي: نواحي "أبيدة" (بيده) والبلاد المطلة على بلاد زهران شرقاً.

ويذكر هارنجتون وميش أن من أهداف عويل الذئاب بصفة عامة:

التحية وممارسة الطقوس، وهو كذلك وسيلة تجمُّع، إنه نداء لأيٍّ قاصٍ، نأى عن المجموعة(٣). ونحن هنا بإزاء معلومات تحتاج إلى بيان:

١- أنها توثِّق المعلومات التي تثبت ارتياد "الصعلوك/ الفاتك الغازي ... إلخ"، مناطق نائية، إلا أنها لا تخرج عن مجاله الحيوي، بمعنى أن ذلك الذئب القائد ومجموعته كانت في مجالها الحيوي أيضاً، فهي افترقت مؤقتاً، إلا أن التراسل، أو التواصل بينها، كان ممكناً، وهنا نجد التقاءها السريع ذاك.

٢- أنها تتطابق تماماً مع ما جاء في وصف الشنفرى للعويل.

٣- أنها تقدم الذئب في مجاله الحيوي، كما تقدمه بالضبط لوحةُ الشنفرى.

٤- أن ممارسة العويل هنا لم تكن من مجموعة مشتَّتة اجتماعياً، جاءت لتؤدي طقوس اللقاء المعتادة ليلاً، بالعويل، أو هي دعوة من ذئب مبعَد مطرود، دعا أمثاله من الذئاب غيرِ البعيدين عنه، عن طريق العواء، لا العويل، لإحاطته بصيد، بل هو العويل حقيقة، ذلك العويل الذي لا يُؤَدَّى أبداً إلا من مجموعة عائلية واحدة، بينهما تفاهم وارتباط وثيق.

(1) D.L. Harrisson, The Mammals of Arabia (London: Erest Benn ltd. 1981) p.49.
(2) In Harington , F. H. & P. C. Paquet, Wolves of the World, (Parkridge; Noyes Publication, N.J.) p. 190.
(3) Gross , Mammals of the Arabian Gulf, p. 205.

الباب الثاني

الصعلكة: الواقع والممارسة

الفصل الأول
الصعلكة شرف وانتماء

الطواف / الغزو

إن هؤلاء الصعاليك الشجعان، إنما أُطلق عليهم هذا المسمى، تمييزاً لهم عن أولئك الشجعان في ساحات الحروب المشهودة؛ إذ في كل قبيلة من أمثالهم، وفي كل جماعة، وما صعلكتُهم إلا للحصول على المال (الغنى)، لممارسة طموحاتهم، أو مهمَّات السيادة والزعامة في عشائرهم، وقد أصبح مسمى الصعلوك مسمىً جامعاً لأولئك الفقراء العاجزين عن تحقيق المكانة الاجتماعية بإرادتهم، وهؤلاء الرجال الذين يستعينون بقواهم الخاصة الجسدية والعقلية، لتحقيق ذواتهم، وفرض احترامهم على الآخرين، وكلا الفريقين هو جزء من المجتمع الذي ينتمي إليه، غير خارج عليه، إلا إذا تجاوز أعراف هذا المجتمع ومواضعه، فحينئذ يصبح مخلوعاً. وعلى هذا، فليس هناك تكتُّل معين يسعى لأهداف خاصة متميزة؛ إذ إن الصعلكة ـ بمفهومها الأخير ـ ظاهرة اجتماعية، وهي تعد كسباً مشروعاً، وشرفاً اجتماعياً قبل الإسلام. والمثير فيها هو أن من يمارسها، يمارسها والمجتمع آمِنٌ، إلا أن هذا التصرف لا يُخلي قبيلته من تبِعاتِها حتى تخلعه.

وقد بقي أن نفتح المجال لأي اجتهاد يجعل الصعلكة محرِّكاً اقتصادياً، أو اجتماعياً، أو نفسياً، من غير أن يصنفها في شريحة إنسانية متميزة؛ إذ هي ظاهرة اجتماعية عامة، معروفة في عدد معين من الأشخاص، أو فئة محدودة من الجماعات، فلقد كانت ممارسةً اجتماعية مشروعة، يقوم بها من يجد في نفسه القدرة على الإقدام والاقتحام خِلسةً، ودون اشتهار، حتى لا يجرَّ ذلك إلى حروب قبلية، إنهم الفرسان أو هم الفتيان، كما هو حال "الفتيان من وابش".

فهذا هو تأبط شرّاً يمدح ابنَ عمه شمسَ بن مالك، مركِّزاً على خصال هي في صميم الخصال التي تخص الصعاليك، فقال:

إني لمهد من ثنائي فقاصد
به لابن عم الصدق شمس بن مالكِ
أَهُزُّ به في نَدوة الحيّ عِطفَه
كما هزَّ عِطفي بالهجان الأوارك
لطيف الحوايا يقسمُ الزادَ بينه
سواءً وبين الذئب قَسْمَ المشاركِ
يظلُّ بمُوماةٍ ويُمسي بغيرها
جَحيشاً ويَعْرَوْرَى ظُهورَ المهالكِ
كأن به في البُرد أثناءَ حَيَّةٍ
بَعيدُ الخطى شتى النوى والمسالكِ
ويسبق وَفْدَ الريح من حيث تنتحي
بمنخَرِقٍ مِنْ شده المتداركِ
إذا خاط عينيه كرى النومِ لم يزل
له كالئٌ من قلبِ شَيْحان فاتكِ
وإن طلَعَت أُولى العَديِّ فنفره
إلى سَلَّةٍ مِنْ صارمِ الغرب باتكِ
إذا هزَّه في عظم قرن تهللت
نواجذُ أفواهِ المنايا الضواحكِ
قليلُ التَّشكّي للمُهِمّ يصيبُه
رحيبُ مناخِ العيش سهلُ المباركِ(١)

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م)، ص ص ٩٦ ـ ٩٨. الأوارك: الإبل التي رعت الأراك. الحوايا: جمع حوية، وهي ما تحوي من الأمعاء. الجحيش: الوحيد المنفرد. يعرورى ظهور المسالك: غير مستصحب رفيقاً. وفد الريح: أولها. المنخرق: السريع. المتدارك: المتلاحق. الشيحان: الحازم الجاد. العدي: الذين=

وهذا هو قول دريد بن الصمة يقول في أخيه عبدالله :

ولا بَـرَمـاً إذا الـريـاح تـنـاوحت
بـرَطْب الـعِـضاه والـصَّرِيعِ المعضَّدِ
وتُـخْـرِجُ مـنه صَـرَّةُ الـقـوم جُـرأةً
وطـولُ الـسـرى ذَرِّيَ عَـضبٌ مـهـنـدِ
كَـمِـيشُ الإزار خـارجٌ نـصفُ سـاقه
صـبـورٌ عـلى الـعَـزّاء طلاع أَنْـجُـدِ
قـلـيلاً تَـشـكّـيه الـمُـهِمَّ وحـافظٌ
مع الـيـوم أعـقـابَ الأحـاديث في غـدِ
إذا هـبط الأرض الـفـضـاء تـزيَّـنت
لـرؤيـتـه كـالـمـأتم المـتـبـدِّدِ

ثم قال :

رئـيـسُ حـروبٍ لا يـزال رَبـيـئـةً
مُـشِـيحاً على مُحْقَوْقَفِ الصُّلبْ مُلْبِدِ

وأضاف محققه عن الحماسة، في حاشيته :

تـراه خَـمِـيصَ الـبـطن والـزاد حـاضرٌ
عَـتـيدٌ ويـغدو في الـقـمـيص الـمُقَدّدِ
وإن مَـسّـه الإقـواءُ والـجَـهـدُ زادَه
سَـمـاحاً وإتلافاً لِـمَا كـان في الـيدِ(١)

= يعدون أمام الخيل. الباتك : القاطع. وانظر، ص ص ٩٩ ـ ١٠١ . وانظر، مدح عروة بن الورد، مالك بن حمار الفزاري، ديوان عروة، ص ص ٢٨ ـ ٢٩ . وتأمل قصيدة تأبط شراً، ديوانه، ص ص ١٦٧ ـ ١٧٢، خرج للغزو، وهجا، ومدح.

(١) الأخفش الأصغر، كتاب الاختيارين، ص ص ٤١٢–٤١٣، وانظر: الحاشية ص٤١٣، الأصمعي؛ الأصمعيات، ص١٠٨ . البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. تناوحت: تقابلت. العضاه: =

على أنه سواء كان ذلك هو عبدالله، أو دريداً نفسه، فإن الهدف من الغزو – خارج دائرة الحروب القبلية المعلّنة – هو الكسب، يقول دريد نفسه، في خطاب مألوف :

ذريني أُطَوِّف في البلاد لعلّني
ألاقي بإيرٍ ثُلَّةً من محارب[1]

فهو يطوف في البلاد، والطواف هو حركة أولئك الغُزاة، طلباً للمغنم. ومن المصادفات أن يكون طرفة بن العبد طوّافاً كغيره، حيث يقول ضمن ذلك الخطاب المعهود أيضاً :

تُعَيِّرُني طَوْفَ البلاد ورِحلتي
ألا رُبَّ دارٍ لي سوى حُرٌّ دارك[2]

وفي مثل ذلك يقول المتنخل الهذلي، في ابنه أثيلة :

السالكُ الثُّغرةِ اليقظانَ كالئُها
مَشْيَ الهَلوك عليها الخَيْعَلُ الفُضُل[3]

وكما كان الغزاة "الصعاليك" يغزون حتى تهامة، وفي جبال السَّراة بكتيبة، كما قال أبو المثلّم مادحاً :

= كل شجر يعظُم له شوك. الصريع: ما القته الريح. المعضد: المقطع. الصرة: الشدة. ذَرِّي عضب: وشي السيف وفرنده. كميش: مشمر. العزاء: الشدة. ربيئة: طليعة. المشيح: المحاذر. المحقوقف: المحدودب. الملبد: الذي يضرب بذنبه خلفه حتى يتلبّد. المقدد: الممزّق. الإقواء: الجُهد.

(١) أبو عبيدالله بن عبدالعزيز البكري، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)، "إير". إير: اسم موضع.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال (دمشق: مطبع مجمع اللغة العربية ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ص٨٧ . حر دارك: وسطها وأكرمها.

(٣) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢ ، ص ٦٦١ . الثغرة: الموضع يخاف من العدو. الكالئ: الحافظ. الهلوك (من النساء): التي تتبختر في مشيتها وتتكسر. الخيعل: ثوب يُخاط أحدُ شِقّيه ويُترك الآخر. الفُضُل: التي تلبس ثوباً واحداً.

بِمُنْسَرٍ مَصِعٍ يَهْدي أوائلَه

حامي الحقيقة لا وانٍ ولا وَكِل(١)

كانوا يغزون أيضاً رجَّالة، ليس في تهامة وجبال السَّراة وحدها، بل في نجد وصحاراها وهضابها ووديانها، يقول ابن غلفاء، جاعلاً أصحابه كالذئاب، وهو وصف الصعاليك، ورئيسهم قليل الكسب عليهم، إلا أنه يختلس شيئاً ويختلسون:

سوى آثارِ عَرْجَلَةٍ حُفاةٍ

خِفافِ الوَطْءِ ليس لهم نِعالُ

قليلٌ فضلُ كاسبِهم عليهم

سوى ما نال في دَهَشٍ ونالوا(٢)

وبعد، فهاهم يقولون عن تأبط شراً:

"غزا تأبط شراً بني نُفاثة بن الديل... وهم خلوف"(٣):

يقول ربيعة بن مقروم، ولم يُوصَف بأنه صعلوك، وما يقوله حالة غزو، أو حسبما نصنّفه "صعلكة"، وقد قارب الماء، ليسطو ليلاً:

ومَرْبَأةٍ أوْفَيتُ جُنْحَ أَصِيلةٍ

عليها كما أوفى القُطاميّ مَرْقَبا

رَبِيئةَ جيش أو رَبِيئةَ مِقْنَبٍ

إذا لم يَقُد وَغْلٌ من القوم مِقنبا

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ١، ص ٢٧٤. منسر: كتيبة من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين. مصع: شد القتال. وان: ضعيف. وكل: ضعيف.

(٢) أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ديوان المعاني (الهند ـ حيدرآباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م)، ج ١، ص ١٩٣. عرجلة: جماعة مشاة. ولذلك قيل عنهم: " هؤلاء رجالة، لصوص " .

(٣) ديوان تأبط شراً، ص ٣٢٠.

فلما انجلى عني الظلام دفعتها

يُشَبِّهها الرائي سَراحين لُغَّبا

إذا ما علت حَزْناً بَرت صَهَواته

وإن أسهلت أذرت غباراً مُطَنَّبا

فما انصرفت حتى أفاءت رماحُهم

لأعدائهم في الحرب سُمّاً مُقَشَّبا(١)

وها هو أعشى باهلة يصف أخاه المنتشر، المدرج ضمن الصعاليك:

طاوي المصير على العَزّاء مُنْصَلِتٌ

بالقوم ليلةَ لا ماءٌ ولا شجرُ

مُهَفْهَفٌ أَهْضَمُ الكَشْحَين مُنخرِقٌ

عنه القميص لِسَيْر الليل محتقِرُ

لا يُصعِب الأمرَ إلا رَيْثَ يَرْكَبُه

وكلَّ أمرٍ سوى الفحشاء يأتمرُ

لا يأمَنُ الناسُ مُمساهُ ومُصبَحَه

من كل فجٍّ إذا لم يَغزُ يُنتظرُ

تكفيه حُزَّة فِلْذٍ إن أَلَمَّ بها

من الشِّواء ويُروي شُربه الغُمَرُ(٢)

---

(١) المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م)، ص ٣٧٧. المرباة: الجبل يصعد عليه الربيئة، وهو الطليعة. أوفيت: علوت وأشرفت. الأصيلة: العشية. جنح: الميل نحو الغروب. القطامي: الصقر. المرقب: الموضع الذي يرقب عليه. المقنب: أقل من الجيش. الوغل: الذي لا خير فيه، ولا دفع عنده. السراحين: الذئاب. اللغب: المتعبة. الحزن: الغليظ من الأرض. الصهوات: جمع صهوة، وهو أعلى المتن. برت: أي بحوافرها. أسهلت: صارت في السهل. أذرت: أثارت. مطنب: كأن للغبار أطناباً، وهي حبال الخيمة. أفاءت: ردت وأرجعت. المقشب: المخلوط.

(٢) الأصمعي، الأصمعيات، ص ص ٩٠ - ٩١. طاوي المصير: ضامر من الجوع. العزاء: الشدة=

إلى آخر القصيدة في هذا الجو.

ولقد جاءت تائية الشنفرى، لتفسِّر الصعلكة من كل جوانبها ، تجمّعاً، وقيادةً، وانقضاضاً على الأعداء؛ يقول:

وباضعةٍ حُمرِ القِسيّ بعثتُها
ومَنْ يغزُ يَغنَم مرةً ويُشَمَّتِ
خرجنا من الوادي الذي بين مِشْعَلٍ
وبين الجبا هيهات أنشأت سربتي
أُمَشّي على الأرض التي لن تَضُرَّني
لأَنكِيَ قوماً أو أُصادفَ حُمّتي
أُمَشّي على أَيْنِ الغُزاةِ وبُعدِها
يقرِّبني منها رواحي وغُدوتي

وهنا قطع طريق على القوافل الوافدة من اليمن عبر تهامة، يعترضونها انطلاقاً من نواحي "اللّيث" – "يلملم" ، جنوب مكة، وهنا سطو ونهب، وكل ذلك في نظره "يغزو" و"غزوتي"، وأصحابه "غزاة" ، يذهبون بعيداً، ويترصدون. وكل ذلك بعيداً عن ديار فَهْم، التي هم بها وإليها ينتمون؛ إذ أصبح الشنفرى أحد فَهْم بعد التجائه إليهم، وهم أخواله، وهو هنا قائد "سربة" ، أي: مجموعة وليس فرداً، ثم يقول:

وأُمِّ عيالٍ قد شهدتُ تَقوتُهم
إذا أطعَمَتْهم أَوْتَحَتْ وأَقَلَّتِ
تخاف علينا العَيْلَ إنْ هي أكثرتْ
ونحن جياعٌ أيَّ آلٍ تأَلَّتِ

= والجهد. منصلت: مندفع ماضٍ. مهفهف: ضامر الخصر. الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف. الهضم: لطف الجنين. أصعب الأمر: وافقه صعباً. ريث: قدر. الحزة: القطعة من اللحم. الفلذ: كبد البعير. الغمر: الغَرفة، والقليل من الماء.

وما إنْ بها ضَنٌّ بما في وعائها
ولكنّها مِنْ خيفةِ الجوع أبْقَتِ
مصعلِكَةٍ لا يُقصَرُ السِّتْرُ دونها لها
ولا تُرتجى للبَيت إن لم تُبَيِّتِ
لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً
إذا آنست أُولى العَدِيِّ اقشعرَّتِ
وتأتي العَدِيَّ بارزاً نصفُ ساقها
تجول كعَيْرِ العانةِ المتفلِّتِ
إذا فَزِعوا طارت بأبيضَ صارمٍ
ورامت بما في جَفْرِها ثمَّ سَلَّتِ
حُسامٍ كلون المِلْح صافٍ حديدُه
جُرازٍ كأقطاعِ الغديرِ المُنَعَّتِ
تراها كأذناب الحَسِيلِ صوادراً
وقد نهَلَتْ مِنَ الدماءِ وَعلّتِ(١)

وهو هنا تابع لقائد في وسط مجموعة أيضاً، وهذه غزوة بعيدة، والصعلكة تعني التخفّف من الملابس، ولا تعني الفقر، وهنا تصوير لمعركة مع الأعداء، وهم من غير فهم ، قوم تأبط شراً، القائد، وهذه المجموعة مجموعة مسلحة بعتاد خفيف

(١) التبريزي، شرح المفضليات، ص ص ٣٨٩-٣٩٣. باضعة: القطعة من الخيل تغزو. بعثتها: هيجتها. أنشأت سربتي: أطلعت أصحابي. حمتي: ميتي. أُمَشّي: أمْشي. الأين: المشقة. أم عيال: يريد الشنفرى . أوتح: قتّرت وقلّلت من إعطاء الزاد. العيل: الفقر. الأل: التدبير. تالت: دبَّرت. الوفضة: الجعبة. السيحف: السهم العريض النَّصْل. آست: أحست وأبصرت. العدي: الرَّجّالة الذين يَعْدون أمام الخيل. اقشعرت: تهيأ للقتال. العانة: الإناث من الحمر الوحشية. طارت: وثبت. الأبيض: السيف. الصارم: القاطع. الحسام: السيف. جراز: قاطع. أقطاع الغدير: القطع من ماء الغدير يضربها الهواء، فتتكسّر وتبرق. المنعت: الممدّح البالغ الجودة. الحسيل: البقر. نهلت وعلت: شربت.

مناسب لطبيعة الحركة في السراة، كما يتناسب هذا مع طبيعة القتال في هذه المنطقة، وطريقة الغزو هو: التبييت؛ أي: التسلل والغارة ليلاً. ثم هم على استعداد للهجوم والقتال، وهنا تصوير لمعركة قتالية دموية، في مواجهة حامية الوطيس مع مجموعة يتقدمها الرجّالة، ثم يعقبهم الفرسان على ظهور الخيل. وبعد ذلك هناك عودة إلى البيت، إلى أهليهم ومنازلهم. إذن، فما يقوم به تأبط شراً هو: غزو. وتأبط شراً نفسه يقول:

فيوماً بغُزَّاءٍ ويوماً بـ(سُرْيَةٍ)

ويوماً بخَشْخَاشٍ مِنَ الرَّجْلِ هَيْضَلِ(١)

فهو لا يقتصر على العمل وحده، أو مع مجموعة صغيرة من أصحابه، بل يستعد لذلك استعدادا بجماعة فيها عدد وعدة "سربة" يؤكد هذا :

"أنه خرج غازياً والشنفرى في ثلاثين رجلاً من فهم غازين حتى وردوا بلاد بني أسد.. قال الشنفرى:

خرجنا من الوادي الذي بين مِشْعَلٍ

وبين الجَبَا هيهاتَ أنشأتُ سُرْبَتي(٢)

فهو: يغزو، وهم غزاة، خرجوا مجموعة من قبيلة "فهم"، متَّجهين إلى قبيلة أخرى، وسيعودون إلى قبيلتهم مرة أخرى. إذن، فكل صعلوك يغزو، إنهم مجموعة صغيرة، تغزو، دون إعلان حرب وظهور، وتعود بالغنائم.

وتأبط شراً نفسه يمارس كل سلوكيات الغزاة؛ فقد:

"خرج غازياً في نفرٍ من قومه، إذ عرض لهم بيت من هذيل... فقتلوا شيخاً

---

(١) شرح ديوانه، ص ١٧٧. غزاء: جمع غازٍ. الخشخاش: الخفيف الروح الذكي الجريء. الرَّجل: الذين لا يركبون، بل يسيرون على أقدامهم. هيضل: جماعة متسلحة. "سرية" تصحيف صوابها "سربة"، وهو ما يتناسب مع التقسيم "غُزّاء / رَجْل"، ولا يعني سير الليل.

(٢) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالحميد قطامش (القاهرة: مطبعة المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ج١، ص ص ١٦٨-١٦٩.

وعجوزاً، وحازوا جاريتين وإبلاً"(١).

وإذا كان التركيز على لفظة "مصعلكة"، فإن رواية أخرى في المفضليات، تقول بدلاً منها: "عفاهية"(٢).

وهو المعنى نفسه فيما مر من قول دريد بن الصمة: "كميش الإزار". وهو المعنى نفسه في قول لبيد، في فارس قرزل، أبي عامر، طفيل بن مالك:

كَمِيشُ الإزارِ يَكْحَلُ العينَ إثمداً
سُراه ويُضحي مُسفراً غيرَ واجمِ(٣)

وقال مالك بن حَرِيم الهمداني:

وأَغَرُّ مُنخرِقِ القميص سَمَيْدَعٍ
يدعو ليغزوَ ظالماً فيُجابُ
متعممٌ بالشرِّ مؤتَزِرٌ به
ضَرِمُ الشّذاة قُضاقضٌ قَصّابُ
قد مدَّ أرسانَ الجياد مِنَ الوَجى
فكأنما أرسانُها أطنابُ(٤)

(١) محمد بن حبيب، أسماء المغتالين، ضمن كتاب نوادر المخطوطات، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)، ج٢، ص٢١٥-١٢٦.
السربة: جماعة الخيل من ٢٠-٣٠. قال ابن ترنا، السكري، شرح أشعار الهذليين ج٢، ص ٥٧٤:

بنفسي واحداً يوماً ويوماً ... بسربة معشرٍ مثلِ السَّعالي

وقال عروة، ديوانه، ص ٧٠:

فإني لمُستافُ البلاد بسربةٍ ... فمبلغ نفسي عذرها أو مطوّفُ

المستاف: السالك بُعد الأرض.

(٢) الضبي، المفضليات. ص ١١١.

(٣) ديوانه، ص٢٩٦. الإثمد: الكحل. واجم: اشتد حزنه، وأسكته الهم، وعلته الكآبة والعبوس.
قوله: يكحل العين إثمداً: يقال للرجل يسهر ليله سارياً؛ جعل سواد الليل كالإثمد لعينه؛ لأنه يسير الليل كله في طلب المعالي.

(٤) أبو تمام، الوحشيات، ص ٢٥٤. السميدع: السيد الكريم، المستوي الجسم، المعطاء، المواطأ:=

وهذا القائد يدعو قومه للغزو، لينهب ويسلب، وهو "منخرق القميص"، وهي صفة أخرى تستوفي بقية صفات القائد الملازم للغزو، أو إن شئنا: الصعلكة.

وعلينا أن ننظر في قول أخت عمرو، ذي الكلب، فيه:

يا ليت عمراً وما ليتٌ بنافعة
لم يَغْزُ فَهْماً ولم يهبط بواديها
شَبّت هذيلٌ وفَهْمٌ بيننا إرَةً
ما إن تَبُوخُ وما يَرْتَدّ صاليها
وليلةٍ يَصْطلي بالفَرْث جازِرُها
يَخْتَصُّ بالنَّقَرَى المُثرين داعيها
لا يَنْبَح الكلبُ فيها غيرَ واحدة
من العِشاء ولا تسري أفاعيها
أطْعَمتَ فيها على جوعٍ ومَسْغَبة
شَحْمَ العِشار إذا ما قام باغيها(١)

فهنا "يغزو" (يتصعلك)، حسب الفهم الشائع، وهنا كل متطلبات السيادة: الشجاعة والبسالة، والتضحية في سبيل الآخرين من أجل إطعامهم.

كما قالت، تذكُره بما يذكُر كل أحد من الشعراء سادات أقوامهم وأشرافَهم، والزعماء فيهم:

= النواحي، الشجاع. ضرم: متّقد. الشّذاة: القطعة من الملح. قضاقض: يحطم كل شيء. الوجى: رقة الحافر.

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ٢ ص ٥٨٢. وانظر، ص ٥٨٣. إرة: نار. تبوخ: تسكن. الفرث: ما في الكرش. النقرى: أن يُدْعَو واحداً واحداً، من هنا وهاهنا، يَخُص ولا يَعُمّ. المثرون: أهل الثروة والغنى. غير واحدة: من شدة البرد لا ينبح إلا واحدة. لا تسري: لا تجيء ليلاً. المسغبة: الجوع. باغيها: الذي يبتغي القِرى. العشار: الإبل السِّمان.
وانظر نموذج الصعلكة، ج١، ص ص ٢٣٧-٢٤١.

وقد علم الضيف والمجتدون
إذا اغبَرّ أفقٌ وهبَّت شَمالا
وخَلّت عن اولادها المرضعات
ولم تَرعَينٌ لِمُزْن بِلالا
بأنك كنت الربيع المغيث
لمن يعتريك وكنت الثِّمالا
وخَرْقٍ تجاوزتَ مجهوله
بوَجناءَ حَرْفٍ تَشكّى الكَلالا
فكنتَ النهارَ به شمسَهُ
وكنتَ دُجى الليل فيه هلالا

وهذه المعاني التي ترددها، هي المعاني التي يرددها كل شاعر يستحضر القِيَم المثالية للفارس والقائد:

وخيل سَمَت لك فرسانُها
فولَّوْا ولم يَستَقِلّوا قِبالا
فحيّاً أبَحْتَ وحياً منعتَ
غداةَ اللقاءِ منايا عِجالا
وكلٌّ قَبيلٍ وإن لم تكن
أردتهمُ منك باتوا وِجالا[1]

وعمرو، ذو الكلب، نفسه هو القائل عن نفسه:

ومرقبةٍ يَحار الطَّرف فيها
تُنزِلّ الطيرَ مُشْرِفَةِ القَذال

---

(١) المصدر السابق، ص ص٥٨٥– ٥٨٦ . المجتدون: الطالبون للعطية. خلت: تخلت. المزن: السحاب الماطر. الثمال: المغيث. الخرق: المتسع في الفلاة. الوجناء: الناقة الغليظة. الكلال: الإعياء. وجالاً: متخوّفين.

... إلخ. حالة من حالات التسلل التي يمارسها هذا النوع من الغزاة (الصعاليك). وعمرو، ذو الكلب، هو القائل هنا أيضاً:

ألا قالت غُزيَّةُ إذ رأتْني
ألم تُقتَل بأرضِ بني هلالِ
أَسَرَّكِ لو قُتِلْتُ بأرضِ فَهْم
فهل لك لو قُتلتُ غُزيُّ مالِ
بُجَيْلَةُ دونها ورجالُ فهمٍ
وكلٌّ قد أناب إلى ابتهالِ

وبعد ذلك:

فأَبْرَحُ غازياً أهدي رَعيلاً
أؤمُّ سوادَ طَودٍ ذي نِجالِ
ويبرحُ واحدٌ واثنان صحبي
ويوماً في أضاميمِ الرجالِ
بفتيان عَمارطَ من هُذيلٍ
هم يَنفُون آناسَ الحِلالِ
وأبرحُ في طَوال الدهر حتى
أقيم نساء بَجْلَةَ بالنِّعالِ
بُجَيْلةُ ينذرون دمي وفهمٌ
فذلك حالُهم أبداً وحالي(١)

---

(١) المصدر السابق، ص ص٥٦٦-٥٧٢ . غزية : امرأة. أناب: رجع. ابتهال: اجتهاد من غير دعاء.
أبرح: يريد لا ابرح. الرعيل: الجماعة. أؤم: أقصد.
طود: جبل. النجال: الثنايا المتصلة بعضها ببعض.
أضاميم: جمع إضمامة، وهي الجماعة.
عمارط: صعاليك. ينفون: يطردون. =

وهاهم يقولون عنه:

"خرج عمرو، ذو الكلب، غازياً، فبينما هو في بعض غاراته.." (١).

وهذا هو جو الغزو الذي ذكره جرير:

والخيل تَنْحِطُ بالكُماةِ وقد رأوْا
لَمْعَ الرَّبيئة في النِّياف العَيْطَلِ(٢)

ولعل قصيدة تأبط شراً القافيّة وحدها تقلب كل المفاهيم رأساً على عَقِب، لو وضعناها في ضوء المنهج المطروق هنا، ووفق رؤية المواقع المنبثق من جو الممارسة والتطبيق، على أنها نموذج من نماذج شعر الفرسان، وحالة خاصة من حالات الغزو. فمما قال:

لكنما عَوَلي إن كنتُ ذا عَوَلٍ
على بصير بكسب الحمد سبّاقِ
سباقِ غاياتِ مجدٍ في عشيرته
مرجّعِ الصوت هَدّاً بين أرفاقِ
عاري الظَّنابيبِ ممتدٌّ نَواشرُه
مِدلاجِ أدهمَ واهي الماءِ غَسّاقِ
حمالِ ألويةٍ شَهّادِ أنديةٍ
قوالِ مُحكَمَةٍ جوّابِ آفاقِ

= آناس: جمع أَنَس، وهي الجماعة. الحلال: المَحَلّة فيها الناس.
أقيم نساء بجلة بالنعال: يضربن صدورهن على قتلاهن بالنعال.
بجيلة: تصغير بجلة، المذكورة بعد ذلك، من بني سليم.

(١) المصدر نفسه ص ٥٧٨. وانظر رد ابن ترنا عليه، بمثل فخره، المصدر نفسه، ص٥٧٣-٥٧٤.

(٢) ديوانه، ج٢، ص٩٤٢.
تنحط: تزفر.
النياف العيطل: الطويلة المشرفة.

فـذاك هـمي وغـزوي أسـتـغـيثُ بـه

إذا استغثتُ بضافي الرأس نَغّاق(١)

أبيات تختصر كل مقولة في شعر الصعاليك (الغزاة – الفرسان)!

لم يكن الشاعر الهذلي يفرِّق بين أنواع الغزو، فما نسمّيه صعلكة هو حرب، مهما كانت، يقول حذيفة بن أنس الهذلي في تبييت قوم من هذيل خطأً، بدلاً من كنانة "بكر":

غَـلَت حربُ بكـر واسـتـطـار أديمـهـا

ولـو أنـهـا إذ شُبّت الحـرب بَـرَّتِ(٢)

ثم يفتخر بقوله عن قومه:

بنـو الحـرب أرضـعـنـا بـهـا مُـقْـمـطرَّةً

فـمن يُـلقَ مـنـا يُـلقَ سِـيـد مـدرَّبُ(٣)

وما هذه الحروب إلا كالأيام عن القبائل الأخرى، يقول حذيفة في مثل ذلك:

كـشـفتُ غـطـاء الحـرب لمـا رأيـتـهـا

تـنوء على صِغوٍ من الرأس أصـعَرا(٤)

---

(١) الضبي، المفضليات، ص٢٩ . العول: من العويل، وهو رفع الصوت بالبكاء والاستغاثة. مرجّع الصوت: يصيح آمراً ناهياً. هدّاً: رافعاً صوته. الأرفاق: الرفقة. الظنابيب: جمع ظنبوب، وهو حرف عظم الساق. النواشر: عروق ظاهر الذراع. مدلاج: كثير السفر ليلاً. الأدهم: الليل. واهي الماء: المطر الشديد، سحابه لا يمسك الماء. الغساق: الشديد الظلمة. المحكمة: الكلمة الفاصلة. جوّاب آفاق: صاحب أسفار وغزو. غزوي: قصدي. ضافي الرأس: كثير الشعر. نغاق: نعاق.

وقد وقع التل، المجتمع العشائري، ص٣٦٤، في اضطراب في التمييز بين الممارسات.

(٢) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص ٥٤٩ . غلت: ارتفعت. استطار: تشقّق. أديمها: جلدها.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٦١ . المقمطرة: الكالحة الشنيعة. السِّيد: الأسد في لغة هذيل.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٥ . تنوء: تنهض. الصغو: المَيل. الأصعر: الذي فيه مَيْل.

الفصل الثاني

الصعاليك رؤساء وسادة

متطلبات الرئاسة والسيادة:

الكرم:

وضح لنا استخدام عروة وحاتم لمفهوم الصعلوك الأول، وهو الرجل الاتكالي المتطفل، ولكن الاثنين استخدما أيضاً صفة الصعلوك لإطلاقه على أمثالهما.

وسنرى الاثنين يكونان تارة أغنياء، وتارة فقراء، ولم تعْنِ الصعلكة عندهما إلا كونها سبيلاً من سبل تحقيق السيادة. وزعامة عروة ملحوظة فيما رُوي عنه: "كان عروة إذا أصاب الناسَ شدةٌ، وتركوا في دارهم المريض والكبير، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته، ويكنف عليه الكنف، ويكسوهم، ومن قوِيَ منهم، إما مريض، فيبرأ من مرضه، أو ضعيف، تثوب قوته"(١).

وهذه من خصائص السيادة والزعامة، فعروة عندما يصف نفسه بالصعلوك، لا يعني به أنه على شاكلة أولئك الفقراء، وإنما يعني به الثراء، لتحقيق أهداف اجتماعية نبيلة، طريقها في المجتمع الجاهلي هو القوة، وإن الفارق بين الفقر مطلقاً عند غيره، والفقر النسبي عنده، هو أنه هو الذي يهلك المال بسرعة، ولهذا ثار النزاع بينه وبين زوجه، فهذا ليس فقراً.

أما حاتم، فمكانته الاجتماعية، بصفته سيداً ورئيساً في القبيلة، معروفة وكان لزاماً عليه للقيام بمهمات السيادة والرئاسة، أن يمارس الغزو.

ومن هنا، فالسعي وراء اكتساب المال (الغنى) يحقق لعروة هدفين رئيسين:

الأول: خاص، يوفر فيه الرخاء لأهله.

الثاني: عام، يستجيب فيه لحاجات الجماعة من حوله، وهو ما حدده حين قال، واللافت هنا أنه يخاطب زوجته:

---

(١) ديوان عروة، ص ٧.

سلي الطارقَ المُعْتَرَّ يا أمَّ مالكٍ
إذا ما أتاني بين قِدري ومَجزَري
أيُسْفِر وجهي إنه أوّلُ القِرى
وأبْذُلُ معروفي له دون مُنكَري(١)

فهو على استعداد لاستقبال الضيوف أيّاً كانوا، ومن أين أتوا، يُطعمهم ذلك الطعام الوفير: "بين قدري ومجزري"، وهذا غير الصعلوك "الفقير" في الحيّ الذي يتكفّلون به تلقائياً. وهذا أشد وضوحاً في قوله :

إذا قلت قد جاء الغنى حال دونه
أبو صِبيةٍ يشكو المفاقر أعجَفُ
له خَلّةٌ لا يَدخل الحَقُّ دونها
كريمٌ أصابته خُطوبٌ تُجَرِّفُ(٢)

ولعل من اللافت للنظر أن الأعلم، المعدود في الصعاليك، يتحدث عن مركزه الاجتماعي على أنه سيّد، مثله مثل عروة وحاتم، فيقول :

فإن السيّدَ المعلومَ فينا
يجود بما يَضَنُّ به البخيلُ
وإن سيادة الأقوام فاعلم
لها صُعَداءُ مطلعها طويلُ(٣)

---

(١) ديوانه، ص ٥٧ . والحال واحدة، سواء أكانت هذه الأبيات لعروة أم للعجير، كما مر سابقاً: "ومن الناس من يروي هذه الأبيات لعروة، وهي للعجير" . الطارق: الآتي ليلاً. المعتر: الآتي للمعروف من غير أن يَسأل.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٠ . المفاقر: الفقر، الخلة: الحاجة، تجرف: تجرف ماله، اي عنده من الفقر وسوء الحال ما لا يقدر أن يدخل عليه في الصلة عندنا من كان له حق، حتى أحمل على نفسي، ولا أنقص من حقه لخلته وفقره.

(٣) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ٣٢٣ . الضّن: البخل. صعداء: ارتفاع. مطلعها: ارتقاؤها. طويل: شاقّ.

وهذا أبو ذؤيب، كان رئيساً "صعلوكاً" : رئيس / إمام، يقول مفتخراً بكرمه على قومه:

لِحَيٍّ جِياعٍ أو لِضيفٍ مُحَوَّلٍ
أُبادِرُ حمداً أن يُلَجّ به قبلي(١)

ويستخدم ربيعة بن الجحدر اللحياني الفكرة نفسها، فيقول:

وحَيٍّ جياعٍ قد ملأت بطونهم
وأنطقت بعد الصَّمت من هو ناكس(٢)

الغنى:

إن الغني قد يجد نفسه ذات يوم فقيراً، فها هو عروة بن الورد يقول :

دعيني للغِنى أسعى فإني
رأيت الناس شرَّهم الفقيرُ
وأبعدَهم وأهونَهم عليهم
وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ
ويُقصِيه النَّدِيُّ وتَزْدَريه
حَليلتُه ويَنْهَره الصغيرُ
ويُلفى ذو الغنى وله جَلالٌ
يكاد فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبُه والذنبُ جَمٌّ
ولكن للغنى ربٌّ غفورُ(٣)

وبغض النظر عن الشك في صدر عجز البيت الأخير شكاً يثيره قوله: "للغنى

(١) المصدر السابق، ص٩٣ . وانظر، ص ص ٧٨-٨٠ . يلج: يؤخذ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤٦ . ناكس: ناكس رأسه ذليلاً . انطقت: أي كان لا يفتخر، فافتخر.

(٣) ديوانه، ص ٥٨ . الخير: الشرف، حليلته: زوجته .

رب غفور" ، فإن الدافع وراءها هو توفير الغنى، أي: توفير فائض عن الحاجة؛ لأن ميزان الحياة الاقتصادية، فيما يخصه غير ثابت . على أن حاتماً الطائي يتفق مع عروة في تلك النظرة، فيقول:

متى يَرَ الناسُ الغنيَّ وجارُه
فقيرٌ يقولوا عاجز وجَليد

ثم يقول :

وكائِنْ رأينا من غنيٍّ مذمَّمٍ
وصعلوك قوم باد وهو حميد(١)

وعلى هذا النحو، قال أيضاً:

لبسنا صروف الدهر ليناً وغِلظةً
وكُلاًّ سقانا بكأسيهما الدهرُ
فما زادنا بأواً على ذي قرابةٍ
غِنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ(٢)

وقال كذلك:

وعِشتُ مع الأقوام بالفقر والغِنى
سقاني بكأسي ذاك كلتاهما دهري(٣)

فالفقر عامل مشترك بين أفراد المجتمع، وبخاصة في سنوات المجاعة، وهو إلى جانب ذلك، ظاهرة بارزة في المجتمع الجاهلي، ولهذا، تتعادل المعاني: (ليناً: غنىً) / (غلظة: فقر)، والبيت الأخير هو أكبر دليل على تأرجح ظاهرتي (الغنى / الفقر) بين الناس، وفي قول حاتم الأخير: "فما زادنا بأواً على ذي قرابة / غنانا"،

(١) ديوان شعره، ص ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٦ . البأو: الكبر والفخر.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٤ .

أي: توفير المال، وإشعار بالالتزام الأخلاقي تجاه الجماعة القبلية.

ويمكن للدارس أن يجد نماذج كثيرة في الشعر القديم تتحدث عن الفقر إلى جانب الغنى ، دون أن يطلق الناس على هذا أو ذاك لقب الصعلوك. وكثيراً ما تتحدث هذه النماذج عن بذل المال والسخاء به تحمُّلاً للمسؤولية، فمن هذه الأمثلة المتعددة قول جحدر بن ضبيعة، الشاعر البكري، الفارس المعروف:

أَقِلِّي عليَّ اللومَ ساحبةَ الذيلِ
فلا بد أن تستطرد الخيل بالخيلِ

إذا ما رأيتُ الفقر يزداد شدةً
رفضتُ الهُوَينا وادَّرعْتُ دُجى الليلِ

لأجمع مالاً أو تقومَ نوائحاً
عليَّ نساءُ الحي يصرخن بالويلِ

وإن أكُ متلافاً لِمَا كنت جامعاً
فلم أبْنِ بُنياناً بمنعرج السيلِ

ولكنني شَيّدتُه فوق هضْبةٍ
فلا فرعُه واهٍ ولا الأُسّ ذو ميْلِ(١)

فهو أحياناً فقير، وغني أحياناً أخرى، ولكن هذا الغنى لن يؤدي إلى تكديس الثروة، أو إلى استثمارها، ثم مشاركة الآخرين في بعضها، على غرار المثمرين والميسورين السابق ذكرهم، وهو يعني بهم آخرين من غير قومه، بل إلى تبديدها (متلافاً)؛ لأنه يريد أن يشيد بنياناً فوق هضبة، كنايةً عن المجد وتخليد الذكر، مع ملاحظة التركيز على الغنى عند جميع هؤلاء الشعراء، والاستمرار في وسط

---

(١) أبو محمد، عبدالله بن محمد الزوزني، حماسة الظرفاء، تحقيق: محمد جبار المعيبد (بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧٣م)، ص ٢٢. الهوينا: الدَّعة. ادرعت: لبست. منعرج السيل: أي منعطف الوادي يمنة ويسرة. الأس: الأصل.

الجماعة، وليس خارجها، وفي بحبوة من العيش، الأمر الذي يعني أن الصعلكة وسيلة حياة، وليست تفكيراً منظماً.

كان السعي وراء اكتساب المال غايةً، وكان الحصول عليه وسيلة، ولم تكن الفكرة مجردة، أو أثيرية، فكذلك يقول عروة :

وقلت لقوم في الكَنيف تَرَوَّحوا

عشية بتنا دون ماوانَ رُزّحِ

تنالوا الغِنى أو تبلُغوا بنفوسكم

إلى مستراحٍ من حِمامٍ مبرِّحِ

ومن يك مثلي ... (١).

فهؤلاء جميعاً لم يخرجوا وهم بعيدون عن مجتمعهم، بل خروجاً من أجل ذواتهم أولاً، وكان كل واحد منهم يحلم بـ(الغنى)، فكذلك هو شأنهم جميعاً، ومن بينهم قائدهم عروة؛ إننا إذ نسمع من عروة كلاماً مثالياً، ونسمع من خصومه كلاماً مناقضاً له يتهمه بغير ذلك، نجد في شعر عروة أيضاً ما يؤكد وجهة نظر الآخرين فيه، فهو القائل :

تَدَارَكَ عُوذاً بعدما ساء ظنُّها

بماوانَ عرق من أسامة أزهر

وقد عيَّروني المال حين جمعتُه

وقد عيَّروني الفقرَ إذ أنا مُقْتِرُ(٢)

إنه هنا يحقق تلك التهمة؛ فهو من جانب، يجمع المال (الإبل)، كما يجمعه الآخرون، وجمعه له ليس جمع السَّخِيّ، بل جمع مَن ذاق مرارة الفقر، فهو يخشاه، فيحرص كل الحرص على ألا يعود إليه، وهو من جانب آخر، يضع

(١) ياقوت، معجم البلدان، " ماوان ". ماوان : اسم موضع. الكنيف : المأوى والمخبأ.

(٢) ديوانه، ص ٤٨ ٣.

مسؤوليته الأسرية في المقام الأول. على أن ذلك لن يُخِلَّ برغبته في الإسهام في رفع المعاناة والضُّرّ عن المعوزين، مع ملاحظة أن الذين عيَّروه هم عشيرته – فهو فيهم، ومنهم – عيَّروه جمع المال، وليس كيفية جمعه، كما عيَّروه الفقر؛ لأنه لم يسع للحصول على المال بالقوة، أي: يغزو، وهذه الفكرة، فكرة الغنى في مقابل الفقر، هي المحور الذي تدور عليه كل دوافع هؤلاء الغزاة، يقول جابر بن ثعلبة الطائي، ونَصَّ على أن الفقير هو الصعلوك، وهو يقوم بأعمال الصعلكة، مع أنه ليس معدوداً من الصعاليك:

وقام إليّ العاذلاتُ يلُمْنَني
يَقُلْن ألا تَنْفَكُّ تَرْحَلُ مَرْحَلا
فإن الفتى ذا الحزم رامٍ بنفسه
جواشنَ هذا الليل كي يَتموَّلا
ومن يفتقِرْ في قومِه يحمَدِ الغنى
وإن كان فيهم واسطَ العَمِّ مُخْوِلا
كأن الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى
ولم يكُ صعلوكاً إذا ما تموَّلا[1]

أليست هذه لغة عروة نفسه؟ وألم يكن جابر يعيش بين ظهراني قومه؟ وأليس "الفتى ذا الحزم رام بنفسه جواشِنَ هذا الليل كي يتموَّلا" تعني: الغزو خُفية، أو التسلل خُفية، أو التصعلك؟ وأليس الهدف من وراء كل هذه الأعمال هو الغنى، حتى لا يعرى، وحتى لا يعيش حال الفاقة والعَوَز (الفقر)؟

وماذا عن قول أبي النشناش؛ سواء أكان صعلوكاً، أم لصاً، أم غازياً، وفق موروثه الثقافي:

---

(١) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج١، ص ص ٣٠٤ - ٣٠٥. جواشن الليل: صدور الليل وأوائله.

ونـائـيـةِ الأرجـاء طـامِـسـةِ الـصُّـوى
خـدت بـأبي الـنـشـنـاش فـيـهـا ركـائـبُهْ
وسـائـلـةٍ بـالـغـيـب عـنـي وسـائلٍ
ومَنْ يـسـألُ الـصـعـلـوك أين مـذاهـبُهْ
فـلـم أر مـثل الـفـقـر ضـاجَـعه الـفتى
ولا كـسـوادِ الـلـيـل أخـفقَ طـالـبُهْ(١)

وأليست هذه هي الصورة العامة التي ينقلها كل من مارس هذه الممارسة ؟ وبماذا نصف بجيراً، أبا لجأ بن أوس بن حارثة بن لأم، ابن زعيم من زعماء طيِّئ، الذي تمتدحه قبيلته، كما ذكر هذا بشر بن أبي خازم، وهو يعرِّض بأبيه:

فـإنـكـم ومِـدحـتَـكـم بُـجـيـراً
أبـا لجـأ كـمـا امـتُـدِحَ الألاءُ

ثم يقول فيه:

كـذلك خِـلـتُـه إذ عَقّ أوسـاً
وأدركـه الـتـصـعـلُك والـذكـاءُ(٢)

أيكون هذا صعلوكاً فقيراً، لا مال له ولا اعتماد، كما شرح المحقق في حاشيته، مع أنه شرح "الذكاء: تمام السن وبلوغ النهاية في الشباب" ؟ أم يكون فارساً شجاعاً في قومه، يعتمد على نفسه، ويستقل بقدراته؟

وعلى هذا، فإن ما يمكن استخلاصه، هو أن نيل المال يتطلب الاتجاه نحو السلب والنهب، ومن هنا وجّه عروة إلى زوجه تقريعاً حاداً حين قال: "دعيني للغنى".

---

(١) المصدر السابق، ص ص ٣١٨-٣١٤ . طاسة: مجهولة. الصوى: العلامات في الطريق. خدت: سارت.

(٢) بشر بن أبي خازم الأسدي، ديوان بشر، تحقيق عزة حسن (دمشق: مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م) ص ص٣-٤ . الألاء: شجر الدِّفْلى، وهو حسن المنظر، مرّ الطعم. عقّ: من العُقوق، وهو النُّكران. الذكاء: تمام السن، وبلوغ النهاية في الشباب.

وهكذا قال الشنفرى:

وأُعــدِمِ أحــيــانــاً وأغْــنى وإنمــا

يــنــال الــفـتى ذو الـبِـعـدة المـتـبـذِّلُ

كما يقول:

فلا جَــزِعٌ من خَــلَّــة مــتــكــشِّفٌ

ولا مَــرِحٌ تحت الـغِــنى أتــخــيلُ(١)

وإذن، فقد أصبح الغنى يضادُّ الصعلكة؛ أي: الفقر. وهذا المعنى واضح من قول الأعشى في سياق مخاطبته شيبانَ بن شهاب الجحدري، كما مر معنا في رواية بيت حسان "على السماحة صعلوكاً وذا مال":

عـلى كلِّ أحـوال الـفـتى قـد شـربـتُـهـا

غـنـيـاً وصـعـلـوكـاً ومـا إن أقـاتُـهـا(٢)

ويمكن تلخيص حال هؤلاء جميعاً في قول رجل من غَنِيٍّ:

يُـدني الـفـتى لـلـغِـنى في الـراغـبين إذا

لـيـل الـتـمـام أهَـمَّ الُمـقـتِـرَ الـعَـزَبـا

حـتى يـصـادف مـالاً أو يـقـالَ فـتًى

لاقى التي تَـشْعبُ الفتيـانَ فانشعبا(٣)

والغنى، الكسب، مطلب هؤلاء، يقول الأعلم الهذلي، الصعلوك:

أحُــبــشـيّ إنـا قــد يمــتَّـعــنـا الــغــنى

بـأمـوالـنـا نُـريـحـهـا ونُـسـيـمـهـا(٤)

---

(١) شعره، ص ص ٨٢-٨٣ . أعدم: افتقر. أغنى: استغنى. ذو البعدة: ذو الحزم والرأي. المتبذِّل: الذي يجود بنفسه ولا يبالي بشيء. الخلة: الفقر، المتكشف: الذي يكشف فقره للناس. المتخيل: المختال بغناء.

(٢) ديوانه، ص ٨٥ . أقاتها: من القُوت، أي ليس عندي بقدر القوت.

(٣) الأصمعي، الأصمعيات، ص ٥٥.

(٤) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ٣٢٦. وانظر: ص ٣٧٦. نريحها: بالعشي إلى مباءتها. نسيمها: بالغداة إلى مراعيها. والمعنى: تغنينا أموالنا.

الفصل الثالث
الغزو خارج حدود القبيلة

يقول عروة:

ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه
كضَوْءِ شِهابِ القابس المتنوِّرِ
مُطِلاً على أعدائه يزجرونه
بساحتهم زَجْرَ المَنيح المشهَّرِ
إذا بَعِدُوا لا يأمنون اقترابَه
تَشوُّفَ أهلِ الغائب المتنظَّرِ
فذلك إن يَلْقَ المنيةَ يلْقَها
حميداً وإن يستغْنِ يوماً فأجدرِ(١)

ولكن هذا الغزو، كما هو واضح من مفردات الأبيات، غزو فرديّ، وليس غزواً جماعياً، تشارك فيه القبيلة.

ويقول حاتم:

ولله صعلوك يساور همَّه
ويمضي على الأحداث والدهر مُقدِما
فتى طلباتٍ لا يرى الخِمص تَرْحةً
ولا شَبعةً إن نالها عَدَّ مغنما
إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت
تيمَّم كبراهن ثُمَّتَ صمَّما
ترى رمحه ونبله ومجنه
وذا شطَبٍ عَضْبَ الضريبة مِخْذَما

---

(١) ديوانه، ص ص ٤٤-٤٥ مطلاً: مشرفاً، المنيح: قدح مستعار، سريع الخروج والفوز، ويستعار فيضرب. ثم يرد إلى صاحبه، والعارية تسمى المنحة.

وأحـنـاءَ سـرجٍ قـاتـرٍ ولجـامه
عتاد فتى هيجا وطِرْفاً مُسَوّما(١)

فما يقوم به الصعلوك الشجاع، ذو المسؤولية الجماعية، ليس هو غزو أبناء عشيرته، وأثريائها، وإنما هو يمارس الغزو خارج دائرة القبيلة؛ أي: إنه إنما يخرج للحصول على المال من خارج أحياء قومه، وهذا هو ما يتَّسق مع ما هو معروف من أن أحياء القبيلة الواحدة عادة ما كان يغزو بعضُها بعضاً، إلا في حالات استثنائية، وتحت ظروف غير طبيعية.

وفي وصف دقيق لهذا المنحى في اتجاه نموذج ذلك الصعلوك الثاني، يقول عروة، موضّحاً كيف يذهب يمنةً ويسرةً، بحثاً عن المال، بعيداً عن مواطن القبيلة:

سَتفزِع بعد اليأس من لا يخافنا
• كَواسعُ في أخرى السَّوام المُنَفَّر
يُطاعن عنها أولَ القوم بالقنا
وبِيضٍ خِفافٍ ذاتِ لونٍ مشهَّرِ
فيوماً على نجدٍ وغارات أهلها
ويوماً بأرضٍ ذاتِ شَثٍّ وعَرْعَرِ
يُناقلن بالشُّمْط الكرام أُولي القُوى
نِقابَ الحجاز في السَّرِيحِ المُسَيَّرِ(٢)

---

(١) ديوانه، ص ص ٢٤٠-٢٤٢. الهم: العزم. الخمص: الجوع. ترحة: حزناً. المجن: الدرع: ذو شطب: السيف. العضب: القاطع. الضريبة: موضع الضرب. المخذم: القاطع. الأحناء: جمع حنو، يعني قربوس الفرس وآخرته. قاتر: الذي يترك على ظهر الدابة آثاراً. الطرف: الفرس. المسوم: الكريم من البخيل.

(٢) ديوانه: ص ص٤٥-٤٦. الكواسع: خيل تطرد إبلاً تكسعها في أثرها. السوام: الإبل. شث وعرعر: نوعان من الشجر. يناقلن المناقلة اتقاء النقل، والنقل حجارة صغار تكون في هذه النقاب، والنقاب: الطرق في الجبال والأشراف، السريح: جمع سريحة، وهي كل قِدّة قُدَّت سيراً يشد بها النعال، المسير: الذي جعل سيراً.

وهذا المعنى نفسه نجده في قوله:

قلت لقومٍ في الكَنِيف تروَّحوا
عشية بتنا عند ماوانُ رزَّحِ(١)

ولا شك أن هؤلاء يستخدمون الخيل "كواسع"، إذا أرادوا غزو المناطق الجبلية، وكانوا يستخدمون الإبل لغزو المناطق الرملية، أو الإبل مصحوبة بالخيل، كما هي العادة، في شن الحروب، يقول:

لعلَّ انطلاقي في البلاد وبُغيتي
وشَدِّي حَيازِيم المطيَّةِ بالرَّحْلِ(٢)

وإن كانوا أيضاً ينقسمون فرساناً ورجّالةً، كما في قوله:

قليلٌ تواليها وطالبِ وِتْرِها
إذا صُحْتُ فيها بالفوارس والرَّجْلِ(٣)

هذا – إذن – هو معنى قول الحطيئة: "كنا نأتَمُّ بشعر عروة"(٤).

صعلكة حاتم الطائي:

وردت لنا فيما مضى إشارات عابرة عن الصعلوك الشجاع والصعلوك الخامل على غرار ما فعل عروة بن الورد.

وعلى الرغم من أن الدراسات الحديثة تستشهد كثيراً بقوله في نموذجَي الصعاليك: الفاتك والخامل، فإن حاتماً نفسه في حقيقته صعلوك رئيس، تصرَّف

(١) المصدر السابق، ص ٢١. تروحوا: ساروا بالرواح، أي: العشي. ماوان: واد. رزح: سقطن من الإعياء، وهو صفة للقوم، المستراح: الاستراحة. الحمام المبرح: الموت الشديد.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٤. الحيازيم: جمع حيزوم وهو وسط الصدر، وما يُضَمّ عليه الحزام.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٤. قليل تواليها: إشارة إلى قلة من يتلو الهجمة (وهي القطعة في الإبل، من الخمسين إلى الستين، المذكورة في بيت سابق)، لينقذها؛ لأننا نطردها، ونسبق بها الناس. الرجل: الغزاة رجّالة على أقدامهم.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩.

تصرُّف الصعاليك، وسار مسيرتَهم؛ يتبين هذا في المواقف الآتية:

١- صعود المراقب:

يقول حاتم:

ومَرْقبةٍ دون السماء علوتُها
أُقلِّبُ طَرفي في فضاءٍ سَباسِبِ

ثم يقول:

ولو شَهِدتْنا بالمِزاج لأيقنتْ
على ضُرِّنا أنَّا كرامُ الضرائبِ
عشيةَ قال ابنُ الذَّميمة عارقٌ
إخالُ رئيسَ القومِ ليس بآيبِ(١)

فالصورة كالآتي: رئيس القوم يعتلي نهاراً، مرتَفعاً شاهقاً بين جبال تخفيه، ويراقب من فوقه، وأصحابه ينظرون إليه من أسفل الجبل.

ويقول كذلك:

ومرقبةٍ دون السماء طِمِرَّةٍ
سَبقتُ طلوعَ الشمس منها بَمْرصَدِ
وسادي بها جَفْنُ السلاح وتارةً
على عُدَواء الجَنْب غير مُوَسَّدِ(٢)

وفي الحالة نفسها، يأتي قبل طلوع الشمس، فيرتقي قبل انجلاء الظلام قمة، ويراقب فيها، إنها حالة من يغزو للمغنم (الإبل)، ومن يترصد الأعداء، وكما هو معلوم، فحاتم كان يغزو جهات (المزاج): شمال شرق حائل، حيث بكر وتميم.

(١) شعره، ص ٢٠٤. السباسب: المفاوز. الضرائب: جمع ضريبة، وهي الخليقة والطبيعة والسجية. ضرنا: ما لاقينا من عناء.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٧. طمرة: مرتفعة شاهقة. الجفن: الغمد. السلاح: السيف. عدواء الجنب: غيرَ طُمَأنينة.

٢- سُرى الليالي

والصعاليك لا يفترون عن البحث عما يريدون أخذه، فهم يتجولون في جوف الصحراء، وبين الجبال وفي شعاب الأودية، سارين ليلاً، متخفين نهاراً، فإما الظفر، وإما الهلاك؛ يقول حاتم:

وفتيانِ صِدْقٍ لا ضغائنَ بينهم
إذا أَرْمَلوا لم يُولَعوا بالتلاومِ
سَرَيْتُ بهم حتى تَكَلَّ مَطِيُّهم
وحتى تراهم فوق أغبَرَ طاسمِ
وإني أَذِينٌ أن يقول مُزايلٌ
بأيٍّ تقول القومَ أصحابَ حاتمِ
فإما تُصيبُ النفسُ أكبرَ هَمِّها
وإما أُبَشِّرْكُم بأَشْعَثَ غانمِ(١)

وليست هذه أبيات في غزوة، بما هو معروف، باليوم، وإنما هي غزوة نهب وسلب، فالفتيان كالفتيان في قول الشنفرى:

وأمُّ عيالٍ قد شهدتُ تقوتُهم
إذا أطعمتهم أوتَحَتْ وأقَلَّتِ

ثم قوله فيه أيضاً:

مصعلِكةٌ لا يقصُرُ الستر دونها
ولا تُرتجَى للبيتِ إن لم تُبيِّتِ(٢)

---

(١) المصدر السابق، ص ص ٢٢١-٢٢٢. الضغائن: الأحقاد. أرمَلوا: نفد زادهم. أغبر: طريق. طاسم: دارس لا علم به. أذين: كفيل. مزايل: مفارق (أو اسم رجل). تقول: هنا بمعنى يظن، تنصب مفعولين.

(٢) التبريزي، شرح المفضليات، ج١، ص ٣٩٠. مصعلكة: بكسر اللام صاحبة صعاليك، وبفتحها نحيفة كالصعلوك الفقير.

والعيال، هؤلاء هم الصعاليك الذين خرجوا للغزو بصحبة تأبط شراً، خرجوا مُرْمِلين، زادُهم شحيح، ليعودوا فيما يأملون - إلى أهليهم - بالكسب والغنيمة. وحاتم هناك يقوم بدور تأبط شراً "أم عيال"، وهو وهم فقراء جميعا "إذا أرملوا ..." وهدف المجموعتين واحد: إنه الكسب "غانم"، و"تبيَّت".

أخذ الإبل:

وهنا نصل إلى ذلك الهدف الرئيس من الصعلكة عموماً، وهي الاستيلاء على موارد الآخرين من الإبل، يقول حاتم:

وأشعثَ مِعزالٍ يُسَوِّق هَجْمَةً
بِوادٍ تَغَشَّتْه السحابةُ مِنْ عَلِ

ثم يقول:

فما راعَه إلا عُلُوٌّ جبينه
بعَضْبٍ جَلَتْ عنه مَداوس صَيقلِ
فخَرَّ وألقى ثوبَه وتركتُه
لدى شجرات كالعَكِيّ المُجَدَّلِ(١)

لقد راقب هو وأصحابه أحد أصحاب الإبل، وقد اعتزل بإبله، يتتبَّع الأرض في واد معشب أخضر، يسقيه المطر، وهذا كناية عن كثرة الإبل وسِمَنِها، وكناية عن شجاعة صاحبها وبأسه، ثم تكون النتيجة الهجوم على هذا الرجل المنعزل وقتله، واستياق الإبل معهم. والمفردة ذات التأثير هنا هي "هجمة"، وهي المفردة التي تدور في أشعار سُرّاق الإبل عموماً. أما المقتول هنا، فهو "أشعث معزال"؛ أي: هو صاحب إبل نأى بإبله وحيداً، فهو متشعِّث الشعر مغبرُّه لطول غيبته وجسارته.

---

(١) ديوانه، ص ص ٢٨٣ - ٢٨٤. الأشعث: الأغبر. المعزال: الراعي المنفرد العازب بعيداً. الهجمة: القطعة الضخمة من الإبل. العضب: السيف القاطع. المداوس: جمع مِدوس، وهو خشبة يُشد عليها مِسَنّ يدوس بها الصيقل السيف حتى يجلوه. العكي: وطْب اللبن. المجدل: الملصق بالأرض.

ومن ثم، فعندما نعاود قراءة الشعر الجاهلي، سنجد أن الصعلكة ليست ظاهرة خاصة، بل هي ظاهرة عامة، لم يختص بها قوم دون قوم، وإنما مارسها من يجد في نفسه القدرة على مواجهة الآخرين، وبهذا يدخل حاتم في الصعاليك، وإن شئنا أكثر تحديداً، فهو يدخل في الصعاليك الرؤساء تمييزاً لهم عن الصعاليك الفتيان، الذين كان بعضهم من أصحابه، كما قال "وفتيان .."، وهم في قول الشنفرى الـ"عيال"، وليس حاتم إلا واحداً من كل أولئك. وكيف نميز بين "الصعاليك" و"الغزاة" إن لم يكونوا أنفسهم "غزاة"، حين نجد المرزوقي يقول، وهو لا يتحدث إلا عن مطلق الغزو:

"أَحَبّوا أن تهب رياح الجوزاء، حتى إذا طردوا إبلاً وسرقوها، عفّت الرياحُ آثارَها وآثارهم، فأمنوا أن يُقتفى أثرهم"(١).

يقول أحدهم في الوضع نفسه:

أيا بارحَ الجوزاءِ ما لَكَ لا ترى
عيالك قد أمسَوْا مراميلَ جُوَّعا(٢)

وليس حاتم إلا واحداً من كل أولئك الرؤساء في قبائلهم.

يقول زهير عن نفسه، ولم يكن زهير صعلوكاً:

ومرقبةٍ عَرفاءَ أوفيتُ مُقصِراً
لأستأنسَ الأشباح منها وأنظرا
على عَجَلٍ مني غَشاشاً وقد دنا
ذُرى الليل واحْمَرَّ النهار وأدبرا(٣)

(١) المرزوقي، الأمكنة والأزمنة، ج ١، ص ٢٨٢.

(٢) أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، كتاب الأنواء (حيدرآباد ـ الدكن. مطبعة مجلس دائرة المعارف الإسلامية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦)، ص٩١.

وانظر: الأشناندانى، معاني الشعر ص١٠٥.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت: دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص ص ٢٦٢- ٢٦٣.

وهذه صورة مطابقة كل المطابقة لحال أولئك الصعاليك الذين يأتون مساءً "مقصراً"، يتطلعون أوضاع الحي المراد الإغارة عليه، والهدف من هذا الترصد، في مثل هذا الوقت، وبتلك الطريقة، هو تبييت القوم، أي: نهب إبلهم، هنا، وإن فهمنا صعود المراقب على أنه بعض تخطيطات الغزو، ولم يكن ذلك هنا لحماية الديار من الغزاة، مع أن هذا لا يبعد عن مفهوم الصعلكة، أي أن أولئك الغزاة هم الصعاليك.

القيادة (السيادة):

ومن أدلة ذلك قول تأبط شراً نفسه عن نفسه:

حَمّالُ ألويةٍ شَهّادُ أنديةٍ
قَوّالُ مُحْكَمةٍ جَوّابُ آفاقِ
إني زعيمٌ لئِن لم تتركي عَذَلي
أن يسألَ الحيُّ عني أهلَ آفاقِ(١)

وفي الاستعمال نفسه يقول أبو المثلّم، راثياً صخر الغي، "الصعلوك"، السيد، أو الرئيس، كما عروة وحاتم، بل هو هنا، حمال ألوية: أي يقود الجيش. وهو كذلك "سرحان فتيان": أي ذئب في الليل ينهب:

رَبّاءُ مرقبةٍ منّاع مَغْلَبةٍ
ركّابُ سَلْهَبةٍ قطّاع أقرانِ
هبّاط أوديةٍ حمّال ألويةٍ
شهّادُ أنديةٍ سرحان فتيانِ(٢)

ويقول أعشى نهشل:

---

(١) ديوانه، ص ص ٣٩٨، ٤١١.

(٢) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ١، ص ٢٨٥. رباء: أي يربأ فيها لأصحابه، ينظر لهم ويحفظ. سلهبة: طويلة. مناع مغلبة: يَمنَع أن يُغلَب. قطاع أقران: أي لا يثبت على ما ينبغي عليه الثبات، يصل ويقطع.

أقــول لَــمَّــا أتــاني هُــلْكُ ســيِّــدنــا
لا يُــبــعِــدُ الــلهُ ربُّ الــنــاسِ مــســروقــا
من لا يُــشــيِّــعه عــجــزٌ ولا بَــخَلٌ
ولا يــبــيت لــديه الــلــحم مــوشــوقــا

ثم يقول فيه:

وجــفــنــةٍ كَــنَــضــيح الــبــعْــرِ مُــتْــأَقَــةٍ
تــرى جــوانــبَــهــا بــالــلــحم مــفــتــوقــا
يَــســرُّتَــهــا لــيــتــامى أو لأرمــلــةٍ
وكــنــت بــالبــائس المتــروك محــقــوقــا(١)

(١) غاير، الصبح المنير، ص ٣٠٤.
الجفنة: القدر الواسعة الضخمة.
نضيح: ما ينضح من البعْر، أي يسيل.
متأقة: ملأى. الموشوق: اللحم يُغلى في ماء ملح، ثم يُرفع، أو يُقَدّ قَديداً.

الفصل الرابع

الغزو ظاهرة مشتركة بين الصعاليك وسواهم

أما من حيث علاقة الغزو بالصعلكة، بحيث يتسع مفهوم الصعلكة، ليشمل كل من يَسلك هذا المسلك، فواضح من قول أبي زبيد، وهو يرثي ابن أخته اللجلاج:

وإذا القوم كان زادهم اللحـ

ـم قَصيداً منه وغير قصيدِ

بَدّل الغزو أَوْجُه القوم سوداً

وغزواً حين أبدؤوا غير سودِ

وسما بالمَطِيِّ والذُّبَّل الصُّـ

ـمِّ لعمياءَ في مفارط بِيدِ

ثم يقول:

قال سيروا إن السُّرى نُهْزَة الأكـ

ـياسِ والغَزْوُ ليس بالتَّمْهيد(١)

فهذه صورة من صور الغزو خارج إطار الغزو القبلي المتعارف عليه، والمعروف في حروبهم بـ"الأيام" . ولتقريب هذا الفهم جداً، نستدل أخيراً، بقول أعشى باهلة، في رثاء أخيه المنتشر:

لا يأمنُ الناسُ مُمساه ومُصبَحَه

في كل فجٍّ وإن لم يغزُ يُنتظرُ(٢)

(١) الأخفش الأصغر، كتاب الاختيارين، ص ٥٣٢-٥٣٣. القصيد: اللحم اليابس أو السمين. سما: ارتفع. الذُّبَّل: القنا. عمياء: فلاة لا يُبصَر فيها. مفارط: صحارى متقدِّمة. المفارط: المجاهيل. بيد: جمع بيداء، وهي الفلاة. السرى: سير الليل. نهزة الأكياس: يصبحون وقد قطعوا عنهم الطريق. ليس بالتمهيد: أي يمهد للإنسان، فينام. وانظر، رثاء سُعدى بنت الشمردل أخاها أسعد؛ الأصمعي، الأصمعيات، ص١٠٣ .

(٢) عبدالقادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م)، ج ١ ، ص ١٩٨ .

فهذه أيضاً صورة طبق الأصل لما قال عروة:

مطلاً على أعدائه يزجرونه ....

إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه ....

وهذا سهم بن حنظلة الغنوي، أو كعب بن سعد الغنوي يقول:

اعصِ العواذل وارْمِ الليلَ عن عُرُضٍ

بذي سَبيب يُقاسي ليلَه خَبَبا

ثم يقول:

حتى تُصادفَ مالاً أو يُقالَ فتى

لاقى التي تشعب الفتيان فانشعبا(١)

ولا يختلف عنهما بُرَيد الذي رثاه أخوه، الأُبيرد بن المعذّر الرياحي، فذكر مثل تلك الخصال(٢).

وفي شعر الشنفرى نفسه، صورة واقعية لهذه الممارسة، في ذلك المجتمع، إبان ذلك العصر، وفق تصرفات شخصية محسوبة، فهو يتحدث في التائية عن قطع طريق التجارة، أو على غير مرصد، حسب تعبير طرفة بن العبد، وهو يصور توغله في مجاهل الأرض:

وجاشت إليه النفسُ خوفاً وخالَه

مصاباً ولو أمسى على غير مَرْصد(٣)

يقول الشنفرى، مكرراً مفهوم الغزو، الذي قد يجلب الغنى (يغنم):

(١) صدر الدين، علي بن أبي الفرج بن الحسين البصري، الحماسة البصرية، تحقيق: عادل جمال سليمان (القاهرة: مطبعة الأهرام، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص ص ٢٧٢-٢٧٣. رماه عن عرض: أي عن شقّ وناحية، لا يباليه. بذي سبيب: يعني فرساً؛ والسبيب: شعر الناصية. الخبب: نوع من العَدْو.

(٢) عمر بن عبدربه، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وآخرون (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، ج٣، ص ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٣) ديوانه، ص ٢٦.

وبـاضـعـةٍ حُـمـر الـقـسِيِّ بـعـثـتُـهـا
ومَنْ يـغـزُ يـغـنَمُ مـرةً ويـشـمَّتـ(١)

إن هؤلاء في الحقيقة هم، كما وصفهم لبيد سابقاً:

وغـادرتُ مـرهـوبـاً كـأنَّ سـبـاعه
لـصـوصٌ تـصـدَّى لـلـكـسـوب المحاولِ

نماذج الغزو:

وأليس من المعقول، بعد هذا، أن ندرج عامر بن الطفيل ضمن الصعاليك، تطبيقاً لهذه النتيجة؟ أليس هو الفارس الشجاع الفَتّاك؟ ومع ذلك، فهو يقول عن فرسه الذي عقره يوم الرَّقَم (وقيل: إن المقصود رجل قتله):

ونِـعْمَ أخـو الـصـعـلـوك أمسِ تـركـتُه
بتَضروعَ يَمْري باليدين ويَعْسِف(٢)

وهل كان حاتم الطائي إلا سيداً في عشيرته، حين كان يغزو بجيش من قومه، بكرَ بن وائل، وكان أن وقع في الأسر؟(٣) وماذا كان حاتم يفعل في جهات القويعية، بعيداً عن أجأ، حتى ليقول جرير:

وكُـبِّل (حـاتم) بـشَـمَـام حـولا
فـحَـكَّم ذا الـرُّقَـيْـبَـة وهـو عـان(٤)

---

(١) التبريزي، شرح المفضليات، ص ٣٨٦. وانظر تسلقة المراقب: عبدالعزيز الميمني، الطرائف الأدبية (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، ص٣٧، وقطعه الرمال، واقتحامه الوديان، وعنايته بسلاحه، ص ٣٨. وصدام الصعاليك المسلح بغيرهم: التبريزي. شرح المفضليات، ج١، ص ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: شارلز لايل (ليدن: مطبعة بريل، ١٩١٣م)، ص ١٥٧. يمري: يحرّك يديه على الأرض. يعسف: يشرف على الموت.

(٣) عز الدين، أبو الحسن، علي بن أبي مكرم ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، ج١ ص ٦٠٦.

(٤) البكري، معجم ما استعجم "شمام"، وانظر "ذو خشب". وذلك لمجرد الاستشهاد، مهما كان الواقع. "شمام": جبل. عان: أسير.

وهل كان أوفى، مقرن بن مطر بن ناشرة، من بني مازن بن عمرو بن تميم، والمنتشر الباهلي، إلا فارسين، شجاعين، مع أنهما اثنان من ثلاثة، ثالثهم سليك بن السلكة التميمي، وكانوا رَجليِّين (أي: يسيرون على أقدامهم) مشهورين بالسعي، لا يجارَوْن عدواً؟[1] ولم يكن المنتشر من أغربة العرب، أو منبوذاً من قبيلته، وهل يُعقل أن يكون مجرد صعلوك، وأعشى باهلة يقول فيه:

وأقبل الخيل من تثليثَ مُصْغيَةً

أو ضَمّ أعْيُنَها رَغْوانُ أو حَضَر[2]

وهل كان صخر بن الشريد، أخو الخنساء، والذي رثته ذلك الرثاء، إلا أحد الفرسان، الغزاة، الفُتّاك، الصعاليك ؟

وكذلك، كان توبةُ بن الحُمَيِّر يغير، زمن معاوية بن أبي سفيان، على خثعم، ومهرة، وبني الحارث بن كعب، وهمدان[3].

وكان من أسباب يوم "نِساح" إغارة علقمة الجعفي على بني عُقيل[4]. كما كان من أسباب يوم "شراحيل"، مقتل شراحيل بن الأصهب في غارته لنهب الإبل[5]. وجرَّ غزوُ بكر بن وائل بني كعب بن ربيعة، من أجل نهب الإبل أيضاً يومَ الفَلَج[6].

---

(١) أبو عبدالله، محمد بن عمران بن موسى المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٠م)، ص ٤٣٦.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، "حضر". "رغوان"، "حضر": موضعان. مصغية: مائلة رؤوسها كأنها تستمع إلى فرسانها.

(٣) الأصفهاني، الأغاني. ج ١١، ٢٠٦. وجاء فيه ذكر قضاعة، ولم تكن قضاعة مجاورة لديار عُقيل، وإنما هذا سهو، ولم يكن توبة يغير أبداً على قضاعة في بلاد الشام والحجاز الغربية. وانظر مدح ليلى الأخيلية له بكل الصفات التي تنطبق على الصعلوك، ص ص ٢١٧ - ٢١٩. وإنما يقصد هنا بقضاعة قبيلة جرم القضاعية في العقيق (وادي الدواسر) في اليمامة.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص ١٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٦) المصدر نفسه ص ١٩.

فهذا الغزو غزوٌ غير معلَن؛ أي: الغارة المكشوفة، وخارج الأيام المشهودة بين القبائل مما يندرج تحتى مسمى: الصعلكة، والصعلوك الشجاع ... إلخ. يتضح هذا من إغارة الربيع بن زياد العبسي، واستياقه الإبل العازبة السارحة لبني جعفر والوحيد، ابني كلاب، جيرانه، في نواحي ضَرِيّة، بعد أن أخفق في الوصول إلى إبل بني عمومتهم، بني عمرو بن كلاب في جهات عفيف الجنوبية، وكلتاهما في وسط نجد؛ لأن أصحابها تنبّهوا له، فحموها منه، ثم إن يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي، أغار على إبل النعمان بن المنذر اللخمي في أَبَان، بالقصيم، والتي كانت تحت حماية بني عبس، بزعامة الربيع بن زياد، فاستاقها ولم ينجح الربيع بن زياد، إلا لأن إبل بني جعفر والوحيد كانت عازبة سارحة، دون حماية وانتباه من أهلها، ولم ينجح يزيد بن عمرو، إلا لأن إبل النعمان كانت سارحة عازبة أيضاً، ولم يشعر بنو عبس بتلك الغارة(١).

وكان قيس بن مسعود، الذي ولاّه كسرى على الطريق، وضمّنه إياه، يقطع ذلك الطريق(٢)، وكان النِّطِف، أحد بني يربوع، قد أغار على مال بعثه باذان إلى كسرى من اليمن، فأعطى منه يوماً حتى غابت الشمس، فضربت به العرب المثل، فقالت: لو كان عنده كنز النطف، وهذا هو الذي جر إلى يوم صفقة المُشَقَّر(٣).

وكان من دوافع هاشم بن عبد مناف لأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل، وسادات العشائر: أن ذؤبان العرب، وصعاليك الأعراب، وأصحاب الغارات، وطلاب القوافل، كانو لا يؤمَنون على أهل الحرم ولا غيرهم(٤).

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ١١١.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، "المنجشانية".

(٣) ابن منظور، اللسان، "نطف".

(٤) عبدالملك بن محمد الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م)، ص ١١٥.

وألا يعني قول القطامي التغلبي:

وأحيـانـاً عـلى بـكـرٍ أخـيـنـا

إذا مـا لـم نجـدْ إلا أخـانـا(١)

أنّ تغلب تغزو، لنهب الإبل خلسة من القبائل الأخرى، الأمر الذي يمنع عنهم الطلب لو شعروا بهم؟ وألا يعني هذا القول أنّ تغلب في حروب دموية مع سائر الناس؟ وهل يختلف تصبيح القوم، وهم في غفلتهم، وأخذ إبلهم عَنوة، عن أعمالِ أولئك "الصعاليك"؟ وإذا كان التصبيح ليس حاسماً في الجمع بين النوعين، فماذا نقول عن **التبييت**؟

يقول ابن مقبل:

بجمع بني عمرو فبيَّتَ جمعَهم

بني أسد فيمن غذا وتجمَّدا

فبتنا نُعيدُ المشرفيةَ فيْهم

ونُبدئ حتى أصبح الجونُ أسودا(٢)

وهذا يحقق قول الحوفي:

"تقاتلوا بالليل، وتقاتلوا بالنهار، ويظهر أن أكثر الإغارات كانت ليلاً والقوم رقود، فهي مفاجأة فيها غنائم بأقل خسائر"(٣).

ويؤكده قول عامر بن الطفيل:

وبـيَّـتْـنـا زَبِـيـداً بـعـد هَـدْءٍ

فـصـبَّح دارهم لَـجِـبـاً لُـهـامـا(٤)

---

(١) ديوانه، ص ٧٧.

(٢) ديوان ابن مقبل، تحقيق: عزة حسن (دمشق: مديرية إحياء التراث، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م)، ص ٥٨. المشرفية: السيوف.

(٣) الحوفي، الحياة العربية، ص ٢٤٠.

وانظر عن "تبييت" كنانة لخزاعة؛ البكري، معجم ما استعجم، "فاثور".

(٤) ديوانه، ص ١١١. وانظر، ديوان الخنساء، ص ٣٥٦. لجباً: جيشاً. لهاما: كثيفاً.

وسَبق أن قال الشنفرى:

إن لم تُبَيِّت..

وقد مرّ ذكر: "طرقتهم فتية من وابش" وقول ابن براقة: "وليلُك من ليل الصعاليك.." ... إلخ.

يقول عبد مناف بن ربع الهذلي، في تبييت غزوة، ضدّ سليم، فيها قتل وسفك دماء، ولم يكن وحده:

وأنا الذي بيَّتكم في فتية
بمَحِلةٍ شكسٍ وليل مظلم(١)

ومهما كان الأمر، فمما يكشف عن مفهوم الغزو، وما يتمثل فيه من انضباط، وعلى طبيعة المشاركة القبلية، قول تأبط شراً:

وشِعبٍ كشَلّ الثوب شَكْسٍ طريقُه
مَجامعُ صَوْحيه نِطاف مَخاصرُ
به من سيول الصيف بيض أَقَرَّها
جُبارٌ لِصُمّ الصخر فيه قَراقرُ
تَبطَّنته بالقوم لم يَهدني به
دليلٌ ولم يُثبِت لي النَّعت خابرُ
به سَملاتٌ من مياهٍ قديمة
مواردها ما إنْ لهنَّ مصادرُ(٢)

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص ٦٨٦. محلة: منزل. شكس: صعب، شديد، غليظ.

(٢) الأصمعي، الأصمعيات، ص ١٣٥. الشعب: الطريق في الجبل. شل الثوب: خياطة الثوب خياطة خفيفة. الصوحان: جانبا الجبل أو حائطا الوادي. النطاف: جمع نطفة، وهي ما يجتمع من ماء المطر في موضع. مخاصر: باردة. بيض: أراد بها الغدران. أقرها: تركها. جبار: يعني سيلاً هادراً. قراقر: أصوات. تبطنته: دخلت في بطنه. الخابر: المختبر المجرب. سملات: جمع سَمَلة، وهي بقية الماء في الحوض.

وهذا الغزو واضح في قول غاسل بن غزية الهذلي:

فقلت رُدّي وقولي القوم قد طَلعوا
للغور والغزو يَسْتَذكي ويَنجَردُ

وبعده:

ثم انصببنا جبال الصُّفْر معرضة
عن اليسار وعن أيماننا جَدَدُ(١)

فهذا غزو جماعي، يشترك فيه "قوم" بما تحمل هذه الكلمة من معاني العصبية والقرابة، ومنطقة غزوه ذات شعاب؛ أي: وديان في السَّراة، والمنطقة بعيدة مجهولة عن دياره. وهكذا كل غزو.

ومن ثمّ، يمثّل الغزو/ الصعلكة قول القائل:

قل لسُليمى إذا لاقيتَها
هل تَبْلُغِنَّ بلدة إلا بزادْ
قل للصعاليك لا تستحسروا
مِنَ التماسٍ وسيْرٍ في البلادْ
فالغزو أحْجَى على ما خَيَّلت
من اضطجاع على غيرِ وسادْ(٢)

إلا أننا سنكتفي بإيضاح الصورة بقولهم:

"تأبط شراً... كان يغير على هذيل ولحيان نهاراً، ويغير على القارة ليلاً"(٣).

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٨٠٦. يستذكي: يتحرك ويشتد. ينجرد: يذهب.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ط١، ص ١٠٢. لا تستحسروا: لا تَمَلّوا، ولا تكلّوا. أحجى: أفضل.

(٣) ابن منبه، التيجان، ٢٤٤.

الفصل الخامس

الغزو القبلي مظهر من مظاهر الصعلكة

إذن، فكل مَن أَنِف مِن أن يصبح، كما قال تأبط شراً:

ولست براعي صِرْمَةٍ كان عبدُها
طويلَ العصا مئناثةَ الصَّقب مِهْبَل[1]

أو من أحس أنه، كما قال الشنفرى:

وأَسْتَفُّ تُرب الأرض كي لا يُرى له
عليّ من الطَّوْلِ امرُؤٌ متطوّلُ

فكان يأبى إلا أن يكون زعيماً، وكان ذا استعداد فطري للعنف، ووجد ما ينمّي خصاله الشخصية في مجتمعه، كان عليه أن يحقق السيادة بالغزو، دونما إعلان حرب، مع أن مثل هذا الغزو يجر إلى حرب، يندرج في هذا بسطام بن قيس[2]. وينضوي في هذا خُفاف بن نُدبة الذي يقول، ومن الغريب أنه أحد أغربة العرب:

ونهبٍ كجُمّاع الثُّريّا حَويتُه
غِشاشاً بمُحتات القوائم خَيفَقِ
ومعشوقةٍ طلّقْتُها بمُرِشَّةٍ
لها سَنَنٌ كالأَتْحَميّ المُخرَّقِ
فباتت سليباً من أناس تحبُّهم
كئيباً ولولا طعنتي لم تُطلَّقِ
وخيلٍ تَعادى لا هَوادةَ بينها
شَهدت بمدلوك المَعاقم مُحنِقِ

(١) ابن منظور، اللسان، "هبل" . الصقب: ولد الناقة. المهبل: الخفيف.

(٢) المبرد، الكامل، ج١، ص ١٣٥ . وانظر شعره، ص ٣١.

ثم يقول:

ومَرقَبةٍ طيَّرت عنها حَمامها
نَعامتُها منها بِضاحٍ مُزلَّقِ
تَبيت عِتاقُ الطير في رَقَباتها
كطُرَّةِ بيت الفارسيِّ المعلَّقِ
ربأت وحُرجوجٍ جَهَدتُ رَواحها... (١).

وكذلك، عامر بن الجوين الطائي، الموصوف بأنه أحد الخلعاء، الفُتّاك، والقائل:

وجاريةٍ من بنات الملو
ك قعقعت بالرمح خِلخالها
ككِرفِئةِ الغيث ذات الصَّبيـ
ـر ترمي السحاب ويُرمى لها(٢)

والغريب أن سبي النساء أمر يدخل في موضوع الصعلكة، فهذه أخت عمرو ذي الكلب تقول في رثائه:

والمُخرِجُ العاتِقَ العذراءَ مُذْعِنَةً
في السبي ينفحُ من أردانها الطيب(٣)

(١) الأصمعي، الأصمعيات، ص ص ٢٣-٢٥. جماع الثريا: كواكبها المجتمعة، الغشاس: العجلة. المحتات: الموثَّق الخلق. الخيفق: السريع الخفيف، يعني فرسه. المرشة: الطعنة اتسعت، فتفرق الدم. السنن: الطريق. الأتحمي: نوع من البرود الحمر. معشوقة: امرأة يحبها زوجها. طلقتها: قتلت زوجها، ففرقت بينهما. تعادى: تتعادى. المعاقم: فقر في مؤخر الظهر. المحنق: الضامر. النعامة: كل بناء على الجبل كالظلة والعلم. الضاحي: البارز للشمس. المزلق: الأملس الذي لا تثبت عليه قدم. عتاق الطير: جوارحها. رقباتها: أعاليها. الطرة: الناصية. ربأت: صرت ربيئة. الحرجوج: الناقة الجسيمة الطويلة على وجه الأرض.

(٢) البغدادي، الخزانة، ج١، ص٥١. قعقعت: كسرت. الكرفئة: السحابة العظيمة المحمَّلة بالماء. ترمي السحاب: تنضم إليه. الصبير: السحاب الأبيض.

(٣) ابن حبيب، أسماء المغتالين، نوادر المخطوطات، ج ٢، ص ٢٤٣.

وكان المَجَبَّة، أغار يوم قُحْقُح، هو وعمرو بن القريم، أحد بني شيبان، على بني رياح، في جمع من بني شيبان، فاطردوا النعم، فركب بنو رياح في آثارهم، فلحقوا بهم، فاقتتلوا، فقال في ذلك شجاع بن هَوْذَة بن عمران الرياحي:

شَكَّ ابنُ عِصمةَ للرئيس ثيابه
والقومُ بين سوافلٍ وعوالي[(١)]

كان الغزاة يمتثلون لرئيسهم، وهو اللقب الذي يذكرونه به، يقول الفرزدق، في مقتل بسطام:

وهم الذين على الأَميل تداركوا
نَعَماً يُشَلُّ إلى الرئيس ويُعْكَل[(٢)]

وكان الهدف هو: "نعماً يشل إلى الرئيس ويعكل"، وفي سبيل هذه النَّعَم، الغنى، الكسب، يجازف الرئيس بحياته، يقول مطير بن الأشيم الأسدي:

إذا قال الخليل تَعَزٌّ عنهم
ذكرتَ رئيسَ يومِ البَرَّتَيْنِ[(٣)]

وقال أبو ذؤيب:

وغادر في رئيس القوم أخرى
مُشَلشِلَةً كما نَفَذَ الخَسِيفُ[(٤)]

وقال أيضاً:

فلما خَرَّ عند القوم طافوا
به وأبانه منهم عريفُ[(٥)]

---

(١) ديوان جرير، ج١، ص ١٩٩.

(٢) ديوانه، ج٢، ص ٧١٨. الأميل: أرض لبني ضبة. النعم: الإبل والماشية. يعكل: يجمع.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "البرتان". و"البرتان": اسم موضع.

(٤) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١٨٧. مشلشلة: تسيل بالدم. الخسيف: البئر المنقوبة. شبه الطعنة بالبئر التي نُقِر جبلها، فهي لا تُنزَح.

(٥) المصدر نفسه. العريف: رئيس القوم.

ولتَبيّن حقيقة الصعلكة بمفهومها الأوسع، فإن بسطام بن قيس، المارّ ذكره، لم يأت من جهات الكوفة بالعراق، حتى جهات حفر الباطن، بالمملكة العربية السعودية الآن، طلباً للثأر، فلم يكن بين شيبان ويربوع قُبيل الإسلام ثأر، وإنما جاء يقود جيشاً، يتزعمه، كما قاد حاتم جيشاً تزعَّمه، ليغنم الإبل، كما تقول الأبيات، وهو لم يأت معلناً الحرب، وإنما جاء على حين غِرّة، غير أن يربوع باغتَتْه، يقول محرز بن المعكبر الضبي:

سـمـا من أهل ذي قـار إلـيـنـا
بـهـادٍ لا يُـخـالـطه الـضُّـلُـولُ
فـلـمـا أن مـضى بـالـقـوم شـهـراً
وبـيّـن مـا يُـخـبّـره الـدلـيـلُ
بـجـيش عِـلـيـة الأصـوات فـيه
إذا نـزلـوا الـتـحَـمْـحُـمُ والـصـهـيلُ
فـبـاتـوا نـازلـين بـنـا وكـنـا
أبـا الأضـيـاف إذ كُـرِه الـنُّـزولُ
فـلـمـا أن أضـاء الـصـبحُ جـاؤوا
رَعـيـلاً خـلـفه مـنـهـم رعـيـلُ
فـمـا شَـعَـروا بـنـا حـتى رأوْنـا
وأكـشـبـة الـشَّـقِـيق بـنـا تَـسـيلُ
فـمـا نـظـروا الـقِـرى ورأوا وجـوهـاً
قـلـيلاً في تـأمُّـلـهـا الـوَسِـيلُ
رأوا نَـعَمَ الـشَّـقِـيـقـة وهي حُـومٌ
ودون لـقـائه شـرٌّ بَـجـيـلُ

أَقَـرُّ الـعـين إذ طـارت عـلـيـهم
شَـمـيطُ الـلـون لـيس لـهـا حُـجـولُ
وهنَّ عـلى الحـبـال مـجـلِّـحـات
لـهـا بـكل مـعـتـرَك قـتـيلُ
إذا كُـرِه الـسلاح مَـضَـين فـيه
ولم يك حَقٌّ عـادتـهـا الـنُّـكـولُ
فـظل لـهن عـلى الأنـقـاء مـنـا
إلى أن أظـلـمـوا يـومٌ طـويلُ
وآبـوا مُـطـلَـقِـين ولم يُـشـيـبـوا
وغـال رئـيـسـهـم في الأرض غـولُ(١)

فهذه غزوة، ولم تكن غزوة حرب معلنة، وإنما غزوة تسلل وسطو، والمغيرون لم يأتوا من أرض مجاورة، بل جاؤوا من أرض يستغرق المسير منها شهراً كاملاً، وكان هدفهم الوحيد هو: "نعم الشقيقة وهي حوم"، واصطدم أصحاب الإبل – بعد تنبههم – بالمغيرين، فكان أن وقع بسطام هذه المرة، في الأسر.

والأمر واضح، لا يحتاج كثيراً من التفصيل والجدال، لو تم الربط بين كل هذه الأحوال، فقد قالوا: "جمع زيد الخيل بن مهلهل طيئاً، وأخلاطاً لهم، وجموعاً من شُذَّاذ العرب، فغزا . . ."(٢).

---

(١) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ص ١٩٤–١٩٥ ويرد محرز، في هذه القصيدة، على عبدالله، من شيبان، الذي رثى بسطاماً. سما: جاء. الرعيل: القطعة من الخيل. القرى: كرم الضيافة. الوسيل: العطف والرحمة هنا. الشقيقة: أرض رملية في غربي الحَفَر. حوم: قطيع ضخم من الإبل. بجيل: عظيم. الشميط: اللون الأسود الذي يخالطه بياض. الحبال: الرمال. مجلحات: مجاهرة بالعداء. النكول: النكوص والتراجع. الأنقاء: جمع نقا، وهو قطعة الرمل. غاله غول: أصابته مصيبة.

(٢) ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م) ص ٨٣ .

ولم يكن زيد الخيل السيّدُ في قومه، صعلوكاً ـ خارجاً عن إرادة قومه ـ وعندما أراد الحصول على سلب ونهب، قام بعملية "غزو"، مع أنه استصحب معه جمعاً من قومه، فالهدف من تلك الغزوة هو: الكسب، يقول زيد معترفاً بأنه (يتصعلك):

لَعمرُك ما أخشى التصعلُك ما بَقي
على الأرض قيسيٌّ يسوق الأباعرا
وإنّ حوالي فردة فعناصر
وكُثْلَة حَيّاً يابن شيما كراكرا
ونحن ملأنا جوٌّ مُوقَق بعدكم
بني شَمَجَى خَطيّةً وحوافرا(١)

فهذه ليست "صعلكة" – بالمفهوم الشائع، وإنما هو غزو، غزو القبيلة المعادية، قيس، المجاورة لطيِّئ من كل جهات الجنوب.

وهكذا نجد عروة، أبا الصعاليك، فارساً، يغزو، فيقال:

"إن عروة بن الورد الصعاليك (لقبه) أغار ببني غالب، من عبس، على ربيعة ابن مالك، فاستاق إبلهم، فأتى الصريخُ بني رياح، فركبوا، فأدركوهم بذات الجُرف، فقال في ذلك شميت بن زنباع الرياحي:

فطِرنا عِجالاً للصُّراخ ولا أرى
لنا نَعَماً من حيث نفزع شُلّت(٢)

ألسنا هنا في صورة مماثلة لغزو بسطام وغير بسطام؟ وكان هو الحال في يوم "شواحط":

---

(١) عبدالعزيز الرفاعي، زيد الخيل، (جدة: شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص ٩٥. وانظر الهجاء، ١٧، ٩٦. "فردة"، "عناصر"، "كثلة"، "موقق": أسماء مواضع من ديار طيِّئ. كراكر: ضخم.

(٢) ديوان جرير، ج١، ص ص ٣٢٦-٣٢٧ . وهذا الوضع مشابه ليوم الكنيف، ديوان عروة، ص ٧٦.

"غزت سرية من بني عامر بن صعصعة ... فأغاروا على إبل لبني محارب ابن خصفة، فأدركهم الطلب ..."(١).

ولنسأل: ماذا كان يفعل الملوك الغساسنة، وهم يغيرون على بني ضبة، في القصيم، في منطقة الأسياح؟ يقول أبو عبيدة:

"أغار محرق الغساني وأخوه في إياد، وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم، على بني ضبة ببُزاخةَ، فاستاقوا النَّعَم، فأتى الصريخُ بني ضبة.." .

ويتكرر المشهد مرة أخرى مع آخر في المنطقة نفسها، يقول أبو عبيدة أيضاً:

"ابن مزيقيا ... ملك غسان، بالشام ... أغار على بني ضبة يوم إضم..."(٢).

فمَن هؤلاء: "إياد، وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم"؟ أليسوا صعاليك؟ وهل كان الملوك الغساسنة، وهم يغيرون على منطقة بعيدة عن أراضيهم، قادمين من بلاد الشام، في غفلة من أهلها، فينهبون الإبل، يغزون غزو حرب، أو غزو كسب ونهب وسلب؟ وألا يقدّم قول الطرماح التالي، صورة لغزو قَبَلي، تُصطحب فيه النساء في معركة مصيرية، هدفها السلب والنهب والغنائم، إلى جانب السيطرة:

هم منعوا من النعمان لمّا
تحمّس بَردَ أمواه القِلاتِ
وشَلُّوا جيشَه حتى استغاثت
ظعائنُه بآجامِ الفراتِ(٣)

---

(١) شهاب الدين، أحمد بن عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م)، ج١٥، ص ٣٦٥ .

(٢) أبو عبيدة، النقائض، ج١، ص ١٩٥ . وانظر، ديوان الأعشى ، عن غزو قيس بن معدي كرب، ص ٢٣ . وغزو هوذة بن علي، ص ص ٢٩ ، ٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٣٧ .

(٣) ديوانه، ص ٦٥ . وانظر، غزو النعمان بن المنذر أيضاً، ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد (بيروت: مطبعة معتوق إخوان، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م)، ص ص ٩٠-٩٣ . تحمس: اشتد وحمي للقتال. أمواه: مياه. القلات: جمع قَلْت، وهو نقرة في الجبل والفحور تمسك الماء. شلوا: استاقوا وطردوا. ظعائنه: نساؤه. الآجام: جمع أجَمَة، وهي الشجر الكثير الملتف.

ولنأخذ قول عمرو بن كلثوم:

يُخلِف المال فلا تستيئسي

كَرُّيَ المُهْرَ على الحيّ الحِلالِ

أجاء عمرو مُعْلَماً، أم جاء بغتة؟ وهل جاء لحَيٍّ بينه وبينهم ثار، أو جاء على حَيٍّ، قصده دونما سابق تِرات؟ وأمّا جاء لنهب الإبل؟ وأنعلم أنه جاء بمفرده، أم اصطحبه بعض عشيرته، أم جمع لهم شُذّاذاً ومتشردين؟ وأليس لسان حال عمرو حالَ لسان كثير من الفرسان الذين عبّروا عن مثل هذا الموقف، وهم يخاطبون زوجاتهم، اللاتي يَلُمنهم على كثرة الإنفاق؛ لأنهم لا يحتفظون بما كسبوه لأنفسهم، بل يبذلونه لسواهم، قياماً بالمسؤولية، واضطلاعاً بواجبات القيادة والرئاسة؟

ذاك عمرو في غزوته الفردية.

أما غزوته الجماعية، ففي قوله بعد ذلك:

وسُمُوٌّ لخميس جَحفلٍ

نحو أعدائي بحِلّي وارتحالِ

وكل ذلك تلبية لحاجات اجتماعية:

بكرت تعذلني وسط الحلال

سفهاً بنتُ ثوير بن هلالِ

بكرت تعذلني في أنْ رأت

إبلي نَهباً لشَرب وفِضالِ[1]

على أننا لن نذهب بعيداً في جلاء طبيعة الغزو / الصعلكة، فلا فرق في الطبيعة بين الاثنين، إذ الهدف فيهما واحد، إذا أُخذ مسمى الصعلكة ينطبق على التسلل والتخفّي، بينما يحمل كل معاني الغزو، مثل: السلب والنهب، والغارة، بل الغزو أيضاً.

---

(١) ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: إميل بديع يعقوب (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص٥٢. المهر: اليافع من الخيل.

واختص مسمى الغزو بمجموعة تهاجم ناساً آمنين، لتسرق إبلهم، وتأتي بالغنائم، وكلا الفعلين واحد، وإنما تتحكم في النوع طبيعة الممارسة فقط. واختصاراً لمزيد من الشرح والتفصيل، ننظر في قول أبي الفرج، عن أبي حاجز، ابن عمّ الشنفرى:

"أغار عوف بن الحارث بن الأخثم على بني هلال، في يوم داجٍ مظلم، فقال لأصحابه: انزلوا حتى أعتبر لكم، فانطلق حتى أتى صَرْماً من بني هلال، وقد عَصَبَ يَدَ فرسه عصاباً، ليضلَع، فيَطمعوا فيه، فلما أشرف عليهم، استرابوا به، فركبوا في طلبه، وانهزم من بين أيديهم، وطمعوا فيه، فهجم بهم على أصحابه بني سلامان، فأصيب يومئذ بنو هلال، وملأ القوم أيديهم من الغنائم"(١).

وهذه هي بعض الخطط التي يمارسها هؤلاء. وفي الخبر جملة: "أغار عوف.."، وفي الخبر أنه جاء على فرس، كما أن أصحابه - من الواضح - جاؤوا أيضاً فرساناً، وفيه أيضاً أن الإغارة على "صرماً من بني هلال"، فالهدف هو نهب الإبل، وفي الخبر "أصحابه من بني سلامان"، فهؤلاء من عشيرة واحدة، ومن موطن واحد، وعندما ملأ القوم أيديهم من الغنائم، والغنائم: شتى ما كسبوه في هذه المعركة، حتى تلك الإبل الراتعة في معاطنها، عادوا بها إلى ديارهم، ثم إن هؤلاء جاؤوا وهم على استعداد للقاء، فكانت المعركة، وكان فيها قتل ذريع. وكل الصور تتلاقي في بيان هدف واحد هو الغارة والغزو من أجل الكسب، والنهب، والسلب.

وروى البكري:

"أغارت سَرِيّة من بني عامر على إبل لبني محارب بن صعصعة بن خصفة، بشُواحِط، وذهبوا بها، فأدركهم الطلب، وقتلت محارب من كلاب سبعةَ نفر، وارتدوا الإبل"(٢).

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص ٢١٢.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، ج ٣، ص٨١٤.

ومثل هذا يقول الطفيل الغنوي:

رأى مجتنو الكُرّاث من رمل عالج
رِعالاً مَطَتْ من أهل شَرْج وأَيْهَبِ
فألْوَتْ بَغاياهم بنا وتباشرت
إلى عُرضِ جيشٍ غيرَ أن لم يُكَتّبِ
فقالوا ألا ما هؤلاء وقد بدت
سوابقها في ساطع متنصِّبِ
فقال بصيرٌ يَستبين رِعالَها
هُمُ والإلهِ مَن تَخافين فاذهبي

ثم قال:

فما برحوا حتى رأوْا في ديارهم
لِواءً كظِلِّ الطائرِ المتقلِّبِ

وقال بعده:

فرُحْنَ يُبارين النِّهاب عشيةً
مُقَلَّدةً أرسانُها غيرَ خُيَّبِ

وهذه غزوة، جاءت على حين غفلة ممن يغار عليهم، أي طيِّئ هنا، جاءهم جيش غني غازياً، فانقضوا عليهم، وأخذوا إبلهم، وعادوا أدراجهم غانمين.

وقع في هذا الغزو الحصول على أسرى، كما قال، ووقعت هذه الغزوة مع ولوج نور الصباح:

فرحنا بأسراهم مع النِّهب بعدما
صبحناهمُ ملمومةً لا تُكَذِّب(١)

(١) ديوانه، ص ص ٢٩- ٤٤. وانظر، مدحه بني عبدالمدان بن الحارث بن كعب، سادة "نجران" و"القهر"، ص ص ٥٢ -٥٤ . ملمومة: كتيبة منتشرة. لا تكذب: لا تحجم. "شرج" و"أيهب" : موضعان. بغاياهم: البغايا، قوم أُرسلوا يتحسسون الخبر. عرض جيش: ناحيته. لم=

وقد مثَّل زهير هذا الغزو القبلي في قوله:

هم يَضرِبون حَبِيك البَيض إذ لَحِقوا
لا يَنكُلون إذا ما استُلحِموا وحَمُوا

يَنظر فرسانُهم أمرَ الرئيس وقد
شَدَّ السُّروجَ على أثباجِها الحُزُمُ

يَمْرُونها ساعَةً مرْياً بأَسْؤُقِهم
حتى إذا ما بدا للغارة النَّعَمُ

شَدُّوا عليها وكانت كلُّها نُهَزاً
يَرُدّ شِرّتَها الأرسانُ والجِذَمُ

يَنْزَعن إمّة أقوام لِذي كَرَم
بَحْرٍ يَفيض على العافِين إذ عَدِموا

حتى تآوى إلى لا فاحشٍ بَرِمٍ
ولا شحيحٍ إذا أصحابه غَنِموا

يَقْسِم ثم يُسَوّي القَسْم بينهم
مُعْتَدِلُ الحُكم لا هارٍ ولا هَشِمُ(١)

ولو قرأنا هذه المقطوعة غُفلاً، دون أن نعلم شيئاً عن خلفيتها، لما ترددنا في أن ندرجها ضمن مقطوعات الصعاليك؛ فهذا الرئيس، القائد، يغير على النَّعم، بعد

= يكتب: لم يجمع. سوابقها: أوائل الخيل. ساطع: غبار مرتفع. متنصب: منتصب. يبارين: يعارضن. النهاب: السَّلْب.

(١) ديوانه، ص ص ١٥٩-١٦١. حبيك البيض: طرائقه. استلحموا: أُدركوا. حموا: غضبوا. الأثباج: الأوساط. الحزم: جمع الحزم. يمرونها: يحرّكونها. النعم: الإبل. أسؤقهم: سيقانهم. نهزاً: جمع نُهزة، انتهازا. الشرة: النشاط. الأرسان: جمع رسن، وهو مقود البعير. الجذم: السياط. الإمة: النعمة. العافين، جمع عاف، وهو الذي يأتيك يطلب ما عندك. تآوى: آوى بعضهم إلى بعض. البرم: الذي لا يأخذ في المَيْسر، والبرم: الثقيل. الهاري: الضعيف. الهشم: السريع الانكسار.

أن تأكد من وجودها، ثم هو يقسّم ما غنموه بين أصحابه، بالضبط كما يفعل عروة، وكما يفعل تأبط شراً ... إلخ، ومن هذا الرئيس؟ إنه هرم بن سنان، ممدوح زهير، والذي أصلح بين الحيين: عبس وغطفان، غير أن هرماً، ما هو إلا نموذج من نماذج ذلك العصر، يسلب، وينهب، باسم الغزو، لا باسم الصعلكة، وكلاهما واحد، حتى في أحوالهما، ومنها الصبر على الجوع، يقول زهير فيه:

أبى لابن سلمى خَلّتان اصطفاهما
قتالٌ إذا يَلقى العدوَّ ونائلُ
وغزوٌ فما ينفك في الأرض طاوياً
تَقَلْقَلُ أفراسٌ به ورواحلُ
إذا نَهَبوا نهباً يكون عَطاؤه
صَفَايا المَخاض والعِشارُ المطافلُ(١)

وهي حصص لا تتمتع بها نفسه وخاصته، وإنما هي ملك مشاع لكل وافد وقائم، وما تبقّى من الغنائم يتوازعها أصحابه المحاربون معه.

وكما كان هجوم الصعاليك يقع في الغالب ليلاً، كان يقع أيضاً نهاراً، ولا فرق في التسمية؛ فهذه سرية من أشجعَ، التي تقطن جنوب غرب حرّة خيبر، تتجه إلى نواحي الحاجر بالقصيم، وتنهب الإبل، ثم تعود مسرعة، يقول زهير:

ألا أبلغ لديك بني سُبيع
وأيامُ النوائب قد تدورُ
فإن تكُ صِرْمَةٌ أُخِذت جِهاراً
كغَرْس النخل أَزّره الشَّكيرُ(٢)

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٨. الطاوي: السائر في الأرض. تقلقل: يذهب ويسير. الرواحل: الإبل. الصفايا: الغزار الكثيرة اللبن. المخاض: الحوامل. العشار: التي قاربت الوضع. المطافل: ذات الأولاد.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٧. الصرمة: القطعة من الإبل. أزره: أحاط به. الشكير: صِغار النخل.

وكل منطوق الغزو في الجاهلية يسير على هذه الوتيرة، قال لبيد:

أبى خَسفَنا أن لا تزال رُواتُنا
وأفراسُنا يتبَعْنَ غَوجاً محرَّما
يَنُبْنَ عَدُوّاً أو رواجعَ منهم
بَواني مَجدٍ أو كواسِبَ مغنما(١)

والعدو هنا - كما العدو، في قول زهير سابقاً - لا يعني القبائل المتحاربة فقط، بل يدخل فيه كل من هم في متناول أيديهم من سواهم، تماماً، كما كان يفعل صعاليك فهم، وهذيل، والأزد .. إلخ؛ يدل على هذا قول لبيد أيضاً، سواء بمعنى الحماية أو الاعتداء:

لم أقِل إلا عليه أو على
مَرقَبٍ يَفْرَعُ أطرافَ الجبَلْ
ومعي حامِيَةٌ من جعفر
كلَّ يوم تَبتلي ما في الخَلَلْ(٢)

إنها صعود المراقب، والتربص بالأعداء (الآخرين)، للإغارة عليهم، ونهب إبلهم.

وهكذا، كل غزو، إنما يسير على تلك الشاكلة، فعُيَينة بن حصن، يغزو بني عامر، شرق الطائف، قادماً من نواحي خيبر، ليثأر منهم، فيغنم ويغنم أصحابه، يقول الحطيئة:

---

(١) ديوانه، ص ٢٨٣. الخسف: الظلم. الرواة: جمع الراوي، وهو القائم على الخيل. الغَوَج: الليِّن الأعطاف من الخيل. المحرم: الصعب.
ينبن: ينزلن بالعدو كالنوائب، أو يكررن رواجع.

(٢) شرح ديوانه، ص ١٩٠، وانظر، ص ٢٥٢. لم أقِل: لم أقض القائلة، وهي نصف النهار. يفرع: يتجاوزها طولاً. الحامية: الرجل يحمي أصحابه في الحرب، أو الجماعة يحمون أنفسهم تُبتلى وتختبر. الخلل: جفون السيوف.

سما لعكاظ من بعيدٍ وأهلها

بألفين حتى داسهم بالسَّنابكِ(١)

وليس هذا يوم عكاظ، وإنما غزوة نستطيع أن نطلق عليها أيضاً: يوم عكاظ، بين بني عامر وغطفان، كما يمكن أن نطلق على كل ما مضى اسم غزوة، أو اسم يوم، ونستطيع أن نصنفه في باب الأخذ بالثأر، إلا أننا نستطيع أن نقول: إن بني عامر، وهم في ديارهم، لم يكونوا على استعداد للمواجهة؛ إذ كانت المسألة مباغتةً. ومصداقُ هذا أن عيينة غزا بني تغلب، في نواحي الخابور، في أقصى شمال العراق، فاستاق أغناماً، ذلك أن النهب لا يقتصر على الإبل فقط، وإنما يعتمد على نوع النعم، ففي الجزيرة الفراتية تتكاثر الأغنام، وكذلك في الحجاز، قال الحطيئة:

أتغضب أن يُساقَ القَهْدُ فيكم

فمن يَبكي لأهل السَّاجِسيِّ(٢)

وهنا يمكن أن نسمي هذا يوم الخابور، بين تغلب وغطفان، كما يمكن أن نسميه غزوة فقط. وفي ضوء هذا نجد الشنفرى يقول:

ألا هل أتى عنا سُعاد ودونَها

مهامهُ بيدٍ يعتلي بالصعالكِ

بأنا صبحنا القومَ في حُرِّ دارهم

حِمامَ المنايا بالسيوف البواتكِ

قتلنا بعمرو منهمُ خيرَ فارس

يزيدَ وسعداً وابنَ عوف بمالكِ

ظللنا نُفَرِّي بالسيوف رؤوسهم

ونَرْشُقُهم بالنَّبْل بين الدكادكِ(٣)

---

(١) ديوانه، ص ٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨. القهد: الضأن. الساجسي: الغنم.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ١٨٤. مهامه: مجهولة. حُرّ دارهم: عقر دارهم. الحمام: الموت. البواتك: القواطع. نفري: نقطع. الدكادك: الأراضي الصلبة الخشنة.

ولنا أن نضع هذا في دائرة الغزو صباحاً، وأن نضعه في دائرة السطو، وأن نضعه في دائرة الثأر والأيام. ويؤيد هذا قول الأعلم الهذلي:

أيَسْخَطُ غَزْوَنَا رَجُلٌ سَمين
تُكَنِّنه السِّتارة والكَنِيفُ(١)

ولا عجب – بعد – أن يقال:

"بينما حاجز في بعض غزواته"(٢).

ولا عجب – بعد – أن وصفوا حالاته بأنها:

"غارات .." (٣).

ولا عجب أكثر أن يفتخر حاجز بعمل أبيه، فيقول:

أبي ربَعَ الفوارسَ يومَ داجٍ
وعمّي مالكٌ وضع السِّهاما(٤)

وواضح من البيت أن العشيرة الأدنين هي التي اشتركت في هذه الغزوة / الصعلكة، فهنا أبوه وعمه، فماذا بعد؟ ألا تستطيع أن تسمي هذا غزواً، أو حرباً، كما تستطيع أن تسميها صعلكة، سيان؟

وهنا نصل إلى تقرير واقع اختلط زمناً، عند كل من تناول قضية الأيام، فهم يجعلون الأيام كلّها بمعنى واحد، في حين أن هناك فرقاً شاسعاً بينها، فهناك الأيام، أي: الحروب التي تتهيأ فيها القبائل للتلاحم والاقتتال، وهي محدودة، منها: الزُّوْرَان، فيف الريح، طِخفة، خزاز، عين أُباغ، الفجار، رَحرحان، الكُلاب، جَبَلة، ذوقار، الجِفار.

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ١، ص ٣٢٨. وانظر عن أيام هذيل، المصدر نفسه، ج ٣، ص ص ١٦٨٢ ـ ١٦٨٥. تكننه: تستره. الستارة: ستر من أَدَم. الكنيف: الحظيرة.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٣.

وهناك الغزوات، الحروب أيضاً؛ منها: مخطِّط، جَدود، الغَبيط، العظالي، القُحقُح، مَلهَم، ذو طُلوح، زَرود، النِّباج، ثَيْتل، إراب، الشِّعب، المعا[1].

وفي الأولى تُصطحب النساء، وتتقابل الجيوش، وفي الثانية يتحرك الرئيس، فيَهجُم على القوم آمنين، غير مستعدين، وإنْ اصطُحبت النساء في الغزو أحياناً.

وتتفق الثانية بكل أجوائها مع تحركات الصعاليك، إلا أن التكتيك قد يختلف في بعض الأحيان، ولهذا نجد ذلك الاضطراب في تصنيف حاتم، وعروة، والحارث ابن ظالم ... إلخ.

أما حرب البسوس، وحرب داحس والغبراء، ففيها من النوعين عدد لا بأس به، إلا أن الشيء المميز لها هو أنها جميعاً تخضع لمبدأ الثأر والانتقام.

وأَتُرانا – بعدُ – نستمر في الجدال، وكل البراهين تشير إلى أن المتجاورين يغزو بعضهم بعضاً؟ ففَهْم كانت تغير – كيفما كانت الإغارة – على زهران وبَجِيلة، وكذلك، كانت هذيل تغير على فهم، وزهران؟ وهذا أبو مزاحم الثُّمالي يرد على أبي جندب، لما أغارت ثمالة على بني قرد، فظفرت:

ألم تسأل الأطلال من أم جُندَب
عَفَتْ غيرَ تأميرِ الرِّباع ومِذْنَبِ
مَهاةٌ برمل هَلَّبَتْه عشيةً
بقطر ولولا العهدُ لم يَتَهلَّبِ
أبا جُندَبٍ والفخرُ إن كنت فاخراً
أبا جُندَبٍ عند القطيع المصلَّبِ
أبا جُندب وإذ يقول خُويلدٌ
بذات المجاز أُدْرِكَ القومَ فاذهبِ

---

(١) انظر، ابن عبدربه، العقد، ج ٥، ص ص ١٣٣ - ٢٦٨ .

تحثُّك لَـمَّا استلحمت أخرياتُهم
وأدرِكَ رَيْعان السَّوام المجرَّبِ
أتتك بنو عمرو بن عوف كأنهم
بكل مَكَرٍّ أُسْدُ أذناب شَوْقبِ
يَعُرُّون بيضاً كالمصابيح في الدُّجى
ويُلقون عنها كلَّ غِمْدٍ مُذَهَّبِ
يقعن فما يبقين إلا قُطاعةً
وخيَّبن ما أبقَيْنَ كلَّ مُخَيَّبِ
وأصلعَ قِرْدِيٌّ رددنا أُحاحَه
بنافِحة كأنها عَطٌّ مِجنَبِ
رددنا إليه من حَرَادَة نفسه
فخرَّ صَريعاً في مَصيرٍ مُتَرَّبِ
وحتى تركنا في تآمير دراهم
هريرَ كِلابٍ يَهْتَرِشْن وأذؤُبِ
يطُفن بأجداث وهامٍ وتعتري
وَزِيمَ عُراقٍ بعد لحم مُوَرَّبِ
وذي إبلٍ منهم رددنا صِحابَها
وذا ضِغْنَها على الذَّلُولِ المؤدَّبِ
فظلَّت مناقيها المطافيلُ عُطَّلاً
تُحازُ وأمسى ربُّها غيرَ مُعقَبِ
إذا حضر البَوشُ الفضا فضلَ زادنا
نحرنا صفاياها ولم نتهيَّبِ

ونحن أناسٌ لا نَشِيمُ سيوفَنا
ظِماءً إذا التَمّت بوِردٍ لِمشربِ
ويُلفَى مُنادينا كذي العهد بيننا
إذا كان جارُ القوم فقعاً بِمذنَبِ
ومن يَعْتَصِم منا بحبل فإنه
مُمسِّكُ أسبابٍ بحبل مؤرَّبِ
أبى عِزُّنا إلا عُلُوّاً فمن يَرُم
إليه طُلوعاً يحتَقِبْ حظٌّ أخْيَبِ
وطئنا الأعادي وطأةً يعرُبيةً
أباحت حماهم بين شرق ومغربِ(١)

وإذا فهمنا هذه الظاهرة، في ضوء الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ثم ميزنا تمييزاً دقيقاً بين الحالات، في إطار رؤية واحدة، علمنا أن كل القبائل كانت تجد ذلك حقاً مشروعاً. جاء في الحديث الشريف، عن عدي بن حاتم الطائي: "بينما أنا عند رسول الله ﷺ، إذ أتاه رجل، فشكا إليه ... قطْعَ السبيل، فقال: يا عدي: هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها .. قال: فإن طالت بك حياة، لَتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة، تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله. قلت: ـ فيما بيني وبين نفسي ـ فأين دُعّار طيِّئ، الذين قد سعَّروا البلاد"(٢).

(١) الضامن، قصائد نادرة، ص ٨٣. تأمير: علامة. الرِّباع: المنازل. المذنب: مَسيل الدماء. المهاة: البقرة الوحشية. هلبته: بلَّلته. القطر: المطر. العهد: الغيث. المصلب: الذي اشتدّ وقوي. استلحمت: التقت. ريعان: أوائل. السوام: الإبل. المجرب: التي أصابها الجرب. شوقب: اسم موضع. الحرادة: الغضب. مترب: متعفر بالتراب. الهرير: النباح الشديد. يهترشن: يتعاركن. أذؤب: ذئاب. أجداث: قبور. الهام: الرؤوس. الوزيم: اللحم المقطع. عطلاً: بلا أطفال. نشيم: نسل ونغمد. يلفى: يوجد. يحتقب: يجعله كالحقاب، أي تكون عاقبته.

(٢) شمس الدين، محمد بن يوسف بن علي الكرماني، شرح صحيح البخاري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ج ١٤، ص ١٦٤. سعروا: أخافوا وأرهبوا.

فهنا "قطع السبيل" : ظاهرة غير مختصة بأحد في كل مكان، وهنا "قطع السبيل" : ظاهرة مختصة بـ "دعار طيِّئ" ، وهؤلاء يقطعون الطريق فيما بين الحيرة ومكة؛ أي: يتعرضون للقوافل القادمة من العراق، مارة بشرق سلمى، وفيما بين شمال القصيم حتى جنوبه الغربي، وهم بين أهليهم آمنين، يعُدّون ذلك شجاعة ومروءة، ولم يسمهم عدي "صعاليك" إلا أن الكلمة "دعار" مرادفة لها.

وماذا عن ربيعة بن مكدّم، حامي الظعينة؟[١] أكانت تسير الظعائن من نواحي الجُحفة وغزال، جنوب غربي المدينة، دون حراسة؟ وأليست حكاية عمرو بن معدي كرب الأخرى عن ربيعة بن مكدم[٢]، دليلاً على الغزو "الصعلكة" : "قطع السبيل" ؟ وهل هَزَم ربيعة بن مكدم غامد وحده[٣] إلا بطريق الغزو "الصعلكة" . إذ أين بلاد غامد من بلاد ربيعة، فبينهما مسافات وجبال؟

يقول ذو الرمة:

أبى عِزُّ قومي أن تَخافَ ظعائني

صباحاً وأضعافُ العَديد المُجَمْهَر[٤]

وهذا تصبيح، تهاجم فيه الظعائن سائرة. ولا داعي لمزيد من الشواهد.

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٦، ص ص ٢٤ - ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٣٤ - ٤١.

(٣) الجاحظ، البيان والتبين، ج١، ص ٢٤٩.

(٤) ديوانه، ج ٢، ص ٦٣٣.

الفصل السادس

قصائد نموذجية

١- مالك بن نويرة في يوم مخطط :

وَردُّوا عليهم سَرْحَهم حول دارهم
ضِناكاً ولم يَستأنفِ المتوحِّدُ
حُلول بفِردَوس الإياد وأَقبلت
سُراةُ بني البَرشاءِ لَمَّا تأيَّدوا
بألفين أو رادوا الخميس عليهم
لينتزِعوا عِرقاتِنا ثم يُرغِدوا
ثلاثَ لَيال من سَنام كأنها
بَريد ولم يَشْوُوا ولم يَتزودوا
وكان لهم في أهلهم ونسائهم
مَبيتٌ ولم يَدروا بما يُحدِثُ الغدُ
فلما رأوا أدنى السَّوام معزِّباً
نهاهم فلم يَلووا على النَّهي أسودُ
وقال الرئيس الحوفزان تَلبَّبوا
بني الحصن إن شارفتمُ ثم جدِّدوا
فما فَتِئوا حتى رأوْنا كأننا
مع الصبح آذيٌّ من البحر مُزبِدُ
بملمومة شهباءَ يَبرُق خالُها
ترى الشمس فيها حين ذرّت تَوقَّدُ

فما بَرحوا حتى علَتْهم كتائبٌ
إذا لَقِيَت أقرانَها لا تُعرِّدُ
ضَممنا عليهم طائفَيهم بصائبٍ
من الطعن حتى استأسَروا وتَبَدَّدوا
بسُمْرٍ كأشطان الجَرور نواهل
يجور بها زَوٌّ المنايا ويَقصِدُ
ترى كل صَدْق زاعبيٌّ سِنانه
إذا بَلّه الأنداء لا يتأودُ
يقعن معاً فيهم بأيدي كُماتِنا
كأن المنون للأسنة مَوعدُ
تُدِر العروقَ الآنيات ظُباتِها
وقد سَنّها طَرٌّ ووقع ومِبردُ
فأقررتُ عيني حين ظلُّوا كأنهم
ببطن الإياد خُشْبُ أَثْلٍ منضَّدُ
صريع عليه الطيرُ تَنْتخ عينَه
وآخر مكبولٌ يميل مقيدُ
لدن غدوة حتى أتى الليل دونَهم
ولا تنتهي عن ملئها منهمُ يدُ
فأصبح منهم غِبَّ يومٍ لقائهم
بقيقاءةِ البَرْدَين فَلٌّ مُطرَّدُ
إذا ما استبالوا الخيلَ كانت أكفُّهم
وقائع للأبوال والماء أبردُ

كـأنـهـم إذ يـعـصـرون فُـظـوظَـهـا
بـدِجـلـةَ أو فَـيْـض الخُـرَيـبـة مَـوْرِدُ
وقـد كـان لابن الحوفـزان لـوِ انـتـهى
سُويـدٌ وبسـطامٌ عن الـشر مَـقـعَدُ(١)

---

(١) الأخفش الأصغر، كتاب الاختيارين، ص ص ٤٥٣-٤٥٦ .

السرح: الإبل السارحة في المرعى. الضناك: الشديد الحلق الموثقة.

لم يستأنف المتوحد: أي لم يبتدئ المنفرد رعياً. فردوس الإياد: غرب الحفر. بنو البرشاء: ذهل وقيس وشيبان، أبناء ثعلبة ابن عكابة .

تأيدوا: تقووا : أصبحوا ذوي أيد. العرقات: الأصل. يرغد: يعيش في رغد. سنام: جبل.

البريد: الرسول. يريدو أنهم واصلوا السير في تلك الليالي، فكانت كليالي البريد المرسل.

السوام: الإبل السائمة. المعزب : المبعد . أسود : رجل. الحوافزان: سيد بين شيبان، وهو الحارث ابن شريك.

الحصن: هو ثعلبة بن عكابة. الآذي : الموج.

الململومة : الكتيبة المجتمعة، وهي شهباء ، لكثرة ما فيها من السلاح. الخال: اللواء. عرد: فرّ.

طائفيهم: جانبيهم. الجرور: البئر البعيدة القعر.

زوّ المنايا : ما انزوى من المنايا، أي: مال إليهم، والمنايا: جمع منية، وهي الموت. الزاعبي: منسوب إلى زاعب، وهو رجل كان يعمل الأسنة .

الآنيات: الشديدة الحمرة. الطر: التحديد. الوقع: التحديد بالمطرقة. الأثل: شجر له أصول غليظة . تنتخ: تقلع. القيقاءة: الأرض الغليظة.

البردان: غديران إلى الغرب من الحفَر. الوقائع: جمع وقيعة، وهي نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء. الفظوظ: جمع فظ، وهو الماء يخرج من الكرش. الخريبة: موضع .

وانظر، إغارة الحوفزان، الحارث بن شريك، هذا على بني سعد بـ"القاعة" وأخذه نعماً كثيراً منهم؛ ابن عبدربه، العقد، ج٥، ص١٩٩ . وكان يقدم عليهم من شمال العراق، بالجزيرة الفراتية، قاطعاً حزن بني يربوع، ليصل إلى غرب الأحساء، جهة النعيرية.

٢- وقال الأخنس بن شهاب التغلبي:

صحا قلبي الغداةَ عن التَّصابي
وبُدِّلَ لهوه طولَ انتصابِ
تقول لي ابنةُ الكعبيِّ ليلى
أجِدَّك لا تَملُّ من اغترابِ
وحسبك بلدةٌ يُغنيك فيها
يعود عليكَ صرفي واكتسابي
وَدُهْمٍ لم أرِثْها عن صديقٍ
صَفايا من لَبونِ بني غُرابِ
أُناهِبُها المغيرَةَ كلٌّ يوم
بمُسنِفةٍ كضِروة ذي كِلابِ
تُباعدني إذا ما شئت منهم
وتُدنيني إذا كرهوا اقترابي
وتُصدِرني كما قد أوردتني
كأني بين خافيتَيْ عُقابِ(١)

(١) المصدر نفسه، ص ص ١٧٣-١٧٤.

الدُّهم: الإبل، لونها نحو الصفرة، إلا أنها أقل سواداً، الصفايا: ما اختاره الرئيس قبل قسمة الغنيمة.

اللبون: ذات اللبن من النوق.

بدل لهوه طول انتصاب: أي بُدِّل تعباً ونصباً.

حسبك بلدة يغنيك فيها صرفي واكتسابي: عائداً عليك، لا ينقطع عنك ذلك ما كنت حياً.

بنو غراب: بطن من طيِّئ.

المسنفة: الفرس تتقدم الخيل.

الضروة: الكلبة الضارية.

الخافية: واحدة الخوافي، وهي الريشات التي تَخفى، إذا ضم الطائر جناحه.

٣- ويكفي للتدليل على الغزو بكل أبعاده، قول ربيعة بن الجحدر اللحياني، الهذلي، يرثي أُثيلةَ بنَ المتنخّل الطابخي الهذلي، الذي قتلته فَهْم:

وخَرقٍ إذا وَجَّهْتَ فيه لغزوة
مَضَيْنَ ولم تَحْبِسك عنه الكوادسُ
وذي إبل فجّعته بخيارها
فأصبح منها وهو أسوانُ يائسُ
فأصبحتَ قد أعتقتَ من كلّ غالب
طوالَ الذُّرى منها المخاضُ العَرامسُ
وحيٍّ جياع قد مَلأتَ بطونهم
وأنطقتَ بعد الصمت من هو ناكسُ
وقِرنٍ كَمِيٍّ قد تَركتَ مجدَّلا
تَطوف عليه الخامعاتُ اللّغاوِسُ
وطعنة خَلسٍ قد طعنت مُرِشّة
يُمجُّ بها عرق من الجوف قالسُ(١)

فلك أن تفهم هذا على أنه "غزو" فردي واحداً أو اثنين (لأن ربيعة كان معه

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص ص ٦٤٤-٦٤٦. الكوادس: العواطس التي يتطيّرون بها. أسوان: حزين بائس.
أعتقت: أنجيت، وسبقت بالإبل، أي: طرتها.
المخاض: الحوامل. العرامس: الشّداد.
ناكس: من كان ناكساً رأسه ذليلاً.
قرن: خصم. كمي: شاكّ السلاح.
الخامعات: اللاتي في مشيتها اضطراب، يعني الضباع.
اللغاوس: جمع اللغوس، السريع المآكل، يعني الضباع.
خلس: خفية. مرشة: تُسيل الدمّ.
قالس: يقيء الدم.

حين قُتل)، أي: صعلكة، والهدف هو أخذ الإبل، من صاحبها أيّاً كان، فهو غير محدّد بأنه بخيل أو غني، ووقع هذا خارج نطاق لِحيان، عشيرة الشاعر، بل خارج هذيل بعامة، إذ وقع الهجوم على فَهْم، القبيلة المجاورة لهذيل، في اللِّيث. والصورة، بشكل عام صورة فارس، كريم، يغزو، مثل أي سيد "رئيس"، يغزو ليغيث الجياع من أهله وعشيرته، ومن يرتاد مجلسه. ولك أن تفهمه، وهذا هو قول الشاعر نفسه "غزوة" كأي غزو يقوم بها رئيس، للأهداف السابقة. ثم عليك أن تضع هذه الصورة في إطارها الصحيح من شعر الحرب في الجاهلية.

٤- وهذا هو الأسود بن يعفر تنطبق عليه صفات "الصعلوك" وممارساته كلها، وهو كذلك في العرف والعادة، غير أنه يحمل كل معاني الشرف والاعتزاز المقترنة بالسيادة والغزو، يقول:

ومربأٍ كالزُّجِ أشْرَفْتُه
والشمسُ قد كادت ولم تَغرُبِ
تَلُفُّني الريحُ على رأسه
كأنني صقر على مرقبِ
ذاك ومَولِيٌّ يَمُجّ الندى
قُريانه أخضر مغلولبِ
قفر حمته الخيل حتى إذا
زاهره أغشي بالزَّرنبِ
جادَ بما كان قريانه
بالنجم والنثرة والعقربِ
كأن أصوات عصافيره
أصواتُ راعي ثُلَّة مُخْصِبِ

قُـــدْتُ بـه أَجْـــرَدَ ذا مَـــيْـــعَـــة

عَـبْلَ الـشَّـوى كـالـصَّـدَع الأشـعبِ

فـــرداً تُـــغـنـــيـني مُـكـاكِـيُّه

تَـغَـنِّـي الـوِلـدان في المـلـعبِ[1]

صعود مرقبة، وتربص مساء، ثم إغارة ونهب، هذه حالة. وحالة أخرى هجوم على مراتع الإبل، وقت إخصابها، على ظهر فرسه، للهدف نفسه: السلب والنهب.

فمن الصعلوك بعدئذ؟

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق: نبيل طريفي (بيروت: دار صادر، ١٩٩٢م)، ج١، ص ص ٤٤١-٤٤٢.

الزج: السِّنان. المولي: أرض سقاها الوَلْيّ، أي: المطر. يمج: يدفع.

القريان: جمع القَرَى، وهو مجرى الماء إلى الرياض. مغلولب: كثيف.

قفر: خالٍ. أغشي: غُطِّي. الزرنب: نبات طيب الرائحة.

النجم والنثرة والعقرب: نجوم. الثلة: القطيع.

الأجرد: القصير الشعر. الميعة: الجري السريع.

العبل: الضخم. الشوى: سواد في قوائم الفرس.

الصدع: الشق. الأشعب: المتفرق.

وانظر: المرزباني، معجم الشعراء ص ص ١٧٤-١٧٥.

الفصل السابع

النظرة الأحادية لـ "الصعاليك" في الجاهلية

الصعاليك: لصوص:

لا شك أن مفهوم "الصعلوك" (الغازي) لم يكن مفهوماً سائداً عند كل القبائل، وفي كل اللهجات، فبعضها كان ينظر إلى أولئك على أنهم "لصوص"، بينما يعد هذه الأعمال في محيطه، شجاعة ومروءة؛ إذ نجد امرأ القيس يقول:

وكم دونها من مهمَهٍ ومَفازةٍ

وكم أرض جدب دونها ولصوص[1]

ويقول لبيد:

وغادرت مَرهوباً كأن سِباعه

لصوص تَصدّى للكسوب المحَاولا[2]

وهنا استعمل امرؤ القيس ولبيد صفة اللصوص، وليس عمل هؤلاء بمختلف عن عمل أي "صعلوك" من "صعاليك" السَّراة، أو مَنْ جاء وصفهم في قول حاتم الطائي. كما نجد الأعشى يستعمل وصفاً آخر هو "السراق"، فيقول:

إذْ أنتمُ بالليل سُرّا

قٌ وصُبْحَ غَدٍ صَرارَه[3]

وهذا هو الوصف الذي سيستعمله جرير في وصف "صعاليك" ما بين الحَفَر والقصيم، وحتى جهات ضَرِيَّة ممن كان ما يزال يستحضر الماضي، ولم يستطع التكيف مع الأوضاع الجديدة في الإسلام.

واستعمل عبدة بن الطبيب صفة نادرة للصعاليك في شرق الجزيرة، فيما بين الأحساء وعُمَان وهي: "الرواطي"، والصورة التي نقلها هي طبق الأصل لكل

(١) ديوانه، ص ١٧٧. مهمه: أرض مجهولة. مفازة: صحراء بعيدة.

(٢) ديوانه، ص ٢٣٥. المرهوب: الوادي المخوف. تصدى: تتصدى.

(٣) ديوانه، ص ١٦١. صرارة: لا مفرد لها، تعني الذي لم يتزوج.

أعمال الصعاليك، فيقول:

وخـــافـــوا الـــرواطي إذا عَـــرّضت
مَلاحِسَ أولادهن الـــبـــقـــرْ[1]

ومهما كانت التسميات، فإن من طُرق هؤلاء الاستيلاء على ما يعدُّونه غنيمة سلباً، يقول تأبط شراً:

ستأتي إلى فهمٍ غنيمةُ خُلسَةً
وفي الأزد نَوحُ خُلَّةٍ بعويلِ[2]

وهنا "غنيمة" أي: كسب. ويعيدنا هذا إلى قول لبيد السابق:

....
تـصدى لـلـكـسـوب المحَـاولا

فمع أنه نفسه يذكر أن هذا النوع من الغزاة ذاهبون للكسب، في غير ثأر ولا حرب، وإنما تعدٍّ ومباغتة، فإنه يصف من يتعرّض لهؤلاء الغزاة (الصعاليك) بأنهم لصوص، بينما الحال واحدة.

المفهوم الإسلامي لـ "الصعاليك" (الغزاة): لصوص، على الحقيقة، لا على المجاز.

قال حُميد الأَرقط، ونسبته له أفضل من نسبته إلى حميد بن ثور، الذي عاش في صدر الإسلام، حيث لم تتبلور الصورة بعد:

مـا فَـتِـئـت مُـرّاقُ أهل المِـصـرَيْنْ
سَقْطَ عُمانَ ولُصوصَ الجُفَّيْنْ[3]

وهذا تعبير منسجم مع التعبيرات في العصر الأموي.

وقال ابن الدمينة:

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، "قطر". الرواطي: ناس من عبد القيس.

(٢) ديوانه، ص ١٩٠. الخلة: ما يؤخذ سلباً. العويل: رفع الصوت بالبكاء.

(٣) ابن منظور، اللسان "جفف". الجفّان: ربيعة ومضر، ومنها بكر وتميم.

ومِنْ أنّى اهــتـــديتِ إلى طــريــدٍ
وأرضُ الأُسْـدِ دونكِ والـلـصـوصُ(١)

وقال الأُحَيمر السعدي:

قل لِلُصوص بني اللَّخناءِ يحْتسبوا
بَزَّ العراقِ ويَنْسَوا طُرْفَةَ اليمنِ(٢)

وقال ذو الرمة، في مدح ابن الجارود السابق ذكره أيضاً، مع ملاحظة الفارق الكبير بين مفهوم "الصعالك" (الصعاليك / الفقراء) في قوله السابق، و"اللصوص" ، "الصعاليك" في قوله الحالي:

لِجارتها أفنى اللصوصَ ابنُ منذرٍ
فلا ضَيْرَ ألا تُغلقي بابَ دارِكِ(٣)

ويجمع بعض هذه الصفات ما قاله الثعالبي:

"ذؤبان العرب، وصعاليك الأعراب، وأصحاب الغارات، وطلاب القوافل، كانوا لا يُؤْمَنون على أهل الحرم ولا غيرهم"(٤).

ثم تتوالى المفردات خارج الاستعمال المجازي، لتعني ما تعنيه على الحقيقة، فمن المفردات في وصف أولئك، مع مراعاة الأصل:

الخارب : سارق الإبل خاصة، ثم نُقِل إلى غيره اتساعاً .. يقال: خَرِب فلان، صار لصاً.

(١) ديوان ابن الدمينة، تحقيق: أحمد راتب النفاخ (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م)، ص ٦٣.

(٢) أبو تمام، الوحشيات، ص ٣٣.
وانظر: الزبيدي، التاج، "طرف".
الطرفة: الاسم من قولهم: أطرفت فلاناً، أي: أعطيته شيئاً لم يملك مثله، فأعجبه.

(٣) ديوانه، ج ٢، ص ٦٦١.

(٤) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ١١٥.

قال أحدهم:

وفي الأرض أوباشٌ وسَبْعٌ وخارِبٌ
ونحن أسَارَى بينهم نتقلَّبُ

وجاء هذا الوصف في قولهم عن أحدهم:

"خارب: .. لا يزال يعدو .. فيأخذ الشاة، أو البعير"(١).

ويقول ذو الرمة:

فجاءت كَذَوْدِ الخارِبَيْن يَشُلُّها
مِصَكٌّ تهاداه صَحارٍ صَرادِح(٢)

وإنما حدد ذو الرمة عدد الفَعَلَة باثنين، وهذه طبيعة نهب الإبل في "الخرابة" (الصعلكة)، غالباً، وإن تجاوزت ذلك في بعض الأحيان.

وجاء وصفهم واضحاً في قول المتنبي:

ومُدقِعين بِسُبْرُوتٍ صَحِبْتُهُمُ
عارِينَ مِنْ حُلَلٍ كاسِين من دَرَنِ
خُرّابَ باديةٍ غرثى بطونُهُمُ
مَكْنُ الضِّباب لهم زادٌ بلا ثمنِ(٣)

الخطاف:

الرجل اللص، الفاسق، قال أبو النجم:

---

(١) ابن منظور، اللسان "خرب".

(٢) ديوانه، ج٢، ص ٩٠٠. يشلها: يسوقها ويطردها. مصك: يعني حماراً شديداً. تهاداه: ترمي به. صرادح: أمكنة مستوية.

(٣) ديوانه، ج٤، ص٤٣٤. المدقع: الذي لا شيء معه.
السبروت: الأرض لا نبات فيها.
الحلل: جمع حلة، وهي الرداء والقميص والعمامة.
الدرن: الوسخ والقذر. غرثى: جوعى. مكن: بَيض. الضباب: جمع ضب.

واستَصْحَبوا كلّ عَمٍ أُمّيٌّ
مِنْ كل خُطّافٍ وأعرابِيٌّ[1]

قاطع الطريق:

جاء في الأغاني:

"كان للعُجير رفيق يقال له: أصبح، وكانا يصيبان الطريق"[2].

وفي تعبير لقدامة، أوضح فيه هذه الحالات يقول:

"الصعاليك، والخُرّاب، والمتلصِّصَة"[3].

وأضاف ياقوت صفة أخرى؛ وهي: "القَتّالون"، فقال عن الهيش بن شراحيل المازني، مازن بني عمرو بن تميم:

"كان الهيش، من قتّال بني مازن، وشجعانها وشعرائها"[4].

وهناك صفة هي: "المُلاّص".

قال أبو الفرج:

"أبو النشناش ... من مُلاّص بني تميم، وكان يعترض القوافل في شُذّاذ العرب، بين طريق الحجاز والشام، فيجتاحها"[5].

وقد مرّ بنا ذكر "الدُّعّار".

ويمثل أبو الطمحان القيني هذا الانتقال من النظرة الشمولية لتلك الأعمال، مما يندرج تحت أعمال "الصعلكة"، الغزو، والنظرة الخاصة؛ فأبو الطمحان القيني أحدُ المخضرَمين من الذين قالوا عنه، في تفاوت بين الموقفين:

"كان شاعراً، فارساً خارباً، صعلوكاً"[6].

---

(١) ابن منظور، اللسان، "خطف".

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ٦٢.

(٣) ابن جعفر، نقد الشعر، ص ٩٥.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، "الغور".

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٢، ص ١٦٧.

(٦) المصدر نفسه، ج١٣، ص ٣. وقالوا عنه، المصدر نفسه، ص ٨: "كان لصاً خارباً خبيثاً".

ولم تضمحلَّ هذه الظاهرة في بوادي العرب وصحاراها، غير أن الملحوظ أنه في الإسلام أصبحت النظرة دينيةً، ففيما ينسب إلى الشاعر المخضرم ابن أحمر، أو إلى شاعر غيره، يُدعى: الأزرق بن طرفة قوله:

رمـاني بـأمـرٍ كـنت مـنه ووالـدي
بـريـئـاً ومن أجل الـطَّـويّ رمـاني
دعـانِيَ لـصـاً في لـصـوص ومـا دعـا
بـهـا والـدي فـيـمـا مـضى رجلانِ(١)

فـ"اللص" هنا، حسب المفهوم الإسلامي، المقترف ذنباً لا يقره الشرع، وتطارد الدولة اللصوص، بينما لم يكن الأمر كذلك الحال في الجاهلية.

وعلى الرغم من هذا، فإن هناك من تجرَّأ على الدين والدولة، وهو ما عبَّر عنه تليد الضبي بقوله:

ألا لـيت شـعـري هل أقـودَنَّ عُـصْـبَـةً
قـلـيلٌ لِـرَبِّ الـعـالمين سـجـودُهـا(٢)

وقال آخر:

أخـشى عـلـيـهـا طـيـئّـاً وأَسَـدا
وخـارِبَـيْـن خَـرِبَـا فَـمَـعَـدا
لا يَـحْـسِـبـانِ الـلـهَ إلا رَقَـدا(٣)

وقال غيره:

خـلـيـليَّ لا تـسـتـعـجلا وتَـبـيَّـنـا
بِـوادي حَـبَـوْنَـى هل لـهـنَّ زوالُ

---

(١) شعره، ص ١٨٦ .

(٢) ياقوت، معجم البلدان، "جرش" .

(٣) ابن منظور، اللسان، "خرب" . معد: اختلس واختطف.

ولا تــيـأسـا من رحـمـة الـله واسـألا
بـوادي حَـبَـونى أن تَـهُـبَّ شِـمـالُ
ولا تــيــأســا أن تُــرزقـا أرْحَـبِـيَّـةً
كـعَـين المَـهـا أعــنــاقُـهنّ طِـوالُ
من الحــارثـــيــين الــذين دمــاؤهم
حـــرامٌ وأمَّــا مـــالـــهُم فــحلالُ(١)

فمع ضعف الوازع الديني، ومع استلهام الثقافة الجاهلية، يجد أمثال تليد ما يدفعهم إلى نهب الإبل، على غرار ما كان يفعل أسلافهم، ولم تكن التهمة إلا : سرقة الإبل وسواها(٢)، ولم يكن الوصف إلا :

"اللص"(٣)، أو قطع الطريق(٤).

ومن هؤلاء، ممن ذكروا أسماءهم:

أيمن بن الهماز العقيلي : اللص(٥).

الخطيم: اللص(٦).

السمهري : اللص(٧).

شظا الضبي : اللص(٨).

طهمان : اللص(٩).

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، "حبونا" . أرحبية: إبل منسوبة إلى "أرحب"، باليمن.
(٢) ابن منظور، اللسان ، "خرب".
(٣) ياقوت، معجم البلدان، "صعدة".
(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢، ٣٠٥ . وانظر، ياقوت، معجم البلدان، "جمران".
(٥) ياقوت، معجم البلدان . "حزيز".
(٦) المصدر نفسه، "بلي".
(٧) المصدر نفسه، "طمية"، وانظر عنه، الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ص ٢٥٦ - ٢٧٣.
(٨) الزبيدي، التاج، "عرق" . وانظر، ياقوت، معجم البلدان، "عرق ناهق".
(٩) ياقوت، معجم البلدان، "صعدة". وانظر عن يعلى الأحول، المصدر نفسه، "شدوان".

عبيد بن أيوب العنبري: اللص[1].

عرقل: اللص[2].

غيلان بن الربيع: اللص[3].

فرعان: اللص[4].

قريب بن مضر بن الشتراء: قاطع طريق[5].

مالك بن الريب المازني، ورفيق له يقال له: أبو حردب: يلصان، ويقطعان الطريق[6].

مرة بن محكان السعدي : أحد اللصوص[7].

مسعود بن خرشة[8].

معاوية بن عادية الفزاري : اللص[9].

واشتهرت جماعات من بعض القبائل بـ"اللصوصية"، كما مرت إشارة الراجز إلى "طيِّئ"، و"أسد". وجاء أيضاً :

بعض لصوص قشير[10].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١، ص ٣٤١.

(٢) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٥٥٥ .

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "سجا".

(٤) الربعي البغدادي، الفصوص، ج ٣، ص ٩٦.

(٥) ابن منظور، اللسان، "شتر". وذكر اللسان، "خرب"، اسمي لِصَّين، خاربين هما: أكتل ورزام.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، "جمران".

(٧) المرزباني، معجم الشعراء، ص ٢٩٥.

(٨) الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص ص٢٧٣، ٢٧٤. وانظر، ج٢، ص٦٥، عن فضالة بن شريك.

(٩) ياقوت، معجم البلدان، "رحا".

ومن هؤلاء أبو الشليل، من بني نفاثة، من عدي بن الديل، من كنانة، انظر، الحازمي، الأماكن، ج١، حاشية الجاسر، ص ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

(١٠) أبو علي الهجري، أبحاث الهجري، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: مطبعة اليمامة، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٧م)، ص ٣٧٧.

كعب بن أبي بكر ، منهم: بنو شَرْقِيّ، وكانوا لصوصاً شياطين[1] .

المُحرزيّون ، من بني عبد شمس : كانوا لصوصاً[2] .

بعض بني أسد : لصوص[3] .

وهناك مواضع اشتهرت بإيواء اللصوص ، منها :

السِّيّ : يأوي إليها اللصوص[4] .

قال عبدة بن الطبيب، ذاكراً جماعة من قطّاع الطريق من عبدالقيس "الرواطي" ، ومنطقة تَعَدِّيها "قطر" :

تَــذَكّــرَ ســاداتُــنــا أهــلَــكم
وخــافــوا عُــمَــان وخــافــو قــطــرْ
وخــافــوا الــرَّواطي إذا عَــرَّضَت
مَلاحِسَ أولادِهن الــبــقــرْ[5]

ومن هذه المواضع:

مبايض[6] من نواحي سدير، شمال غرب الرياض.

طويلع: ـ ناحية حَفْر الباطن ـ وربما تحصّنوا فيه من اللصوص[7] .

بل إن : شروم: قرية كبيرة، عامرة، باليمن، فيها عيون، وكروم، وأهلها همدان، وهم لصوص، يقطعون الطريق[8] .

---

(١) لغدة الأصفهاني، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: مطبعة دار اليمامة، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص ٢١٩ . وانظر ياقوت، معجم البلدان، "الأخرج" .

(٢) ديوان جرير، بتحقيق نعمان محمد أمين طه، ج٢، ص ٦٩٣ .

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "قرح" .

(٤) المصدر نفسه، "السي" .

(٥) المصدر نفسه، "قطر"، وانظر البكري، معجم ما استعجم، "قطر" .

(٦) الأصفهاني، بلاد العرب، ص ٣٣ .

(٧) المصدر نفسه، ص٣١٤ .

(٨) ياقوت، معجم البلدان، "شروم" .

ويكفي أن العلماء وضعوا كتاباً في اللصوص[١].

يقول جرير في بيان موضعين من مواضع اللصوص، ويسمي جماعتهم :

تَغشى النِّباج بنو قيسِ بنِ حنظلة
والقَرْيَتَين بسُرّاق ونُزّالِ[٢]

أما عن أحدهم، فيقول الراجز، مبيِّناً أيضاً المواضع التي كان فيه أولئك اللصوص، ذاكراً أسماءهم وقبيلتهم، وكلهم من بني مازن، من تميم، وليس أبا حردبة، ومالكاً فقط:

الله نجّاك من القصيم
وبطن فَلْجٍ وبني تميمِ
ومن غُويث فاتحِ العُكومِ
ومن أبي حَرْدَبة الأثيمِ
ومالك وسيفه المسنونِ[٣]

وكانت الممارسة هي الاستيلاء على مال الآخرين، أي: إبلهم، يقول تأبط شراً:

وقد صِحْتُ في آثارِ حَوم كأنها
عَذارى عُقيل أو بَكارة حِمْيرا[٤]

وقال أيضاً مبيناً أنه ينهب الإبل وحده، أو مع صحب له:

رأيْنَ فتًى لا صَيْدَ وحش يُهِمُّه
فلو صافحتُ إنساً لصافَحْتَه معا

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، الشباك، "العناقة"، "كباب" . وانظر، عبدالمعين الملوحي، أشعار اللصوص وأخبارهم (دمشق: مطبعة العجلوني، ١٩٧٨م).

(٢) ديوانه، ص ج٢، ص٥٣٨ .

(٣) البكري، معجم ما استعجم، " فلج " . العكوم: جمع عِكْم، وهي الأمتعة على جانبي البعير.

(٤) ديوانه، ص ١٠٠. الحوم: الجمع الكثير من الإبل.
صحت: طردت ونهبت. البكارة: جمع بِكر.

ولـكن أربـابَ المَـخـاض يَـشُـقُّـهم
إذا اقـتـفـروه واحـداً أو مُـشَـيَّـعـا(١)

كما قال، مستعملاً جملة "أطرد نهبا"؛ أي: سرقة الإبل، وحَدّد ذلك ليلاً:

أأطْـرُدُ نُـهـبـاً آخـرَ الـلـيـل أبـتـغي
عُلالـةَ يـومٍ إن تَـعُـوقُ الـعـوائقُ(٢)

وهو قول الشنفرى: إذا عرضت دون الطرائد ....

على أن أكثر ما يناسب السَّراةَ وتهامة هو قوله:

ويـومـاً عـلـى أهل المـواشي وتـارةً
لأهل ركـيـب من ثَـمـيلٍ وسُـنْـبُلِ(٣)

و"المواشي": هنا هي الأبقار والأغنام، و"الركيب" من يزرع - مثلاً - الحب والذرة، والشعير.

ويقول تليد، في نهب الإبل، مستعملاً العبارة ذاتها، "أطردن":

وهل أطرُدَنَّ الـدهرَ مـا عشتُ هَـجْـمَـةً
مُـعَـرَّضـةَ الأفـخـاذِ سُـجْـحـاً خـدودُهـا
قـضـاعـيـةً حُـمُّ الـذُّرى فَـتَـربَّـعَت
حِمى جَرَش قد طـار عنـهـا لُـبـودُهـا(٤)

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٧. المخاض: النوق الحوامل. أرباب: أصحاب. يشقهم: يهزلهم، ويكد عيشهم. اقتفروه: اقتفوا أثره، وتتبعوه.
مشيعاً: أي معه شيعة من مصحبه.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٧. أما التعبير عن الإبل، فيقولون: "الهجمة"، "المخاض"، "الحوم"، ... إلخ.

(٤) ياقوت، معجم البلدان "جرش". معرضة: إبل في عَرْض فخذها وسم. سجح: ليّنة. حم: جمع حماء، أي سوداء.
الذرى: جمع ذروة، أي السنام هنا. جرش: اسم موضع.

وقال غيره:

وإني لأستحيي من الله أن أرى
أطوف بأرضٍ ليس فيه بعيرُ
وأن أسألَ المرءَ اللئيمَ بعيرَه
وبُعرانُ ربيٍّ في البلاد كثيرُ(١)

وقال فرعان، وهو ما يعيدنا لقول السُّلَيك بن السُّلكة: "وما نلتها حتى تصعلكت":

فما نلتُها حتى جَشِمتُ لجَمعها
مَغازيَّ إنَّ الغزوَ فيه مُجاشمُ
وحتى شَددتُ الخَصر مني بمئْزَرٍ
على وَجَلٍ والوجهُ ظمآنُ ساهمُ(٢)

ويصور أيمن الهماز طريقته في الاحتيال لسرقة الإبل، فيقول:

ومن يَرَني يوم الحَزِيز وسيرتي
يَقُلْ رَجُلٌ نائي العشيرة جانبِ
دعا وَيْحَه الخُضْرِيَّ حين اختطفتُها
أجل وهو أن الخُضر خُضر محاربِ
يقول لي الخضريّ هل أنت مُشْتَرٍ
أديماً نعم إن أستطيع تقاربِ
ظَلِلْتُ أراعيها بعينٍ بصيرة
وظل يراعي الأُنس عند الكواعبِ(٣)

---

(١) أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م)، ج١، ص ٢٣٧. وانظر ص ص ٢٣٦-٢٣٩.

(٢) الربعي البغدادي، الفصوص، ج٣، ص ٩٦. مجاشم: مخاطر. الوجل: الخوف. ساهم: شاحب.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "حزيز"، وانظر الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص ص ٤٩١-٤٩٢. ورواية "الحضري"، في الأصل مصحفة، صوابها "الخضري" نسبة إلى خضر محارب. الحزيز: اسم موضع.

وقال بعض بني أسد :

لـقـد عـلـمتْ ذَوْدُ الـكلابيِّ أنـني
لــهنَّ بــأجــوازِ الــفَلاة مُــهــينُ
تَـتـابعْنَ في الأقـران حتى حبسـتـها
بــقُــرحٍ وقــد ألــقــيْنَ كلَّ جــنــينُ
ولَـمَّا رأيت التَّجْـرَ قـد عَـصَـبوا بـها
مــســاومــةً خــفّت بــهنّ يمــيــني
فـأرْأيْتُ مـنـهـا عَـنْـسَـةً ذاتَ جُـلّـةٍ
كـسـرٌ أبي الجـارود وهـو بـطـينُ(١)

ووصف ذو الرمة طريقة هروب أولئك اللصوص بالإبل المسروقة، فقال :

كـأنــهـا إبلٌ يـنـجـو بـهـا نـفـرٌ
من آخــرين أغــاروا غــارةً جــلـبُ(٢)

ويعبّر جخدر عن هِمّته في ما يقول عنه "غزو" والهدف منه، مستخدماً فرسه، لا قدميه :

إن امــرأً يــعــدو وحَــجْــرٌ وراءَه
وجَـوٌ ولا يـغـزوهـمـا لَـضـعـيفُ
إذا حُـلّـةٌ أبْـلَـيْـتُـهـا ابـتـعْتُ حُـلّـةً
كـسـانِـيَـهـا طَـوْعُ الـقِـيـاد عَـلـيفُ(٣)

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، "قرح". وانظر، "صعدة"، "قران". الذود: مجموعة من الإبل. أجواز، جمع جوز، وهو الوسط. الأقران: الحبال. قرح: اسم موضع. التجر: التجار. عصبوا: تحلّقوا حولها. ارأيت: أبرزت. عنسة: ناقة جليلة. وفي البيت الثالث إقواء.

(٢) ديوانه، ج١، ص ٦٠. وانظر، ابن عبدربه، العقد، ج٣، ص٩٨.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "جو". و"حجر": الرياض الآن. جو: منطقة الخرج. عليف: بعير عُلِف للسِّمَن.

وقال عبيد بن عياش البكري، حين طرق / سرق / هو وعارم صاحبهُ، إبلاً لرجل من الحوف، بمصر، حتى أوردها حَجْر اليمامة:

سرت من قصور الحُوف ليلاً فأصبحت
بـ(دجلة) ما يرجو المقام حسيرُها
سَلُوا أهلَ تيماءَ اليهود مَمَرَّها
صَبيحةَ خَمسٍ وهي تجري ضفورُها
ألا لا يبالي عارمٌ ما تجشَّمت
إذا واجهته سوقُ حَجرٍ ودورها(١)

ويقول آخر، هرب بمسروقاته من الإبل من الشام، متَّجهاً صوب اليمن:

تَوَخّى بها مجرى سُهيل وخَلفه
إلى الشام أعلامٌ تطول وتقصُرُ(٢)

وقال بعض العبديّين، وهو يتمنى أن يَستاق أموال عبد القيس:

نجائبُ عبديّ يكون بُغاؤه
دُعاءٌ وقد جاوزْن عُرض الشَّقائق(٣)

وعلى العموم، فأخذ الإبل في الإسلام كان يتطلَّب الهرب بها بعيداً عن مواطنها، حتى لا تعرف، فتجرّ إلى المشكلات، وحتى لو تم تعرّف الجناة، فإن الاستيلاء لم يتم عن مواجهة ومصادمة علنية، بل كان سرقةً واختلاساً، فهذه جُمْل تقول، حين ذهبت الفزْر بإبلها:

---

(١) المصدر السابق، "الحوف".

(٢) الأشنانداني، معاني الشعر، ص١٠٦.

(٣) أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحُولان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٢م) ص ٣٠٤. النجائب: النِّياق الخفيفة السريعة. العبدي: نسبة إلى عبد القيس.
البُغاء: الطلب. الشقائق: رمال بالدهناء.

بـنـي الـفِـزْر مـاذا تـأمـرون بـهـجـمـة
تَلائـدَ لـم تُـخـلـط بـحـيـث نـصـابُـهـا
تــظـل لأبــنــاء الــسـبـيـل مُـنـاخـةً
عـلى المـاء يُـعـطـى دَرُّهـا ورقـابُـهـا
أقــول وقــد ولَّــوْا بــنــهْـبٍ كــأنـه
قـداميسُ حوضى رملُها وهضابُها(١)

والمعتدون من غير بني عامر، الذين تنتمي لهم جمل، والذين يمتدون من ضَرِيَّة حتى بيشة، وسط نجد باتجاه الجنوب الشرقي، وتم هذا السطو في الإسلام، كما هو واضح من قولها: "تظل لأبناء السبيل مُناخةً..." . وهم جاؤوها في غفلة ممن يدافع عنها، مع أنها في موطن حصين، وفي منطقة جبلية رعوية، تستدعي من المهاجمين القادمين من خارج المنطقة قطع مسافات بعيدة، وهم اختاروا إبلاً تستحق المجازفة والمغامرة: "كأنها قداميس حوضى .." .

وأخيراً، فالعمل كله كان سطواً واعتداءً وسرقة: نهباً، وهذه ـ في واقع الأمر ـ هي الصورة النمطية التي يعيشها رعاة الإبل بصفة خاصة، وسكان الجزيرة العربية بصفة عامة، في فترات عدم الاستقرار وانعدام الأمن، ولا بد أن بني الفِزْر قاموا بعملهم هذا في فترات من فترات ضعف الدولة الأموية أو انشغالها.

وشبيه بعمل بني الفِزْر ذاك، وفي الزمن نفسه، فعل لصوص من بني كلاب، قاتلوا حيّاً من غَنِيٍّ، بواد يقال له: العضل، وظفروا بهم، وقتلوا رئيساً لبني كلاب، يقال له زياد بن أبي حميرة، فقال عطية بن القلج الضبابي:

ســائِلْ أبــا بــكــر وسُــرّاقَ جَــمَـلْ
عــنــا وعن حُــرّابــهـمْ يــومَ عَــضَـلْ

(١) ياقوت، معجم البلدان، "منعج". قداميس: جمع قدموس، وهو الضخم العظيم. حوضى: جبل.

إذا قال يحيى توجّوني وارتَحَلْ

وقال من يغويه مالٌ ولا تسلْ

ودون ما منّوْه ضربٌ مُشْتَعِلْ(1)

أما نهب الحاج - في الجاهلية أو الإسلام - فهو ذو النمط نفسه؛ ففي الجاهلية نجد مثلاً بني عامر، من سكان منطقة تثليث – بيشة، أسفل سَراة الحجاز شرقاً، تعتدي على حجاج اليمن المارّين بديارهم، يقتلونهم، ويأخذون ما عندهم(2).

وفي الإسلام استمر الوضع كذلك، يترصد هؤلاء الحجاج، فيعتدون عليهم، ويستولون على أمتعتهم، بل يقتلونهم إذا استدعى الأمر، يقول جرير يعير العباس ابن يزيد الكندي:

إذا مرَّ الحجيج على قُنَيعٍ

دَبَبتَ الليلَ تَسْتَرِقُ العِيابا(3)

وينقل سليمان بن عياش صورةً جليةً لهذا العمل، فيقول:

يَقَرُّ بعيني أنْ أرى بين عُصبةٍ

عراقيةً قد جُزَّ عنها كِنابُها

وأن أسمع الطُّراقَ يلقون رُفقةً

مخيمةً بالسِّيّ ضاعت ركابُها

أُتيح لها بالصَّحن بين عُنيزةٍ

وبُسيان أطلاسٌ جُرودٌ ثيابُها

ذئاب تعاوَتْ مِنْ سُليمٍ وعامرٍ

وعبسٍ وما يَلقى هناك ذئابُها

---

(1) المصدر السابق، "العضل". وانظر الحربي، المناسك، حاشية ص ٦١٣.

(2) الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص ٢١٤.

(3) ديوانه، ج٢، ص ٦٥١. وانظر ديوان الفرزدق، ج ٢ ص ٧٦٠. قنيع: اسم موضع. العياب: الحقائب، جمع عيبة، وهي من جلد.

ألا بــأبي أهـل الـعــراق وربـحـــهـم
إذا فُـتّـشت بـعـد الـطّراد عـيـابُـهـا[١]

صورة طبق الأصل لما كان عليه أسلافهم، لم يتغير شيء أبداً، إنهم يتربصون حجاج العراق العابرين إلى مكة عن طريق نجد، من ناحية نخلة الشامية، وفي وسط مهمهة، وتيهاء مخيفة في صحراء رُكْبَة، حيث يختبئ أولئك اللصوص. وهولاء في الاسلام، في العصر الأموي، يتجمعون من القبائل المتجاورة، ليفوزوا بالغنائم التي يحملها أولئك الحجاج، فيُخيفون الحُجّاجَ، ويروّعونهم، بعد أن يُعجزوهم عن الدفاع عن أنفسهم، ويستولوا على ما جاؤوا به نفقةً وزاداً لهم، وما حملوه من أمتعة الطريق.

وهذا هو جرير، يعيِّر البراجم بسرقة الحاجّ في قاع بولان، فيقول:

ســودٌ يــقــلن إذا الجــأن مــا ســرقــوا
يــاربّ بــارِكْ لــنــا في قــاع بــولان[٢]

وكان "بولان": شمال الأسياح، بالقصيم، موضعاً تسرق فيه العرب متاع الحاج[٣].

وكان المحاربي، وهو يلتمس الحجاج في تلك القطعة من الأرض، يقول:

تَـلْـتَـمِس الـطُّـرّاقَ وقتَ الـعُـتْـمَهْ
ولـلـسِّـبـاع وَهَجٌ وهَـمْـهَـمَهْ
في مَـهْـمَهٍ يُـجـيـزُه مَن عـلِـمَهْ
ونَـهـتـدي فـيه بـرأس الحَـلَـمَهْ[٤]

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، "بسيان"، والرواية فيها تداخل، وإن كشفت عن مدلولها، انظر، الحربي، المناسك، ص ص ٦١٣ - ٦١٤.. الكناب: الشمراخ. الطراق: الآتون ليلاً. "السي" و"بسيان": موضعان شرق مكة. جرد ثيابها: ثيابها مآزر قصيرة.

(٢) ديوانه، ص ٥٨٢. وانظر، ص ٥١٨. أي: إنهم كانوا يسرقون الحجاج، ثم يحرزونه هناك، وهو منزلهم.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "بولان".

(٤) ابن بليهد، صحيح الأخبار، ج ٢، ص ١٥٦.

ولدينا حادثة طريفة جداً حكاها الفرزدق، تقول:

وكم عن جَناب لو تَلَبَّث لم يَؤُبْ
إلى أهله إلا بكُرسوعٍ ومِرفَقِ
فمنهن عند البيت حيث سرقتَه
متاعَ أبي زَبّانَ في أيِّ مَسْرَقِ
بمنزلةٍ بين الصَّفا كنتما بها
وزمزم والمسعى وعند المُحلَّقِ
ومنهن إذ راعى جنابا وقد دنا
إلى باب مِغلاق الشَّبا غير مُغْلَقِ
فلما رأى أنْ قد كررتُ وراءه
تَكَشَّر والحَوباء عند المُخَنَّقِ
تَكَشُّرَ مكروبٍ يُتَلُّ وكم رأى
على باب سَلْمٍ من أَكُفّ وأَسْوقِ
فلو أنني داويتُ قوماً شفيتُهم
ولكنني لاقيت مثلَ الجَلَوْبَقِ
وكنت أرى أن الجَلَوْبَقَ قد ثوى
فَيَنْفُقُ لي من بين رُكْنَي مُخَفَّقِ(١)

فـ"زبان" تاجر، سرق جنابٌ متاعَه، في أثناء الحج، ثم إن جناباً حاول سرقة بيت

(١) ديوانه، ج ٢، ص ص٥٨٤ - ٥٨٥، وانظر، سرقة الحاج أيضاً في المصدر نفسه، ج ٢، ص٧٦٠.
الكرسوع: طرف الزند مما يلي اليد، أي إنه كان يؤوب مقطوع اليد كاللصوص.
الشبا: لعله يعني الكريم مُوقِدَ النار.
الحوباء: النفس. المخنق: أراد العنق. ثوى: مات.
ينفق: يخرج. مخفق: اسم موضع.
وانظر، ياقوت، معجم البلدان، "بئر مطّلب".

الفرزدق، والفرزدق يذكر أن عقوبة السرقة هي قطع يد السارق، كما يذكر لصاً شهيراً في زمانه، في الدهناء حيث "مخفق"، هو "الجلوبق". وقد بيَّن الفرزدق هنا شدة العقوبة التي توقَع على الخارجين عن النظام.

وقد أصبح الاعتداء على الحجيج ممارسةً اعتيادية بين لصوص القبائل، في الجزيرة العربية؛ إذ يتعرضون حين خروجهم للحج لهجمات هؤلاء، ولم تكن تردعهم إلا العقوبة الصارمة، يقول جرير في الحجّاج:

منع الرُّشاء وأراكمُ سُبُل الهدى

واللصُّ نكّله على الإدلاجِ

وبعده:

ولقد كسرتَ سِنانَ كلِّ منافق

ولقد منعتَ حقائبَ الحجاجِ(١)

وعلى العموم، فهذا يعلى الأحول، وهو من الشعراء الغزاة "الصعاليك"، المبكِّرين في عهد الدولة الإسلامية، في أوئل العصر الأموي، وهو نموذج من نماذج الغزاة "الصعاليك" في السراة: جبال الحجاز الممتدة شرق الطائف جنوباً، وهو من بني شِهر، موطنه في نواحي جنوب بالجرشي، تراءى له أن يقوم بمثل ما كان الجاهليون يقومون به، فيغير / يغزو / يتصعلك / ويقطع الطريق، وقطع الطريق بعض أعمال أولئك المتربِّصين بالمارّة، والمتعرِّضين لهم، وفي ظنه أنه سيجد حماية من عشيرته؛ لأن مثل هذه الأعمال مقبولة اجتماعياً في الجاهلية، دون أن يحسب حساباً للمتغيرات الجديدة، يقول عنه أبو الفرج:

"شاعر، إسلامي، لص، من شعراء الدولة الأموية .. كان لصاً، فاتكاً، خارباً، وكان خليعاً، يجمع صعاليك الأزد، وخلعاءهم، فيغير بهم على أحياء العرب، ويقطع الطريق على السابلة، فشُكِي إلى نافع .. خال مروان بن الحكم، وكان والي

---

(١) ديوانه، ج ١، ص ص١٣٨- ١٣٩.

مكة، فأخذ به عشيرته الأدنين، فلم ينفعه ذلك، واجتمع إلى شيوخ الحيّ، فعرفوه أنه خليع قد تبرؤوا منه ومن جرائره إلى العرب، وأنه لو أُخذ به سائر الأزد، لما وضع يده في أيّهم، فلم يقبل ذلك منهم، وألزمهم إحضارَه، وضَمّ إليهم شُرَطاً يطلبونه إلى طرق الحيّ حتى يجيؤوا به، فلما اشتد عليهم في أمره، طلبوه، حتى وجدوه، فأتوا به، فقيّده، وأودعه الحبس"(١).

وقد مر بنا وصف أبي الفرج لأبي النشناش:

"وكان يعترض القوافل، في شُذّاذ العرب".

ثم تداخلت الصفات، وابتعد من يمارس هذه الأعمال عن جو الغزو - خلسة - أو حتى جهاراً، كما عهده سكان السَّراة، وتهامة، ومناطق الجزيرة الأخرى، وأصبحت صفة "اللص" و"اللصوص" تستعمل في غير علاقة بمفهوم الغزو / الصعلكة، يقول ابن خرداذبة، عن بعض نواحي شط العرب:

"أهلها لصوص يقطعون على المراكب، ولا زرع لهم، ولهم نخل وإبل"(٢).

إذن، فمفهوم الغزو / الصعلكة مفهوم ضيّق، ومفهوم اللصوصية مفهوم واسع.

أما السرقة، وهي المفهوم الإسلامي لكل عمل يستهدف أموال الآخرين خلسةً، أو عَنوة بالسطو المسلح، فهي ليست من شِيَم العرب في الجاهلية، ولا تندرج تحت عاداتهم وتقاليدهم؛ ولهذا، نسب ذو الرمة قوماً من العرب - هجاءً - إلى غير العرب، فقال:

زُرقُ العيون إذا جاورتَهم سرقوا
ما يَسْرق العبدُ أو نابأتهم كذبوا(٣)

هم غير عرب، عجم، "زرق العيون"، وأفعالهم دونية فعل العبيد.

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢، ص ١٤٣، وانظر ياقوت، معجم البلدان، "شدوان".

(٢) أبو القاسم، عبيدالله، بن عبدالله بن خرداذبه، المسالك والممالك، (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٧م)، ص ٦٠.

(٣) ديوانه، ج ٣، ص ١٥٧١. نابأتهم: خابرتهم.

وكما هو ملحوظ، فقد وضعنا كلمات "صعلكة"، و"صعاليك"، و"صعلوك" بين أقواس صغيرة للدلالة على عدم ملاءمتها لواقع العصر الإسلامي، فمن مارس هذا العمل في الإسلام، فهو لص، سارق وليس صعلوكاً، حسب الممارسة في الجاهلية. يقول الفرزدق في سمُرة بن عَوْدة، أبي كرشاء، أحد بني مناف بن دارم:

وإنَّ أبا كرشاء ليس بسارق
ولكن متى يَسرق القومُ يأكل[1]

(١) الغندجاني، فُرحة الأديب، ص ١٩١.

الباب الثالث

الانتماء والموطن

الفصل الأول

انتماء الشنفرى

عند النظر في أخبار الشنفرى، نجد القصة الآتية: "كان الشنفرى أسيراً في بني سلامان، فبينما كان يرعى بَهْماً لمولاه مع ابنته، إذ أراد أن يقبلها، فصكّت وجهه، وأخبرت أباها، فخرج ليقتله، فوجده يقول:

ألا هل أتى فتيانَ قومي جماعةً
بما لطمت كفُّ الفتاة هجينَها
ولو علمت تلك الفتاةُ مناسبي
ونسبتَها ظلّت تَقاصَر دونها

وهو ما تفسره رواية أخرى لنشأته، تقول:

"أسرَتْه شبابة بن فَهْم بن عمرو بن قيس عيلان، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج بن عوف بن ميدعان بن مالك بن الأزد، رجلاً من فَهْم، ثم أحد بني شبابة، ففدته بنو شبابة بالشنفرى ... فكان الشنفرى في بني سلامان بن مفرج، لا تحسِبه إلا أحدَهم، حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حِجره .. فقال لها: اغسلي رأسي! يا أخية! فأنكرت أن يكون أخاً، ولطمته، فذهب مغاضباً حتى أتى الذي اشتراه من فهم، فقال الشنفرى: اصدُقني! ممن أنا؟ قال: أنت من الأوس بن حجر"(١).

ومهما كان واقع هذين الخبرين، فإن أهميتهما في معرفة تلك العلاقة العاطفية التي نشأت بين الفتى والفتاة، ويعني ذكر الفتاة أنها بنت صغيرة، في مقتبل العمر، كما يعني قوله: "يا أخية"، أنه نفسه كان صغيراً، وفي سنها، ونص الخبر على أنه من "الحِجْر"، وفخره ذاك يعني أنه من علية القوم، ويكون نسبه: من الأواس "أوس" بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث أي: بنو شهر بن ربيعة بن

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ٢٠١. وانظر، ص ص ٢٠٤، ٢١٥، ٢١٧.

أوس بن الحجر بن الهنو بن الأزد[١].

أو حسبما ساقه أبو الفرج: بنو ربيعة بن الحجر بن عمران بن عمرو بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد[٢].

ويرى ابن بليهد أن قوم الشنفرى بني سلامان، من بني شهر[٣].

ويؤكد الجاسر هذا، على أساس أن: بني سلامان انضموا إلى بني شهر[٤]، فهو يرى التوفيق بين هذا وبين سلسلة نسبه المشهور في زهران عند ابن حزم:

"سلامان بن مفرج بن مالك بن زهران بن كعب بن الحارث بن الأزد"[٥].

أما فكرة الانضمام، فيكفي لردها قول الجاسر نفسه:

"اسم سلامان يكثر في القبائل"[٦].

ثم إن ابن الكلبي يقول:

"قتله بنو سَلامان بن مُفْرِج".

على أن بني سلامان هؤلاء ليسوا من بني شهر، وإنما من زهران[٧].

ومصداق هذا أن عبدالله بن سلمة الغامدي[٨] هو: عبدالله بن سليم بن الحارث بن عوف بن ثعلبة الأزدي، ثم السلاماني[٩]. وأما نسبته إلى بني شهر،

(١) أبو منذر، هشام بن محمد بن السائب ابن الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، تحقيق: محمود فردوس الأعظمي (دمشق: دار اليقظة، ٢٠٠٠م)، ج ٢، ص ١٨٩.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ٢١٥. وانظر، ص ص ١٩٩، ٢٠١.

(٣) محمد بن عبدالله بن بليهد، صحيح الأخبار، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، ج٥، ص ١٥٤. وكذلك جاء في ابن الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، ج٢، ص١٨٩.

(٤) شعر الشنفرى، تعليقات الجاسر، ص ١٤٧.

(٥) جمهرة أنساب العرب، ص ٣٨٦.

(٦) شعر الشنفرى، تعليقات الجاسر، ص ١٣٨.

(٧) ابن الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، ج٢، ص١٨٩.

(٨) الضبي، المفضليات، ص ١٠٥.

(٩) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص٢٠٠. وانظر اختلاف رسم الاسم في الضبي، المفضليات، حاشية، ص ١٠٢.

فمما يُثبت عدم انتقال بني سلامان من زهران إلى بلاد بني شهر أن لدينا حاجز بن عوف بن الحارث ... بن سلامان بن مفرج[1].

ولدينا: عَبيد بن عبد العزى، السلامي، أحد بني سلامان بن مفرج، وهو ابن عم الشنفرى[2].

وأما الاضطراب في النسبة إلى الأواس بن الحجر، فإن الشاعر، زهيراً الغامدي منسوب إلى: بني الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث[3].

ثم إن بني سلامان بن مفرج هؤلاء هم بنو عم الشنفرى[4].

وجاء الشعر ليؤكد هذه النسبة، التي تربط بين "سلامان" بـ "مفرج"؛ ففي ذلك يقول عبيد بن عبد العزى:

سَلامانَ إنَّ المجد فينا عمارةٌ
على الخُلُق الزاكي الذي لم يُكَدَّرِ[5]

كما يقول:

بنو مُفْرِجٍ أهلُ المكارم والعُلى
وأهل القِباب والسَّوام المعكَّرِ[6]

وقال حاجز، ابن عم الشنفرى:

قَومي سَلامان إما كنتِ سائلةً
وفي قريشٍ كريم الخلق والحسبِ[7]

---

(١) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "ثرام".

(٤) التبريزي، شرح المفضليات، ج ١، ص ٣٩٤.

(٥) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ١٣١.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣٤. السوام المعكر: الإبل الكثيرة.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ٢٠٩.

وقال أبو الفرج عن حاجز، في توضيح لصلة النسب تلك، لا بـ "سلامان بن مفرج" فقط، بل بزهران أيضاً:

"حاجز ... بن سلامان بن مفرج بن زهران بن عوف بن ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزد"(١).

ثم إن من بني ميدعان، بني صعب بن مر، شجاعة، إخوة سلامان بن مفرج، وهو شجاعة بن عوف بن ميدعان، وهم الذين قال فيهم الشنفرى :

أُبَغّي بني صعبٍ بحُرٍّ بلادِهم

وسوف ألاقيهم إنِ اللهُ يَسَّرا(٢)

وبدا الجاسر، الذي يجعل بني صعب من زهران، غير متيقِّن من نسبة سلامان(٣). والدليل على أن الشنفرى، ابن عم حاجز، من زهران، وليس من بني شهر، وأنه كان بين بني شهر وزهران حروب، فكانت زهران تغير على بني شهر، في بلادهم، يقول حاجز:

ونحن صَبَحنا الحيَّ يوم تَنُومَةٍ

بملمومة يُهوي الشجاعَ وئيدُها(٤)

ومن المواضع التي يذكرها حاجز، "رتوم"، في قوله، عائداً إلى دياره من غزوته:

ولَمَّا أنْ بدت أعلامُ تَرْجٍ

وقال الرابئان بَدَت رَتوم(٥)

وقال البكري: "رتوم: قارة، قِبَل ترج" (٦)، أي: في ناحيته الغربية.

---

(١) المصدر السابق، ج ٢١، ص ص ١٥٣، ١٥٥ .

(٢) شعره، ص ٦٤.

(٣) شعر الشنفرى، تعليقات الجاسر، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ٢١٥ . الململومة: الكتيبة المجتمعة.

(٥) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ٧٢.

(٦) معجم ما استعجم، "رتوم" .

ومن المواضع التي ذكرها في بلاده، "العصداء"، في قوله:

بـقـارعـة الـغَـرِيف فـذاتِ مَـشْيٍ

إلى الـعَـصْـداءِ لـيس بـهـا مقـيمُ [1]

والعصداء: قرية كبيرة ... بسَراة زهران .. غربي المندق "[2]. أي: غربي الباحة، بما يقارب ٤٠ كم إلى وادي الصدر[3].

وهذه غير "العصداء" المدينة الأثرية، جنوب غربي المخواة، وتقع في وادي الأحسبة[4]. فالأُولى هي التي تقع في ديار بني سلامان بن مفرج، من زهران[5].

ومن المواضع التي ذكرها حاجز، في إغارته على بني شهر: "سَروم: واديان، ينحدران من سراة شمران وخثعم وجبال السرو باتجاه الشرق، ويفيضان في وادي تبالة"[6].

وجاء مصحّفاً في قوله:

ويوم (شـروم) قـد تـركـنـا عِـصابـةً

لدى جانبِ الطَّرْفاء حُمْراً جلودُها [7]

وكان الشنفرى يغير على بني شجاعة، إخوة بني سلامان، من زهران في بلادهم من نواحي "دَحيس"، يقول:

قَـتـيلا فـخـارٍ أنـتـمـا إن قُـتِـلـتُـمـا

بجَوف دَحيس أو (تبالة) يا اسمعا [8]

---

(١) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ٧١ .

(٢) علي بن صالح السلُوك الزهراني، المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران، (جدة: مطبعة مؤسسة المدينة للصحافة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ص ٣٠٩.

(٣) شعر الشنفرى، تعليقات الجاسر، ص ١٥١.

(٤) الزهراني، المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران، ص ٣٠٩.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) الحربي، المعجم الجغرافي لمنطقة عسير، ج ٢، ص ٨٢١.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ٢٠٩.

(٨) شعره، ص ٦٥. وانظر، ابن الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، ج ٢، ص ١٩٩ .

وخبر مقتله يقول:

"أَقْعَدوا أُسَيد بن جابر السلامي، وحازماً البقمي.. بالناصفة من أَبيدة..".

ويقول أيضاً في الموقف نفسه: "قعد بنو الرمد.. فأَشْلَوا عليه كلباً.. ومَرَّ بموضع يقال له: دحيس..".

ويأتي الخبر بتنسيق أفضل كالآتي:

"كان الشنفرى يتطرق بني سلامان، ويغير عليهم.. فأقعدت له بنو سلامان، بني الرُّمد.. ولم يقدروا عليه، وأرسلوا في طلبه كلباً لهم يقال له: حبيش.. فأقعدوا له أسيد بن جابر السلامي وحازماً البقمي.. بالناصفة من أبيدة.. وأقبل الشنفرى..".

فهنا وادي دحيس الذي جاء مصغراً، والاتفاق على أنه مكبَّر، وهو وادٍ يبدأ من أعالي وادي القوارير، بسراة زهران، من الجنوب، وينتهي في وادي تُربة في الشمال[1]. وعلى هذا، فالرواية الصحيحة للبيت هي:

قتيلا فخار أنتما إن قُتلتما
بجوف دحيس أو أبيدة يا اسمعا

وشهرة "أبيدة" لبني سلامان بن مفرج، من زهران، معروفة، وبأعلى الوادي كان مقتله، وركّز البكري على جهة السراة من الوادي، فقال:

"أبيدة: منْزل بني سلامان... بالسراة"[2].

أما "تبالة"، نواحي بيشة، فهي بعيدة عن أبيدة، وأبيدة هي ليست من بلاد بني شهر في الجاهلية[3].

وأبيدة من أعظم الأودية التي تنحدر من بلاد زهران وما حولها، ثم تخترق

(١) شعره، ص ٥٦.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، "أبيدة".

(٣) انظر عن سراة الحجر، حمد الجاسر في سراة غامد وزهران، (الرياض: مطبعة دار اليمامة، ١٣٩١هـ-١٩٧١/م)، ص ٤٤٠، فمن أشهر أوديتهم وادي عبل: من روافد وادي بيشة.

السلسة الجبلية حتى تصل منطقة تُرْبة، فمنطقة الخُرْمَة، والمقصود بها هنا أعلى وادي "أبيدة"، (بيده)، حيث بلاد زهران أعلى (معشوقة)، وذلك أنه كان يأتي من سراة عدوان الفاصلة بين سراة بني مالك وسراة زهران والممتدة شرقاً(١).

وإذا علمنا موقع "العصداء"، أدركنا موقع "أرفاغ فالسرد"، في قوله:

أمشي لدى العصداء أبغي سَراتَهم
وأسلُك خَلاً بين أرفَاغ فالسَّرْد

يقول البكري:

"الأرفاغ: جبل لبني سلامان، وهما جبلان، الأرفاغ والسرد، وبها منازلهم"(٢).

ويراهما الزهراني - مع تصحيح القراءة إلى "السَّوْد" بدلاً من "السَّرْدِ" - و"أرفاغ" إلى "رباع".

"السَّود: تقع فيها قرية دهو".

"السَّود: قريبة جداً من رباع".

"جبل السود: تقع فيه قرية العُدَّية"(٣).

وقياساً على قوله هذا: "أمشي لدى العصداء" يأتي قوله:

أُمَشِّي بأطرافِ الحَماطِ وتارةً
تُنَفِّض رِجلي أُسْبُطاً فعَصَوْصَرا

يقول البكري:

"عصوصر: جبل في ديار بني سلامان بن مفرج"(٤).

فـ"الحماط" يأتي إلى الجنوب الغربي من المندق، أما "أسبط" - وفي رواية

(١) انظر عن هذه المواضع، المرجع السابق، ص ٤٣٩.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، "الأرفاغ".

(٣) محمد بن زياد الزهراني، تصحيح الرؤى عن بيئة الشنفرى (الرياض: مطابع الحميضي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، ص ص ٣٢٣ - ٣٢٤، ٣٤٢.

(٤) البكري، معجم ما استعجم، "عصوصر"، وانظر، ياقوت، معجم البلدان، "بسبط".

"بسبط" -و"عصوصر"، فجبلان في أعالي السَّراة إلى الغرب من المندق، وهذه هي قلب بلاد زهران، التي فيها بنو سلامان بن مفرج. ووفق هذا القياس يأتي قوله:

فإنْ لا تزُرْني منيَّتي أو تُلاقني
أُمشِّ بدَهْرٍ أو عُداف فنَوْرا

وقال البكري:

"دهر: .. من ديار بني سلامان"(١).

كما قال:

"نُوَّر: موضع من بلاد سَلامان"(٢).

وقال ياقوت:

"عداف: واد، أو جبل، في ... السراة"(٣).

ويحدده الزهراني:

"عداف: وهي قرية قريبة جداً من وادي ثروق"(٤).

وهكذا، يكون "دهو": جبلاً في السراة، فكلاهما في ديار بني سلامان بن مفرج، من زهران؛ ذلك أنهم يصفون تنقلات الشنفرى دائماً بين الجبال وبين الأودية. ومرّ أنها مصحفة عن قرية "دهو". ويرى الزهراني أن "نَوَّر"، مصحفة عن (منور): جبل قريب من جبل (السَّوْد) ووادي (منحل)(٥). ويقول الشنفرى:

ويوماً بذات الرَّسِّ أو بطنِ منْجَلٍ
هنالك نبغي القاصيَ المتغوِّرا

ويقول البكري:

---

(١) المصدر السابق، "دهر".

(٢) المصدر نفسه، "نور".

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "عداف".

(٤) الزهراني، تصحيح الرؤى عن بيئة الشنفرى، ص٣٢٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٢١.

"الرس: بئر رواء، لبني سلامان، منجِل: جبل لهم أيضاً"(١).

وتحديد نسبة الموضعين لبني "سلامان بن مفرج"، يجعلهما في بلادهم، بلاد زهران، وهذا هو "الرأس: وهي قرية من أبيدة"(٢).

وقوله: "بطن منجل"، و"القاصي المتغورا" أي الذي يسكن أسفل الوادي، وهنا تصحيف في "منجل"، إذ هو وادي (منحل) المعروف(٣).

يقول زهير الغامدي:

تُبَغّي الإواسَ بأرضِها وسمائها
حتى انتهينا في دَوابٌ تكبُّدا
حتى انتهينا في عِيار كأننا
أَظْبٌ وقد لَبَد الرؤوس من الندى(٤)

وديار الأواس بن الحجر (زهران): غرب الباحة، وتحديداً (المندق) وما حوله، فهناك يقع "عِيار"، كما يقع "دوابّ"، وكلاهما هضبة، قال ياقوت:

"عِيار: هضبة في ديار الأواس بن الحجر"(٥).

أي: هما هضبتان في سراة زهران.

وبهذا يمكن تحديد منطقة زهران التي كان يغير عليها الشنفرى في نطاق جنوب الطائف – أعلى وادي "أبيدة" – بيده – المندق – وادي الصدر. أي سراة زهران(٦).

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، "عصوصر".

(٢) الزهراني، تصحيح الرؤى عن بيئة الشنفرى، ص٣٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٢٤.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، "عيار". أظب: هكذا هو الرسم في ياقوت، ولعله "أضَبٌ"، بالضاد، وخفف الباء للوزن، جمع ضب. انظر، ابن منظور، لسان العرب، "ضبب".

(٥) المصدر نفسه.

(٦) انظر عن سراة زهران، الجاسر، في سراة غامد وزهران.

وبهذا يتبين أن الظن بانتماء الشنفرى إلى بني شهر، من الأواس بن حجر، جاء من تلك القصة ذات الطابع الشعبي التي ورد فيها أنه قال:

ألا هل أتى فتيانَ قومي جماعةً
بما لطمت كف الفتاة هجينها
ولو علمتْ تلك الفتاةُ مَناسبي
ونسبتَها ظلَّت تقاصَرُ دونَها
أليس أبي خيرَ الأَواسِ وغيرِها
وأمي ابنةُ الخَيْرِينَ لو تعلمينها
إذا ما أروم الودَّ بيني وبينها
يَؤُمُّ بياضُ الوجه مني يمينَها(١)

وقال ابن دريد في تعليقه على رواية أخرى لأحد البيتين السابقين:

لقد لطمت تلك الفتاةَ هجينَها
ألا بَتَرَ الرحمنُ ربي يمينَها

"روي بيت في الجاهلية، ولم ينقله الثقات، هو للشنفرى"(٢).

وقد عَدَّ الشنقيطي هذه الأبيات من الأبيات المصنوعة الملفَّقة(٣).

فالشنفرى – إذن – انضمّ إلى فهم، الذين يرد ذكرهم في خبر الشنفرى على أنهم أخوالُه(٤) الذين لجأ إليهم، وهم: فهم بن عمرو بن قيس عيلان، ومنطقة هؤلاء (اللّيث) جنوب مكة، حتى الطائف شرقاً، وهذه هي منطقة انتشارها في

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ٢١٥.

(٢) ابن دريد، الاشتقاق، ص ص ٥٨ - ٥٩.

(٣) انظر، أبا الحسن، علي بن إسماعيل بن سيده، المخصص (بيروت: المكتب التجاري، د–ت)، ج٧، ص ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٤) أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص ٣٨٦.

الجاهلية، ولم ترحل إلى تهامة متأخراً، كما يرى الجاسر(١).

يقول الهمداني: "سراة بني شبابة وعدوان، وغورهم: الليث، ومركوب، فيلملم"(٢).

ويقول ابن حزم:

"دار عدوان وفهم على مقطع البَرام، بقرب مكة على طريق نجد"(٣).

ويوضحها البلادي على أنها:

"جنوب الطائف على نحو من ٣٠كم"(٤).

وإنما كان يتنقل أبناؤها بينها، وكان الشنفرى يتطرّف حتى سوق حُباشة، شرق القنفذة، بنحو ٢٠كم(٥).

وأما عن سبب الانتقال، فالخبر اليقين هو ما صرح به شعره، وهو:

جَزَينا سَلامانَ بنَ مُفرِجَ قَرْضَها

بما قَدَّمت أَيْديهِمُ وأَزَلَّتِ(٦)

وقوله:

وأني لأهوى أن تَثورَ عَجاجَةٌ

على ذي كِساءٍ من سَلامانَ أو بُرْدِ(٧)

---

(١) شعر الشنفرى، تعليقات الجاسر، ص ١٤٢.

(٢) أبو محمد، الحسن بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ص١٢٠. البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ١٥، ياقوت معجم البلدان، "السراة"، "شبابة".

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٤٤.

(٤) عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز (مكة: دار مكة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ج ٥، ص ١٦.

(٥) شعر الشنفرى، تعليقات الجاسر، ص ١٤٧. وانظر، ص ٢٢.

(٦) التبريزي، شرح المفضليات، ج ١، ص ٣٩٤.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ٢١٦.

فالقتل وقع على بني سلامانَ بن مفرج، من زهران، وهم قوم الشنفرى نفسه، والسبب كما صرح به أيضاً:

قتلت حَراماً مهدياً (بملَبَّدٍ)
ببطن منَى وسط الحجيج المصوِّتِ
قتلت بعمرو عبدَ عمرو وبكرَه
وعَوفاً لدى المَعزاء لما استقلَّت[(١)]

وقال أيضاً:

(شفيتُ) بعبدالله بعضَ حُشاشتي
ونلتُ حراماً مهدياً بمهنَّدِ

وبعده:

أضعتم أبي قتلاً فكنتم بثأره
على قومكم يا آلَ عمرو بن مَرْثَدِ[(٢)]

كما قال:

أضعتم أبي إذ مال شِقٌّ وساده
على جَنَفٍ قد ضاع مَنْ لم يُوَسَّدِ
فإن تَطْعَنوا الشيخَ الذي لم تُفَوِّقوا
مَنيَّتَهُ وغِبتُ إذ لم أُشَهَّدِ
فطعنةُ خَلْسٍ منكمُ قد تَركتُها
تَمُجُّ على أقطارها سُمَّ أَسْوَدِ[(٣)]

---

(١) شعره، ص ٩٩. والرواية التي تبدو صحيحة هي "بمهند"، كما في البيت بعده. المعزاء: الأرض الصلبة.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١. وانظر، ص ص ١١٤-١١٥. والرواية في شعره "سَعيت"، وهي تصحيف.

(٣) شعره، ص ١١٤.

فهو طالب ثأر فيهم، يطلبهم بدم أبيه، جاء في شعره:

"نازع مالك رجلاً من قومه جليلاً، فعدا على مالك، فقتله، فلم يطلب قومه ثأره"(١).

وبهذا، لا تثبت عند التحقيق كل تلك الأخبار التي تقول سوى ذلك. وفي شعر الشنفرى ما يؤيد هذا، فلقد جاء في شعره:

"كان الذي قتل أباه رجل من غامد، فبرح بغامد، وأخافهم، من كثرة غاراته عليهم"(٢).

كما فيه أيضاً:

"إن الشنفرى أكثر الغزو في قومه، فنذر به أُسَيْد بن جابر الغامدي"(٣).

ولو صح هذا، لكان "بنو سلامان" من غامد، فالشنفرى منهم، وما هذا إلا تصحيف؛ فـ"أسيد بن جابر"، كما جاء في شعره أيضاً: "أسيد بن جابر السلامي"(٤).

أما أسيد بن جابر السلامي هذا، فهو أخو حرام بن جابر السلامي الذي قتله الشنفرى "ببطن منى وسط الحجيج المصوِّتِ"، وهو الذي ذكره أيضاً:

هــــذا أروني أَسَـــد بن جـــابـــرِ

بــنــبــعــة و(أشــهــم) طــرائــرِ(٥)

وأما بنو الرمد الذين يرِد ذكرهم في خبر مقتله: "فأقعدت له بنو سلامان بني الرمد بن غامد"(٦)، فهم - في ضوء ذلك التصحيف - من زهران أيضاً، وليسوا من

(١) المصدر السابق، ص ٤٤. وضبط "أشْهد"، بسكون الشين، كما في شعره يكسر البيت. أضعتم: قتلتم. جنف: جور وظلم. لم تفوقوا: لم تفوِّتوا. خلس: معجلة. سرعة. تمج: تسيل.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨ وفيه: وابنان له جروران، وإنما الصواب: يجريان.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٦. وانظر ص ٦١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٩. والرواية الصحيحة هي: وأسهم، كما في ص ١١٥. النبعة: القوس.

(٦) المصدر نفسه، ٥٦ وانظر، ص٦٤.

غامد، كما يذهب إلى هذا الجاسر أيضاً في تعلقياته[1]، وذلك على الرغم من أن النسبة إلى سلامان موجودة كذلك في غامد، كما مر ذكر عبدالله بن سلمة الغامدي.

إذن، فالشنفرى كان، حسبما نص على هذا ابن حزم، من:

"بنو سُلامان بن مُفرج بن مالك بن زهران"[2].

وإزاء هذا الانتماء، فإن قول محقق شعره عنه:

"يهربُ في عمق الصحراء. . . لأن الشنفرى لم يكن له بيت يأوي إليه، إلا تلك المفاوز والصحاري الممتدة في أطراف الحجاز، في الجزء الغربي الجنوبي من جزيرة العرب، فهو يقطن أكثر الأماكن مَنَعَةً حتى لا يصل إليه أعداؤه"[3].

هو أمر غريب حقاً، فليس في هذا الجزء الغربي الجنوبي من جزيرة العرب صحارى ومفاوز بالمعنى المرتبط بالصحراء، وإنما هناك أودية وشعاب وشريط ساحلي ضيق، وفي هذا الجزء الذي يُرى أنه يهرب إليه طريداً، غريباً لا منتمياً، كانت قبيلة فَهْم هي التي تؤويه، وتحميه، وتنتصر له، فهم ليسوا أعداءه. ثم إنه حين كان يغير على زهران، كان يغير عليهم كثيراً من جنوب الطائف من سَراة عدوان ومن ديار عدوان، من فهْم، قادمان من نواحي اللِّيث .

على أن هناك مسألة تخص انتماء الشنفرى، فقد أثبت محقق شعره مقولة:

"عُدّ من أغربة العرب، وهم الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، فلم يعترف بهم آباؤهم؛ لأن دماءهم خالطتها دماء أجنبية سوداء"[4].

وهذه مسألة لا يقوم عليها دليل، ولا يُظهرها شعره أبداً، إنه في شعره ثائر بأبيه، وفيما يروج حوله من قصص يثبت ما ينسب إليه:

ألـيس أبي خـيـر الأواسِ وخـيـرهـا
وأمي ابنـةُ الـخَيْـرِينَ لو تـعلَـمِينَـهـا

---

(١) المصدر نفسه، تعليقات الجاسر، ص ١٣٨.

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٨٦.

(٣) شعره، ص ص ٢٢–٢٣. وانظر، ص ص ١٦–١٧، عن تمرد الشنفرى والخروج على نظام القبيلة .. إلخ.

(٤) المصدر نفسه، ص١٦ .

حتى قيل: إن أمه سبيّة في هذيل[1]، فهي على هذا ليست سوداء. ومن ثم، فإن تفسير لفظة الشنفرى بأنه: العظيم الشفتين، وهو مظهر من المظاهر الجسدية للزنوج، لا يستقيم. ويتوجه معنى الكلمة إلى الحِدَّة في الخاطرة والذكاء، وسواها[2]. وإضافة إلى هذا، فإن هذه الصفة الزنجية لم تكن صفةً معروفة في السود، في الجزيرة العربية، في الجاهلية، بل على العكس تماماً، يقدِّمهم الشعر على أنهم ليسوا غلاظ الأجساد، أو ضِخام الشفاه، ويمكن تبيُّن اسم الشنفرى ورسم هذا الاسم من شعره، فهو يقول:

فإن تَبْتَئِس بالشنفرى أمُّ قَسْطَلٍ
فما اغتبطَتْ بالشَّنفرى قبلُ أَطْوَلُ[3]

وحتى فكرة خؤولة فَهْم للشنفرى فكرة غير واضحة، فبين فهْم والأزد - زهران بصفة خاصة - عداء قديم ومستحكم. وما لجوء الشنفرى إليهم إلا بسبب هذا العداء، عوناً لهم على أعدائهم، وتطبيقاً لمبدأ الاستجارة، ولم يلجأ إلى هذيل؛ لأن هذيلاً على وفاق مع زهران، وبين هذيل وفهم مثل ذلك العداء الذي بين زهران وفهم، ولم يلجأ إلى الأزد في بقية السَّراة؛ لأن هؤلاء يرتبطون بروابط العصبية، وقد انتقل الشنفرى إلى فَهْم راشداً، بعد أن وعى حقيقة مقتل أبيه. وعلينا أن نتبين حقيقة غاية في الأهمية من ذلك القول الذي مر بنا آنفاً، يقول:

وأبْغِي بني صَعبٍ بِحُرٍّ بلادِهم
وسوف ألاقيهم إنِ اللهُ يَسَّرا

يقول الجاسر، الذي رأيناه يتناول التعريف بهوية الشنفرى في غير جانب: "أما بنو صعب، فـ.. أقربها بالنسبة للشنفرى الأزدي، هم: بنو صعب بن

(١) المصدر السابق، ص ٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥. وقارنه بمقدمة الجاسر لشعره، ص ص ٨-٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٨٠. وهذا البيت كاف، مقارنة بما جاء في مقدمة الجاسر لشعره، حاشية ص٨، كما أنه يؤكد ما يذهب إليه الجوهري، مما نقله عنه محقق شعره، ص ١٥.

دهمان بن نصر بن زهران، وبنو صعب هؤلاء من الأزد لهم ذكر كثير، وفروع متعددة، فصَّلها ابن الكلبي"(١).

فهؤلاء من زهران. وإذن، الشنفرى زهراني، ومن هؤلاء الغطاريف(٢). وهم مَنْ يقصدهم الشنفرى بـ"بني صعب"؛ إذ هم سادة "دوس"، وكانوا يتجبَّرون في زهران حتى على أقرب أقربائهم من دوس أنفسهم.

أما سلامان، وهم من زهران أيضاً، فواضح صلتهم بزهران، من شرح أبي الفرج لقول حاجز:

أبي ربع الـفـوارس يـومَ (داجٍ)
وعـمِّي مـالكٌ وضع الـسِّـهـامـا

حيث يقول: "يعني بقوله: وضع السهام، أن الحارث بن عبدالله ... بن زهران، كان يأخذ من جميع الأزد إذا غنمو الربع؛ لأن الرئاسة في الأزد كانت لقومه، وكان يقال لهم: الغطاريف .. فغزتهم بنو فقيم بن عديّ بن الدِّيل بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة، فظفرت بهم، فاستغاثوا ببني سلامان، فأغاثوهم حتى هزموا بني فقيم، فأراد الحارث أن يأخذ الربع - كما كان يفعل - فمنعه مالك بن ذهل بن مالك بن سلامان – وهو عم أبي حاجز ..."(٣).

فهؤلاء وأولئك كلاهما من زهران، وما ضَمَّ الشنفرى بني صعب إلى بني سلامان إلا لأن صلة رحم بين الاثنين تجمعهما، فهما في العُدوان - القتل - قتل أبيه، سواء، ولهذا كانت نصرة بني سلامان لـ"الغطاريف"، أو لأن الغطاريف، بصفتهم رؤساء زهران، كانوا يتحملون دم أبي الشنفرى ويدافعون عن قتلته، من بني سلامان، قوم الشنفرى نفسه.

(١) شعره، تعليقات الجاسر، ص ص ١٤٠-١٤١.

(٢) انظر الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٢٢.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ٢١٣.

وانظر، الزهراني، تصحيح الرؤى عن بيئة الشنفرى، ص ص ٥٦–٦٥.

الفصل الثاني
الانتقال واللجوء

إذا نظرنا في قول الشنفرى:

قـتـلـنـا قـتـيلاً مـحـرمـاً بُـمـلـبِّـدٍ
جِـمـارَ مِـنىً وَسْطَ الحـجـيـج المـصـوِّتِ
جـزيـنـا سلامـانَ بن مُـفـرج قـرضَـهـا
بمـا قـدَّمت أيـديـهـم وأزلَّـتِ

وبعده:

شَـفَـيـنـا بـعـبدِالـله بـعضَ غـلـيلـنـا
وعوفٍ لدى المِعدى أوانَ استـهَلَّتِ(١)

وتتضمن هذه الأبيات أن القتل كان بسبب ثأر في بني سلامان، فالمقتول، والمثؤور منه، هو أحد بني سلامان الذين ينتمي إليهم، والقتل - كما هو واضح - لم يكن بسبب السلب والنهب، وكما هي الحال مع الصعاليك - بل بسبب هذا الثأر(٢).

يقول المرزوقي:

"قوله: وما إن هنأتهم؛ أي: لم ينتفعوا بي، ولم أحقق رجاءهم فيَّ، وإنما قال هذا؛ لأنه طريد جنايات، يجر الجرائر على عشيرته، حتى تَبَرَّم به من كان ينصره، فعاد خليعاً في رهطه، وتوحَّش، وشارك عوافي السباع والطير في مشاربها ومساربها، وهذا معنى قوله: وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي"(٣).

(١) التبريزي، شرح المفضليات، ج ١ ص ص ٣٩٤ - ٣٩٥. الملبد: المحرم الذي يأخذ صمغاً، فيلبِّد شعره، لئلا يشعث. المصوت: الملبي. أزلُّوها: قدّموها. قرضها: دَينها. الغليل: حرارة العطش. المعدى: موضع القتال. استهلت: ارتفعت الأصوات في الحرب.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٣) التبريزي، شرح المفضليات، ص ٣٩٤. وقال اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص ٢١٣: "في رأيي أن الشنفرى الصعلوك كان يجر على قومه متاعب جمة .. بسبب من إغاراته المشهورة، مما اضطر قبيلته إلى خذلانه .. ".

فـ"قوم" و"هم"، في قوله: "وهنئ بي قوم وما إن هنأتهم". هما تلك الجماعة التي انتقل إليها بعد أن ترك موقعه في قبيلته، وهذا يدل على التقاء الأخبار حول انتقاله إلى محيط غير محيطه.

أما قوله الآخر:

وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي

فهم هذه الجماعة الجديدة التي التحق بها، والتي عناها المرزوقي بقوله: "لأنه طريد جنايات"، إن هذه الجماعة الجديدة لا تعني تحديداً قول المرزوقي: "عاد خليعاً في رهطه، وتوحَّش، وشارك عوافي السباع والطير في مشاربها ومساربها".

فهذا استنتاج لا دليل عليه في التائية؛ إذ ما معنى: "عاد خليعاً في رهطه"؟ فإن كانوا "رهطه" وعشيرته الأزد، زهران، فهذا صحيح باتفاق رواة النسب على كونه منهم، فهم خلعوه، وهو معنى قول الشنفرى نفسه، حسب فهم المرزوقي:

وهنئ بي قوم وما إن هنأتهم

أما قول الشنفرى الآخر:

وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي

فهنا معادلتان: "قوم": الأولى: رهطه، وعشيرته الأزد، زهران. و"قوم" الثانية التي أصبح فيهم، أي: جماعة البشر، وليس جماعة الوحوش والسباع وعوافي الطير.

وعلى افتراض صحة فهم المرزوقي، فما معنى قول الشنفرى:

قتلنا قتيلاً مُحرِماً بملبَّدٍ

جمارَ مِنًى وسط الحجيج المُصَوِّتِ

ومجمل الصورة التي يقدمها الشنفرى، في تائيته، لوجوده في وسط الجماعة؟ ألا يعني أنه في وسط مجموعة من البشر، وليس وحيداً، طريداً حسبما قال التبريزي: "عاد خليعاً في رهطه، وتوحَّش، وشارك عوافي السباع والطير في مشاربها ومساربها"؟

وألا يعني أيضاً أن هؤلاء بعض قوم ينتمون إلى جماعة بشرية معروفة؛ أي: قبيلة فهم ؟ إذن، فالشنفرى كان مخلوعاً من الأزد، زهران، حقاً، غير أنه منتمٍ الآن إلى قبيلة فهْم.

وحين قال الشنفرى:

قتلنا قتيلا محرما بملبِّدٍ
جمار منًى وسط الحجيج المُصَوِّتِ
جزينا سلامانَ بنَ مُفرِجٍ قرْضَها
بما قدَّمت أيديهم وأزلَّتِ

وبعده:

شفينا بعبدالله بعضَ غليلنا
وعوفٍ لدى المَعدى أوانَ استَهلَّتِ(١)

أثبت أنه طالبُ ثأر في بني سلامان من زهران، رهطه، وعشيرته، التي خلعته، لا لجرائره فحسب، بل خوفَ انتقامه، وهنا يتأكد لجوء الشنفرى إلى فهْم، أعداء الأزد، للجوار والغزو بينهما.

على أن التبريزي كان أقربَ إلى الصواب في قوله، تفسيراً لقول الشنفرى:

وهنئ بي قوم وما إن هنأتهم

فالتبريزي يفسره:

"يقول: هنئ بي قوم، وما انتفعوا بي، وذلك أنه أُخذ رهينة، ويقال: أُخذ في فدية، فبقي في القوم الذين أخذوه، فصارت نصرته لهم"(٢).

وهنا تختلط الأمور، فبالتأكيد لا يعني التبريزي: سلامان بن مفرج: من الأزد، وهم بنو عم الشنفرى، لأنه قتل واحداً منهم، ولا يسع المرء أن يختلف مع التبريزي

---

(١) التبريزي، شرح المفضليات، ج ١ ص ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٤.

في تفسيره حين يعلق على قول الشنفرى:

جـزيـنـا سَلامَـانَ بن مُـفـرجَ قَـرْضَـهـا

بمـــا قـــدمت أيـــديـــهـم وأزلَّتِ

فيقول:

"وكان حَمَدَهم في نعمة أُزَلّوها"(١).

و"أزلوها" بمعنى: قدموها. فأي حمد هذا في جو القتل والثأر؟ والمعنى يبدو على غير هذا، إنه يعني بما اكتسبت أيديهم من إثم وجريرة؛ أي: قتل أبيه.

إذن، فقد اختلطت الأمور على التبريزي، كما اختلطت على المرزوقي، والمعنى حقيقة هو:

"يقول: هنئ بي قوم، وما انتفعوا بي، وذلك أنه أُخذ رهينة، ويقال: أُخذ في فدية، فبقي في القوم الذين أخذوه، فصارت نصرته لهم".

أي: اتفاق مع الأخبار التي تقول: إن الشنفرى - بصورة أو أخرى - كان "رهينة / فدية"، وأنه بقي في القوم الذين أخذوه، فصارت نصرته لهم.

فهؤلاء، إذن، هم:

وهـــنئ بي قـــوم ومـــا إن هـــنـــأتـــهـم

خلعتْه الأزد، والمقصود زهران، وأجارته فهْم، وهؤلاء هم "قوم" الذين رحلهم إليهم، ولا يمكن أن يكون الشنفرى، بعد قتله السلاماني، قد فَرّ من فهم، ولجأ إلى الجبال والشعاب، متوحشاً، يترقب، إذا ما قرأنا قوله بضمير الفاعل في رواية أخرى:

قـتـلتُ حَـرامـاً مُـهـديـاً بمـلـبِّـدٍ

جمارَ مِنًى وسط الحجيج المصوِّت(٢)

---

(١) المصدر السابق، ٣٩٤.

(٢) البغدادي، الخزانة، ج ٣، ص ٣٤٨.

لأن بقية القراءة في الأبيات تتحدث بضمير الجمع، كقوله:

شفينا بعبدالله بعضَ غليلنا

وعوفٍ لدى المعدى أوان استهلّتِ

ولا تصح القراءة في "غليلنا" بضمير الفاعل، إضافة إلى غير ذلك من أبيات.

وإذ تثبت التائية – القصيدة الموثقة – كل هذا، فإن الشنفرى يؤكد، في أبيات أخرى، تُنسب إليه حين يقول:

أضعتم أبي إذ مال شِقٌّ وِساده

على جَنَفٍ قد ضاع مَنْ لم يُوَسَّدِ

فإن تَطْعَنوا الشيخَ الذي لم تُفَوِّقوا

منيته وغِبتُ إذْ لم أُشَهدِ

فطعنةُ خَلْسٍ منكم قد تركتُها

تَمُجُّ على أقطارها سُمَّ أَسْوَدِ[1]

على أنه من الثابت أن القاتل كان من بني سلامان بن مفرج، بمنطوق البيت: "جزينا سلامان.." وهو وفق الرواية السابقة: "قتلت حراماً..": هو حرام بن جابر الذي قتل أبا الشنفرى[2]، إضافة إلى "شفينا بعبدالله بعض غليلنا/ وعوف.."، وكلٌّ من بني سلامان الذين ينتقم منهم.

فإذا افترضنا أن المرزوقي كان قد استنتج تشرُّد الشنفرى وضياعه من قوله في اللامية:

أقيموا بني أمي صُدورَ مَطِيِّكم

فإني إلى قومٍ سواكم سأرحَلُ

---

(١) عبدالعزيز الميمني، الطرائف الأدبية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٥٣هـ١٩٣٤/م)، ص ٣٥، جنف: ميل.

(٢) البغدادي، الخزانة، ج٣، ص ٣٤٨.

ولأنه قال:

ولا الجـــاني بمـــا جَـــرَّ يُـــخْـــذَل

وقوله أيضاً:

طـريـدُ جِـنـايـات تَـيـاسَـرْن لحمَه

عـــقـــيـــرتُه لأيِّـــهـــمـــا حُمَّ أولُ

ثم قوله:

وفي الأرض مَـنْـأىً لـلـكـريم عن الأذى

وفـيـهـا لمن خـاف الـقِـلَى مُـتَـعَـزَّلُ

وكذلك، قوله:

وإني كـفـاني فَـقْـدَ مَنْ لـيس جـازيـاً

بـحُـســنى ولا في قُـربه مُـتَـعَـلَّلُ

مع ملاحظة أن المرزوقي - وكذلك التبريزي - حصر نفسه في التائية فقط، وتبينا خلاف استنتاجه، وأن "قوم" هنا تعني ما فهمه المرزوقي أولاً: "طريد جنايات، يجر الجرائر على عشيرته، حتى تبرَّم به من كان ينصره، فعاد خليعاً في رهطه ..، وتوحش، وشارك عوافي السباع والطير، في مشاربها ومساربها"، فإن هذا "الخلع" وقع من بني سلامان - زهران - قومه الأصليين، الذين أصبح يطالبهم بثأر، ثم حانت الفرصة للانتقام، فانتقم، وهذا يتوافق مع ما يريده المرزوقي من استيعاب لقوله:

وهـــنئ بي قـــوم ومـــا إن هـــنـــأتـــهـم

مع أنه لا يتوافق مع توجيهه لـ"قوم"، على أنهم جماعة حيوانية في قوله أيضاً:

وأصـبـحت في قـوم ولـيـسـوا بمـنـبـتي

ولم يكن الشنفرى إلا واحداً من فهْم، سواء في جهات اللّيث، جنوب مكة، أو جهات شرق الطائف عند عدوان، جاء في شعره :

"كان نازلاً في فهم وعدوان"(١).

---

(١) شعره، ص ٦٦ .

وقال أبو الفرج:

"لزم الشنفرى دار فَهْم"(١).

وهذا يوضح أن إقامته كانت في جهات يلملم، واللِّيث، ومركوب، جنوب غرب مكة، وكان توجهه للانتقام من جهات شرق الطائف، عند عدوان، فلم يكن الشنفرى إلا واحداً من فهم، يقول ياقوت:

"الشنفرى الأزدي: حليف فهم"(٢).

وهكذا، كان غيره، حتى إن أم تأبط شراً - صاحبِه - قالت في رثائه:

فتى فَهْمٍ جميعاً غادروه
مقيماً بالحُرَيْضَةِ من نُمارِ(٣)

وتأبط شراً - رفيقه - نفسه يقول:

فأُبْتُ إلى فَهْمٍ وما كِدت آيباً
وكم مثلُها فارقتُها وهي تُصْفِرُ(٤)

ويقول - "أم عيال"، كما وصفه - مؤكداً جلبه الغنائم إلى "فهم"، بعد هجوم على "الأزد" (زهران):

ستأتي إلى فهْمٍ غنيمةُ خُلّةٍ
وفي الأزد نوح خُلة بعويلِ(٥)

وهذا هو فهم التبريزي، الذي شرح قول الشنفرى:

"هنئ بي قوم، وما انتفعوا بي، وذلك أنه أُخذ رهينة، ويقال: أُخذ في فدية، فبقي في القوم الذين أخذوه، فصارت نصرته لهم"، فهؤلاء القوم: هم قبيلة فهْم.

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ٢٠١.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، "الأُقيصر".

(٣) الزبيدي، التاج، "نمر"، وفي الأصل "منهم": تصحيف.

(٤) الأخفش الأصغر، كتاب الاختيارين، ص ٢٩٥.

(٥) ديوانه، ص ١٩٠.

إذن، أين ما رآه المرزوقي:

"قوله: وما إن هنأتهم، أي: لم ينتفعوا بي، ولم أحقق رجاءهم فيّ، إنما قال هذا؛ لأنه طريد جنايات، يجر الجرائر على عشيرته، حتى تَبَرَّم به من كان ينصره، فعاد خليعاً في رهطه ... وتوحَّش، وشارك عوافي السباع والطير، في مشاربها ومساربها، وهذا معنى قوله: وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي"؟

ولا شيء على الإطلاق في التائية، وحتى في اللامية ليس فيها مثل هذا التوجيه، فهو يقول:

ولي دونكم أهلون سِيدٌ عَمَلَّسٌ
وأرقطُ زُهلولٌ وعرفاءُ جَيْأَلُ
هُمُ الرَّهْطُ لا مستودَعُ السِّرِّ شائعٌ
لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخْذَلُ
وكلٌ أَبِيٌّ باسلٍ غيرَ أنني
إذا عَرَضَت دون الطرائد أبْسَلُ
وإن مُدَّت الأيدي إلى الزاد لم أكن
بأعجلِهم إذ أَجْشَعُ القوم يَعْجَلُ
وما ذاك إلا بَسطةٌ عن تَفَضُّلٍ
عليهم وكان الأفضلَ المتفضِّلُ
ولي صاحبٌ مِنْ دونهم لا يخونُني
إذا التَبَسَت كَفّي به يَتَأَكَّلُ

والضمير هنا يعود إلى الجماعة البشرية، وليس إلى جماعة الوحوش: "سيد عَمَلَّس / وأرقط زُهلول / وعرفاء جَيْأل"، وهؤلاء هم جماعة الصعاليك الذي صاحبهم من فهْم، وذلك الصاحب الذي اختاره من بينهم هو ـ حسب المعطيات التاريخية والأدبية ـ حيث رثاه تأبط شراً ـ هو تأبط شراً نفسه، ولم يعش هؤلاء في

غربة واستيحاش منقطع، بل كانوا في وسط فَهْم، وهنا تلتقي التائية واللامية في تصوير حركة هؤلاء الصعاليك، في إغارتهم، وفي إيابهم إلى ديارهم ظافرين أو مطاردين.

إن قوله:

.... أهلون سِيدٌ عَمَلَّسٌ / وأرقط زهلول / وعرفاء جيْأل

لا يعني الوحوش بذاتها، فكل صورة الصعاليك تتجاوز ذلك، وإنما هم هؤلاء الذين لهم صفات الوحوش تلك.

إضافة إلى:

وكلٌّ أَبِيٌّ باسل غيرَ أنني

إذا عرضت دون الطرائد أَبْسَلُ

وهو يصطفي من بينهم أحدهم، صاحبه وحميمه، وقد رجع الضمير في: "دونهم"، مرة أخرى إلى هؤلاء جميعاً، وهذا تأكيد قوله:

وأصبحتُ في قوم وليسوا بمنبتي

إنه أصبح، أي: صار جزءاً منهم. إذن، فغير متوافق كون الشنفرى، كما رأى عبدالحليم حفني:

"يعبِّر عن مدى سخطه على الناس جميعاً وإيثاره كل أنواع الوحوش على البشر في جوارهم وخلقهم"(١).

فهذه ضمائر العاقل في: "أهلون" و"هم" و"لديهم".

وفي قوله:

"ولا الجاني بما جَرَّ يُخذل".

فكل هذه إشارات إلى العاقل، وليس إلى الحيوان. وشاعر مقتدر مثل الشنفرى كان باستطاعته أن يأتي بضمائر غير العاقل، لو أنه أراد ذلك. إنه حتى على افتراض أنسنة الوحوش، فإن ما يبطل هذا الافتراض هو كونه مع جماعة:

(١) عبدالحليم حفني، شعر الصعاليك (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م)، ص ٢٤٢.

"وكل أبيٌّ باسل ....." .

فهو لا يعيش وحده، وإن غزا، أو توغل في تيهاء مقفرة. فليلتق بهؤلاء مرة أخرى، وهؤلاء لا يعيشون خارج الجماعة، بل في وسطها، وهم جزء منها، لقد طردته قبيلته، خلعته، بعد أن فرحوا بميلاد شاعر شجاع فاتك، ثم لم يعودوا يطيقون جرائره:

وهُنئ بي قوم وما إن هنأتهم

وانتقل حليفاً إلى قوم آخرين:

وأصبحتُ في قومٍ وليسوا بمنبتي

ومن ثم، فإن هذه الوحوش ما هي إلا الصعاليك أنفسهم، وما هذا القول إلا صورة مصغَّرة عن ذلك المشهد المثير في لوحة الذئاب الشهيرة عنده.

ألم يقل الشنفرى:

وأُعْدِمِ أحياناً وأغنى وإنَّما
ينالُ الغِنى ذو البِعدَة المُتَبَذِّلُ
فلا جَزِعٌ من خَلَّة مُتكشِّفٌ
ولا مَرِحٌ تحت الغِنى أتخَيَّلُ

فما معنى ذلك ؟ أليس معناه أنه يسعى، كما يسعى غيره، للكسب والثروة؟

وأليس قوله في اللامية:

فأَيَّمْتُ نسواناً وأيتمتُ إلدةً
وعُدتُ كما أبدأتُ والليلُ ألْيَلُ

هو في معنى قول تأبط شراً، صاحبه الحميم:

فأُبْتُ إلى فهْمٍ وما كدتُ آيباً
وكم مثلِها فارقتُها وهي تَصْفِر

فهم اليوسف قول الشنفرى: وكل أَبيٍّ ....

على أنه: "وصف الوحوش بالبسالة"(١).

كما فهم:

" هم الرهط ....." .

على أنهم: "وحوش"(٢).

وهكذا فهم الرحيلي:

"ولي دونكم أهلون"

على أنه: "الوحوش الضارية (الأهل الجدد) التي تشبع يوماً وتجوع أياماً"(٣).

وقال الرحيلي:

"إن الذئب - كما يظهر من ترتيب الوحوش في المقطع الأول - هو من أفراد الثلة البديلة: "ولي دونكم أهلون: سِيدٌ عَمَلَّسٌ ...."(٤).

ورأى هذا كله فوزي عيسى، فقال:

"لقد اختار الشنفرى الانتماء إلى هذا المجتمع؛ لأنه وجد فيه عِوَضاً عما افتقده في مجتمعه الإنساني، أو لأنه وجد فيه القِيَم التي ضاعت في مجتمعه الأول. إنه مجتمع مثالي متماسك .. حيث .. الاعتزاز بالقوة والبسالة"(٥).

وإزاء التمسك بهذا الفهم، فمما لا شك فيه أن يكون الضمير هو ضمير الجماعة في قول الشنفرى:

وإن مُدَّتِ الأيدي إلى الزادِ لم أكن

بأعجلِهم إذْ أجشعُ القومِ يعجَلُ

---

(١) اليوسف، مقالات في الشعر، ص ٢٥٠. وانظر، ص ٢٤٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٦ . وانظر، ص ٢٤٤.

(٣) سعود دخيل الرحيلي، لامية العرب: أو رحلة (جامعة الملك سعود، كلية الآداب، ٢٣، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، ص ٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٦.

(٥) فوزي عيسى، النص الشعري أو آليات القراءة (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٩٧م)، ص ١٦١.

وما ذاك إلا بسطَةٌ عن تفضُّلٍ
عليهم وكان الأفضلَ المتفضلُ
ولي صاحب مِنْ دونهم .....

وهي أبيات جاءت مباشرة بعد قوله:

" .. إنِي إلى قوم سواكم لأمْيَلُ" / "ولي دونكم .." / "وكل أبِيٍّ ..."

ولكن ذلك لا يتلاءم، وهنا تغيّر موقف اليوسف، فشك في البيتين: "وإن مدت..." / "وما ذاك ..."(١)، إلا أن الرحيلي ساند بشدة دراسة (ستيتكفتش)؛ لأنها اعتمدت:

"القلب المجازي المزدوج، المتمثل في: "أنسنة اللا إنسان وتوحيش الإنسان"(٢).

ثم إن فوزي عيسى ذهب بعيداً حين جعل الضمائر المشار إليها في الحيوان حقيقة(٣).

إن شيئاً غايةً في الأهمية علينا أن نتذكره، وهو أن الشنفرى لا يحكي هنا ساعة رحيله في اللامية، ولا واقعه الآني، وإنما يقص حكايته في الحياة. كيف ترك قومه، وانتقل إلى قوم آخرين، وكيف قضى حياته الطويلة في هذه الممارسة مستمتعاً بها يفخر، فاللامية ـ كأية قصيدة جاهلية مطوَّلة ـ ذات مقدمة، وانتقال، وفخر، اختصر ذلك، وأطال في سرد سيرة حياته. كل شيء كان في الماضي، فكل الأفعال في الماضي، وخطابه لبني أمِّه كان في الماضي، وحديثه عن ذاته كان في الماضي، كذلك واو رُبَّ في كثير من أبياتها: "وليلة نحس..." / "ويوم من الشعرى..." /

(١) اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص ٢١٥.

(٢) الرحيلي، لامية العرب أو رحلة التوحش، ص ٦. وانظر، ماجد الجعافرة، الشعر الجاهلي (الأردن: دار اليرموك، ط١، ٢٠٠٣م)، ص ص ٣٣ ـ ٤٩، وقد فهم قول الشنفرى "بني أمي" على أنهم أخواله، بينما هم أهله ـ الأزد (زهران)، أما أخواله، فهم الذين انتقل إليهم؛ مع أنه عاد، ص ٣٦، فذكر أن هؤلاء هم "قبيلته". وانظر، ص ٣٧. كما أنه فهم ص٣٧، قوله: "وإن مُدّت الأيدي" على أن هؤلاء هم "الوحوش".

(٣) عيسى، النص الشعري أو آليات القراءة، ص ١٦٢.

"وخرق كظهر الترس . . ." ، كل ذلك كان في الماضي. إنها ذكرى تتوارد على خاطره الآن، فيُفضي بها؛ ولهذا حفظها التراث، وتناقلتْها الرواة عنه، وهو يجعل المرأة/ ذاته، نصب عينيه، يعرض عليها مفاخره في استعادة لقصة بدأت ولم تنته: "فإما تَريني كابنة الرمل . ." .

ومع ذلك، ذهب خليف إلى الطعن في اللامية(١)، ومضى عادل الفريجات قُدُماً، فقال:

"من الصعوبة بمكان - إذا كان الشنفرى هو الذي أبدعها بكاملها أن نقيم ملاءمة بين حياة الصعلكة الكثيرة التوثب والإغارة، والتي لا يهدأ لهم فيها قرار، وبين هذا الطول المسرف الذي يُفترض أن يكون من نِتاج حياة مستقرة، وبال هادئ، ونفس مطمئنة" .

ولهذا جعل الفريجات اللامية شركة بين الشنفرى وغيره من الصعاليك، كما يقول(٢) . وتسند المعطيات الإثبات والنفي، وربما كان جوابه عليه في فقرته:

"هذا الطول المسرف الذي يفترض أن يكون من نِتاج حياة مستقرة، وبال هادئ، ونفس مطمئنة" .

وتبين الأبيات التالية المفارقة الشديدة، حالة الانتماء، أوضح بيان، إذ تقدمه لنا رجلاً مِقْداماً، منتمياً، غازياً، فخوراً بذاته، يقول:

أُمَشِّي على الأرض التي لن تضرَّني
لأنكيَ قوماً أو أصادِفَ حُمَّتي
أُمَشِّي على أين الغزاة وبعدها
يقرِّبُني منها رواحي وغَدْوتي

---

(١) خليف، الشعر الصعاليك، ص ص ١٧٢ - ١٧٩ .

(٢) عادل الفريجات، إضاءات في النقد الأدبي (دمشق: دار كرم، ١٩٨٥م)، ص ص ٦٢ - ٦٣ . وانظر، جدل اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص ص ٢٨٦ – ٢٩٢، حول صحة اللامية.

كما يقول:

إذا مــا أتـتْـنـي مِـيـتـتي لم أُبـالِـهـا
ولـم تَـذْرِ خـالاتي الـدمـوعُ وعـمَّـتي

ويقول أيضاً:

وإنـي لـحُـلْـوٌ إن أريـد حلاوتي
ومُـرٌّ إذا نـفسُ الـعَـزوف استـمـرَّتِ

وكل ذلك وهو في وسط جماعة:

خـرجـنـا من الـوادي الـذي بين مشعل
وبين (الجبا) هيهاتَ أنشاتُ سربتي[1]

وهكذا، يتكامل الجانبان: الجانب الجماعي، في قيادة الجيش، غزواً، أو صداً للأعداء، والجانب الفردي – تجوزاً –: غزواً، رغبةً في الغنائم، أو أخذاً بالثأر.

وهنا لا نجد حجة نستند إليها في دحض مثل هذه الاستنتاجات على غرار ما كتبه اليوسف في تحليله النفساني للامية الشنفرى[2]. ذلك أن الشاعر القديم - جاهلياً كان أو إسلامياً أموياً - لم يطور آلته الفنية، ليجعلها رمزية، أو توجيهية خاصة، وإنما كان أسلوبه يعتمد المباشرة والتلقائية والحسية، ونحن الذين نؤوِّل الشعر لا هو، وكان جُلُّ تركيزه على التشبيه والاستعارة التصريحية. ومن هنا تحدث اليوسف عن أن:

"شخصيات اللامية وحوش".

وأنها:

"تجسِّد المطلب الانتمائي للشاعر، الثُّلَّة، والتي هي أولى بدائلة الاجتماعية"[3].

(١) التبريزي، شرح المفضليات، ج ١، ص ص ٢٩٦ - ٣٨٧.
(٢) مقالات في الشعر الجاهلي، ص ص ٢٤٢ - ٢١٠.
(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٤.

مع أنه القائل:

"تنبثق تشابيه اللامية من الواقع، لا من التجريد" .

كما يقول:

"يعتمد الخيال التصويري في اللامية على التشابيه من جهة، وعلى الطاقة الإيحائية للفظة من جهة ثانية، أكثر مما يعتمد على الاستعارات التي هي لُبُّ الشعر وسر جماليته"(١).

كان الشنفرى - كما كان كل الشعراء القدامى - يَصدُرون في خيالهم عن الواقع كما هو، إلا أن هذا الواقع يحمل مشاعرَ وأحاسيسَ، كلٌّ حسب تجربته، وهنا يصدق اليوسف حين يقول عن اللامية:

"الطبيعة فيها لا تحال إلى الخيال التجريدي... بل هي جملة عيانات قائمة، يتمثلها الشعور تمثُّلاً تجسيدياً، للحواسِّ فيه الدور الأكبر، وهذه في الحقيقة، هي السمة الطاغية على الشعر الجاهلي"(٢).

وعلى هذا النحو، فإننا ندرك أن الثُّلَة: الذئب والنمر، والضبع، ليسوا وحوشاً، وإنما هم أناس لهم صفات الوحوش، وأن مشهد الذئاب مشهد من الطبيعة نفسها، وأن الشنفرى كان إيجابياً في انتمائه إلى البشر، لا إلى الحيوان. وهذا ما يتوافق مع الطبيعة البشرية، فالإنسان اجتماعي بطبعه.

---

(١) مقالات في الشعر الجاهلي، ص ٢٧٦ .

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٣.

الفصل الثالث
الرحلة والظعائن

ومن الإشكالات العويصة التي يمكن حلُّها في ضوء هذا الطرح: تلك الإشكالات التي تثيرها لامية الشنفرى والتي رأى فيها سعود الرحيلي:

"الشنفرى لم يستهلَّ قصيدته بالوقوف على الأطلال، ولم يتحدث عن الظعائن، ولم يتحسَّر على فراق الحبيبة المرتحلة، كما أنه لم يصف الناقة، وليس في القصيدة غرض أصلي وآخر فرعي. ولعل السبب في استبعاد الشنفرى لهذه الموضوعات التقليدية هو إحساسه أن محتوياتها ومضامينها لا تدخل في دائرة اهتمامات الصعلوك ولا تمثله، وإنما تمثل قضايا الفرد القَبَلي المنضوي في الكتلة الاجتماعية، فالحبيبة والناقة كلتاهما أداتا تواصُل تشيران إلا علاقة "الأنا" بالآخر، وهي علاقة مبتورة من أساسها لدى الصعلوك المنبوذ"(١).

وماذا إن تحقّق غير ذلك، ووجدنا الصعلوك جزءاً من الجماعة، وأن الأنماط الراسخة لا يمكن تجاوزها بهذه السهولة؟

فمطلع القصيدة هو خلاصة لموضوعات الظعائن، وهنا ظعائن الحي الذي تركوه، وفقاً لما هو نمطي في مثل هذه المفردات، ويؤكد هذا البيتُ الثاني:

فقد حُمّتِ الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ
وشُدّت لِطَيّاتٍ مَطايا وأَرْحُلُ

فلقد كان التأهب والاستعداد للرحيل ليلاً، وغدوةً سيكون الرحيل، وفق النمط السائد. ووفق النمط السائد تكون صورة المرأة في اللامية هي صورة المرأة عند كل شاعر جاهلي، وإن لم يذكرها الشنفرى، واكتفى بمشهد تجهيز الظعائن للرحيل، فالشنفرى لا يتحدث الآن عن رحيل، وإنما الرحيل جرى في زمن ماضٍ، والصور التي يعرضها في وحشته في الصحراء، صور قديمة، وهو يستدعي المرأة: رمز

---

(١) الرحيلي، لامية العرب أو رحلة التوحش، ص ١٤. وانظر شعره، ص ٢٦.

الشباب والصبا والحياة، إنه يستدعي صورة نفسه، عندما كان فيما قبل الرحيل، فإذا ما افتقدنا الأطلال ظاهرياً، فإنها في صلب الخلق الشعري الآن، إنها - وإن لم يذكرها - حاضرةٌ في ثقافته، ولا يمكن أن ندَّعي أن الشنفرى فَذٌّ في هذا التعبير، إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن يستطيع أيٌّ كان أن يتجاوز عصره وتقاليده، ليكون صاحب طريقة جديدة، في عصر تكرَّست فيه التقاليد، والنمطية والشفوية، وما من دليل على ما ذهب إليه الرحيلي من أن الشنفرى:

"لم يصف الناقة"(١).

مع أنه يفهم البيت السابق :

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقمِرٌ
وشُدَّتَ لِطَيَّاتٍ مطايا وأرحلُ

على أنه خاص بالشنفرى!

وليست كل القصائد الجاهلية ذاتَ نسقٍ واحد، بحيث تبدأ بالأطلال، ثم الظعائن، وبهذه الصرامة، ففي القصائد الجاهلية، ما لم يُذكر الأطلال، وذكرت الظعائن، وهذا يعني أن الأطلال داخلة في النسيج، وإن لم يذكرها الشاعر، وفي القصائد الجاهلية أطلال بلا ظعائن، وهذا يعني مرة أخرى أن الظعائن داخلة في النسيج، وإن لم يذكرها الشاعر، ثم إن القصيدة الجاهلية، تخرج من الأطلال إلى الرحلة - رحلة الشاعر - ويصف الشاعرُ مُقاساته فيها، وهنا يلتقي الشنفرى في التخطيط مع النموذج، ويفترق الشاعر الجاهلي عن الشنفرى في طبيعة الخروج، نتيجة لظروفه الخاصة، بعد أن اتفق معه في التصور العام، فالشاعر الجاهلي يجعل الخروج فخراً في القصائد التي لم تتوجه للمديح، وهي كثيرة أيضاً في الشعر الجاهلي، والشنفرى يجعل الخروج فخراً بالتوغل في الوديان، ويختلف الشاعر الجاهلي بشكل عام عن الشنفرى، في أن الشاعر الجاهلي خرج دون إحساس

---

(١) المرجع السابق.

بالذنب والجريمة، بينما خرج الشنفرى خائفاً يترقب، ويلتقي الشاعر الجاهلي والشنفرى في أنهما كليهما يبحثان عن صباهما، عن فُتوّتهما، بعد رحيل الصبا والشباب، فالشاعر الجاهلي يستخدم عبارة "دع ذا" للانصراف عن ذكره، ليثبت أنه ما زال محتفظاً به، بعد حين من مغادرته، أما الشنفرى، فيقول: "فإني إلى قوم سواكم لأَمْيَلُ". أي: هو عين ذلك البحث، كل شيء كان، ومن ذلك مفاخره، في نهاية القصيدة، أما الحاضر، فليس هناك إلا الأطلال في الشعر الجاهلي بعامّة، وإلا ما قبل إقامة صدور المَطِيِّ: "الظعائن"، في شعر الشنفرى، وكانت تجربة الشنفرى تجربة قاسية جداً، كما كانت كل تجارب الشاعر الجاهلي في رحلته على قدر تلك القسوة، ويصبح كل شيء جزءاً من الماضي، أما الحاضر فهو:

فإن تَبتئِسْ بالشنفرى أمُّ قَسْطلٍ
فما اغتبطَتْ بالشنفرى قبل أطولُ
طريدُ جناياتٍ تياسَرْنَ لحمَه
عقيرته لأيِّها جُرَّ أولُ

إنه الحاضر البائس، حاضر مواجهة الموت:

وإلْفُ همومٍ لا تَزال تَعودُه
عِياداً كحُمّى الرِّبْع أو هي أثْقَلُ

وهو الآن لا يعيش خارج المنظومة الاجتماعية، وإنما هو جزء منها، فحاله:

وأُعدِمُ أحياناً وأُغنى وإنما
ينال الغِنى ذو البِعْدَةِ المتبذلُ
فلا جَزِعٌ من خلة متكشِّفٌ
ولا مَرِحٌ تحت الغِنى أتخيلُ

فلماذا "الغنى"، إذا كانت نهايته في العراء، وحيداً مع الوحوش؟ تلك كانت حقبة من حياته، انتهت منذ زمن بعيد، وهو الآن وسط الجماعة، يكسب مثلما

يكسبون، ويفتقر مثلما يفتقرون.

ويلتقى الشنفرى مع كل الشعراء في الحلم بالمرأة، بالصبا، عندما يقول:

تـرود الأراوي الـصُّحـمُ دوني كـأنـهـا
عَـذَارى عـلـيـهن الـمُلاءُ الـمُذَيَّلُ

ما زالت صورة المرأة / الحلم، راسخةً في ذهنه قبل الرحيل، وهي ترِد إليه في تداعياتِ قول القصيدة. ولن نفهم هذه القصيدة بعزلها عن مجمل الشعر الجاهلي، بل لن نفهمها، إذا عزلناها عن شعر الشنفرى نفسه، فتائيته خير دليل على ذلك، يقول:

ألا أمُّ عـمـرو أجـمـعتْ فـاسـتـقـلَّتِ
ومـا ودّعـت جـيـرانـهـا إذ تـولّتِ
لـقـد سَـبَـقَـتـنـا أمُّ عـمـرٍو بـأمـرهـا
عـلى حـينِ أعـنـاقِ المَـطِيِّ أظَـلـتِ
بِعَـيْـنَـيَّ مـا أمست فبـانـت فأصبحت
فـتـامت قـلـوبـاً فـاسـتـقـلَّت فـولَّتِ
فـيـا نَـدَمي عـلى أُمـيـمـة بـعـدمـا
طَـمِعْتُ فـقـلـهـا نـعـمـةُ الـدهـر ولَّتِ
فـيـا جـارتي وأنت غـيـرُ مُـلـيـمَـةٍ
إذا ذُكـرت ولا بـذات تَـقَـلَّتِ
لـقـد أعـجـبـتـني لا سَقـوطاً قـنـاعُـهـا
إذا مـا مـشت ولا بـذات تَـلَـفُّتِ
كـأن لـهـا في الأرض نِـسْـيـاً تَـقُـصُّه
عـلى أمـهـا وإن تُـكَـلِّـمْكَ تَـبْـلَتِ

لَعَمْرُكَ ما إن أمُّ عَمْرو بِرأَدَةٍ
حَكِيٍّ ولا سَبّابَةٍ قَبْلُ سُبَّتِ
أميمة لا يُخْزي نَشاها حَليلَها
إذا ذُكِر النِّسوانُ عَفَّت وجلَّتِ
إذا هو أمسى آب قُرَّةَ عينِه
مآبَ السعيد لم يَسَل أين ظَلَّتِ
فبتنا كأنَّ البيتَ حُجِّر حولَنا
بريحَانَةٍ رِيحَتْ عِشاءً وطُلَّتِ
بريحانةٍ من بَطْن حَلْيَةَ أَمْرَعت
لها أَرَجٌ ما حولها غيرُ مُسْنِتِ
فَدَقَّت وجَلَّت واسْبَكَرَّت وأُكملت
فلو جُنَّ إنسان من الحبّ جُنّتِ
تبات هُدُوَّ الليل تُهدي غَبوقَها
لجارتها إذا الهَدِيَّةُ قَلّتِ
يَحُلُّ بمَنجاةٍ من الذم بيتُها
إذا ما بيوتٌ بالمذمَّة حُلَّتِ

فإن قبلنا هذا الشعر للشنفرى - وهو مقبول؛ لأنه موثّق جداً - فلم يعد - إذن - ثمة جدال حول مطلع القصيدة اللامية، ولا سيما أن الشنفرى مولَع أيضاً بالفعل "استقل" "استقلوا"، ووسيلة السفر واحدة "المطايا" "المطية". إذن، الرحلة هناك هي: "بني أمي"، وهي الرحلة هنا: أم عمرو/ أميمة"، وهي التي كانت وسط الحي "بني أمي"، وهي جارة - حبيبة - ككل الجيران الذين تنشأ بينهم علاقة حب، وقد ذكر هذه المفردة هنا أيضاً، ثم هي رحلت، كما ترحل أية ظعينة: إنها ذلك الزمان القديم: الصبا، الشباب. ويأتي الفخر، كما جاء في اللامية، وفيه من صور القسوة

ما لا يقل شدة عن الصور في اللامية، وتشترك التائية واللامية في ذكر القتل، ولهذا قدمت صورة متشابهة في الخروج، ولا تنتهي بالاختفاء في الوديان إلى الأبد، وإنما تنتهي كما تنتهي اللامية.

ولـو لـم أَرِمْ في أهل بـيتي قـاعداً
إذن جاءني بين العمودين حُمَّتي(١)

إننا بهذا نقترب جداً من فهم مدلول الصعلكة، التي لا تعني الهروب والاختفاء، والتلاشي، والعزلة والوحشة والانسحاق، وإنما تعني الفروسية بكل معانيها. الفارس إنما يتحول من عشيرته إلى عشيرة أخرى، فيصبح جزءاً منها. ولعل هذا بعض أوجه عدم رضا الشنفرى عن وضعه الجديد في غير قومه، وإن كان يَعُدّ نفسه جزءاً منهم.

ولنعد إلى التائية، ففيها ضد مفهوم الصعلكة السائد حتى الآن، ولنعد إلى التائية، ولنقرأ اللامية في ضوئها، لنجد أن صورة المرأة مختزلة في اللامية، مفصلة في التائية، إنها صورة ذلك الماضي البهيج الذي كان فيه الشنفرى قبل أن يتحول إلى حياة الإغارة والسلب والنهب، ثم ما جرَّ ذلك من قتل واعتداء، طلباً للثأر، ولو دقَّقنا في هذه الصورة جيداً، لوجدنا أن حالة المرأة فيها هي حالة الشنفرى في صباه، إنها صورته، وإنها نفسيته، اتخذ من المرأة رمزاً لها، ألم يقل في قصيدة أخرى:

---

(١) شعر الشنفرى، ص ص ٩٥ - ٩٩. أجمعت: عزمت. استقلت: ظعنت. سبقتنا: استأثرت واستبدت. أظلّت: طلعت علينا. تامت: شغفت. بانت: رحلت. بذات تقلَّت: بذات كره. لا سقوطاً قناعها: أي حَيِيَّة. النسي: الشيء المفقود. أمها: قصدها. تبلت: تنقطع في كلامها ولا تطيله. حكي: نَمّامة. النثا: ما أخبرت به من حَسَن أو سيِّئ. حليلها: زوجها. آب: عاد. لم يسأل أين ظلت: أي لا تبرح بيتها. ريحت: أصابتها ريح، فجاءت بنسيمها. طلت: أصابها الندى. الأرج: توهج الريح، وتفرقها من على كل جانب. مسنت: مجدب. دقت: ضمر خصرها. جلت: فخمت عجيزتها. اسبكرت: طال شعر رأسها، وامتد قوامها. الغبوق: شُرب العشي. قلت: وقت البرد. لم أرم: لم أبرح. العمودان: أراد بهما عمودي الخيمة. الحمة: المنية.

نَـأَتْ أمُّ قـيسِ المَـرْبَـعَـيْنِ كـلـيـهـمـا
وتَـحْـذَرُ أن يـنـأى بـهـا المُـتَـصَـيِّفُ؟(١)

وهذه هي الرواية الصحيحة، وليست ما اختاره محقق ديوانه: "كِلاهما / المتصرف" فهذه رواية لا تستقيم. والمهم في الأمر، أن هذا البيت يختزل أيضاً كل معاني الفراق والرحلة والظعن، ويؤدي دوره في فهم علاقة الشنفرى بالحياة، سواء بتوافق بقية الأبيات مع سلوكياته، أو باتفاق هذه المعاني مع النتائج المطروحة هنا، من حيث التعلق بالحلم، باسترجاع الماضي في صورة المرأة، ولاسيما أن محقق شعره، عندما تحدث عن تائيته، قال:

"هو يبدأها بشكل من أشكال المقدمة الطللية، ويُعنى فيها بوصف صاحبته وصفاً امتزج فيه الجانبان الحسي والعذري"(٢).

مع ملاحظة الأسماء التي ذكرها: أم عمرو، اسماً خاصاً، أو كنية لـ "أميمة"، وأميمة، وكذلك أم قيس.

وإن عودةً إلى سيرة الشاعر، شعرية ـ أو قصصية نستضيء بها ـ لتدل على أن الشاعر كان يعيش الحلم حقيقةً، فقد مر بتجربة حب، في صباه، ثم حيل بينه وبين حبه، فأصبح يطلبه، وهذه هي التي قال فيها:

ألا لـيت شـعـري والأمـانيُ ضِـلَّـة
بما ضـربـتْ كفُّ الـفـتـاة هـجـيـنَـهـا

ومنها:

إذا قـلتُ بـعضَ الـقول بـيـني وبـيـنـهـا
تـؤُمُّ بـيـاضُ الـوجه مـني يمـيـنَـهـا(٣)

---

(١) شعر الشنفرى، ص ١٠٥. وانظر حاشية ص ٧٠١، وفيها هذه الرواية.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ص ٤٤ ـ ٤٥، ٥٤ ـ ٥٥، حاشية، ص ٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦.

لم يتزوج الشنفرى هذه الفتاة السّلامانية – خلافاً لما تقوله القصة – بل افترق عنها فرقة أبدية، فكانت بعض هذه الأسماء، وكانت أيضاً التي ذكرها:

ألا هل أتى عنا سعادٌ ودونَها

مهامِهُ بِيدٍ تعتلي بالصعالك (١)

خطاب يبدو موجهاً لامرأته، وما هو إلا خطاب لذلك الإنسان الغائر في الأعماق، ذلك الإنسان الذي ارتبط به في الأمس البعيد، فكان حاضراً معه أينما ذهب؛ لأنه هو الذي يريد التمسك به، والعيش معه، إنه صباه.

وماذا عن قول الشنفرى:

إذا أصبحت بين جبال قَوٍّ

وبيضانِ القُرى لم تَحْذَريني

فإمَّا أن تؤدّينا فنرعى

أمانتَكم وإما أن تخوني

سأُخلي للظعينة ما أرادت

ولستُ بحارسٍ لك كلَّ حينِ

إذا ما جئتِ ما أنهاك عنه

فلم أُنكِرْ عليك فطلِّقيني

فأنتِ البعلُ يومئذٍ فقومي

بسَوْطِك لا أبا لك فاضربيني (٢)

فما الظعينة ؟ أليست المرأة، التي تجب حراستها، كما تُحرس في هودجها؟ ألم يكن الشنفرى هنا متزوجاً، وامرأته/ ظعينته في ديار مع جماعة آخرين؟ ألا يدل حتى استعماله (السوط)، على أن الشنفرى كان يحس بالجلد الذاتي، مما ينبئ

---

(١) شعر الشنفرى، ص ١١٧.

(٢) الميمني، الطرائف الأدبية، ص ٢١ وانظر، شعره، ص١٠٨.

عن تصدُّع في نفسيته؟ أكان الشنفرى – بعد ذلك – صعلوكاً منبوذاً؟ بل أكان صعلوكاً فقيراً، حسبما يستخلص من ذكره السابق لـ"الصعالك"؟ أليست هذه هي حاله، وحال غيره من بني قومه، ممن يمارس الغزو، للسلب والنهب، فالصعلكة غزو، إلا أنها غزو بغير إعلان حرب، وألا يقول هذا القول كل من يواجه المنية في كل حين، وليس هذا خاصاً بالشنفرى؟ وإنه لشجار طالما حدث مثله، بصورة أو أخرى، بين كل شاعر وامرأته، أليست هذه المرأة غير سعاد، وغير أميمة، أم عمرو / أم قيس؟ فهذه هي التي يخاطبها مرة أخرى بالطريقة نفسها:

دعيني وقولي بعدما شئت إنَّني
سيُغدى بنعشي مرةً فأغيَّبُ(١)

ولم يكن الشنفرى منبوذاً، ولم يكن صعلوكاً، خارجاً على القانون، كان يعيش وسط الجماعة وبين قوم عدّوه منهم، كان من الأزد، زهران، حقيقةً، والتحق بفهْم، في جهات اللِّيث، جنوب مكة، فكان مع تأبط شراً يغير على هذيل تارة، وعلى الأزد، زهران، تارة أخرى. وعلى بني "سلامان" منهم خاصة؛ لأنهم هم قَتَلَةُ أبيه، ولم يجد أحداً يأخذ بثأره منهم سواه. وما اللامية إلا صدى لذلك الشعور بالغربة، التي يعيشها في داخله، بعيداً عن قومه، الأزد، زهران.

لم يعش الشنفرى الحياة التي صورها في اللامية، بل كانت معيشة فنية، استلهم فيها الشنفرى روح الطبيعة وحيواناتها، كانت الغربة جانباً من جوانب ذلك الجلد الذاتي الذي يحسه، حتى وهو يغادر بيته، طلباً للمغنم. على أننا ينبغي أن نتذكر أن الشنفرى لم يعش الصحراء، فليس في تهامة حتى الطائف،

---

(١) شعر الشنفرى، ص ١١٠. وليس من هدف هذه الدراسة تتبع معنى "الظعينة"، خارج موضوع الظعائن، تحديداً حيث ارتبطت الظعينة بـ(الهودج)، فمن ذلك ما جاء في قول لبيد، ويرثي قتادة ابن مسلمة الحنفي، ابن منظور، اللسان. "سنر":

وجاؤوا به في هودج ووراءه　　　كتائب خضر في نسيج السَّنَوَّرِ

السَّنَوَّر: لَبوس من قِدّ، يُلبس في الحرب كالدرع. وانظر، "ظعن".

ووديان عسير وجبالها، وهي الدائرة التي كان يتنقل بها، صحراء؛ إذ كل الصور منقولة من طبيعة تلك الأرض، وليس من خارجها، حتى إن مشهد الذئاب ليس مشهداً في الصحراء، وإنما مشهد في الجبال، فليس في صحراء العرب مشهد تجمّع للذئاب، وإنما تفرّق لها، وما مشهد الوعول بتلك الصورة التي يقدمها إلا تأكيد آخر على أن الصورة في جبال السراة، ولا سيما أطرافها الجنوبية الغربية.

والآن، أليس من حقنا أن نعيد النظر في مقولة (الصعلوك المنبوذ)؟

فهذا تأبط شراً يقول:

يـا عِـيـدُ مـا لَكَ مِنْ شَـوْقٍ وإيـراق
ومَـرُّ طَـيْفٍ عـلى الأهـوال طَـرّاقِ
يَسْري على الأَيْنِ والحَيّات مُحْتَفِياً
نـفـسي فـداؤكَ من سـار عـلى سـاقِ

وينتهي إلى القول:

بَلْ مَنْ لِـعَـذّالـةٍ خَـذّالـةٍ أَشِبٍ
حَـرَّقَ بـالـلـوم جِـلـدي أيَّ تَـحـراقِ
يـقـول أهـلـكتَ مـالاً لـو قَـنـعتَ به
من ثَـوْبِ صِـدق ومن بَـزٍّ وأَعْلاقِ
عـاذلـتي إن بـعضَ الـلـومِ مَـعْـنَـفَـةٌ
وهل مَـتـاعٌ وإن أبـقـيـتُه بـاقِ
إني زعـيـمٌ لـئِنْ لم تَـتـركـوا عَـذَلي
أنْ يَـسـألَ الحَيُّ عـني أهلَ آفـاقِ
أن يـسـأل الـقـومُ عـني أهلَ مَـعْـرِفَـةٍ
فلا يُـخَـبِّـرُهُمْ عن ثـابتٍ لاقِ

سَددّ خلالَك من مال تُجَمّعه
حتى تُلاقي الذي كلُّ امرئٍ لاقِ
لَتَقْرَعَنّ عَليّ السِّنَّ من نَدَمٍ
إذا تَذكرتَ يوماً بعض أخلاقي(١)

والطيف هنا، هو ككل أطياف الشعراء، امرأة، عاشت في الذاكرة، وتظهر فجأة، في لحظات الأزمات والخلوة، كحال تأبط شراً، كما يصوره بيته الثاني: "يسري على الأين .. "، إنه يعيش صراعاً نفسياً عميقاً بين فقدان الحلم، وتكريس الحياة في عمل تعويضي، ينتهي بهذا الموقع اليائس من الحياة، وليس تأبط شراً - صاحب الشنفرى، ورفيق دربه المخلص الوفي له - منبوذاً، بل كان في الحي، أي: وسط جماعة يحتضنونه، وليسوا هم الصعاليك، بل الحي، جزءاً من القبيلة، أو القبيلة نفسها، فهْم، وكان يأتي "بالمال"، فينفقه عليهم جميعاً: "أهلكت مالاً ..."، ولا يبقي منه شيئاً، رمز السيادة والإحساس بالزعامة. وما الصورة الثانية إلا صورة العاذلة / الزوجة، وهذا هو الإطار الذي تأتي فيه لفظة "العاذلة" للمرأة، وليس للرجل. ويمكن قراءة كثير من المفردات هنا على أنها موجّهة إلى امرأة واحدة. وهنا يلتقي تأبط شراً - كما التقى الشنفرى من قبله - بالشعراء جميعاً في موقفهم من زوجاتهم، إما تهديداً، كما يفعل تأبط شراً، أو مآل العلاقة الزوجية إلى الانفصال. وأغرب ما في رواية البيت الأول، كما جاء في الديوان:

(١) الضبي، المفضليات، ص ص ٢٧، ٣٠-٣١ . العيد: ما اعتاد من حزن وشوق. ما لك: ما أعظمك . الإيراق: الأرق. طراق: يطرق ليلاً.

يسري: يسير. الأين: نوع من الحيّات، أو الإعياء. محتفياً: حافياً.

العذالة: الكثير العذل. الخذالة: الذي يكثر خذلان صاحبه.

الأشب: المختلط المعترض. ثوب صدق: مقابل ثوب سوء. يعني به الجيد. البز: الثياب والسلاح.

الأعلاق: كرائم الأموال. معنفة: عنفٌ . زعيم: كفيل وضمين. ثابت: هو تأبط شراً. الخلال: جمع خلة، وهي الحاجة والفقر.

يـا هـنـد مـا لك من شـوق وإيـراق(١)

فهذا تحقيق ما بعده تحقيق للحلم والواقع.

إن تأبط شراً، كما الشنفرى، وكما كل فارس، رئيس، سيد في جماعته، أو مستشعراً الزعامة والرئاسة، عاش في وسط جماعته، وكان يعاني كثيراً من أجل تحقيق طموحاته وأحلامه، وهذا أمر لم يعد يشغلنا الآن، إلا أنه بوصفه شاعراً فناناً، كان يأرق للحلم، يقول، إن كان الشعر له:

يـا نـارُ شُبّت فـارتـفـعتُ لـضَـوْئـهـا

بـالجِـزْع من أفْـيـادَ أو من مَـوْعِلِ(٢)

وما هذه النار إلا نار الأحبة التي طالما تخايلت للشعراء المحبين جميعاً، ولهذا، فهو يستحضر طيف محبوبته، أو يَحضر له طيف محبوبته حلماً أبدياً، فيقول:

أَطَـيْفٌ من سـعـادَ عَـنَـاك مـنـهـا

مُـراعـاةُ الـنـجـوم ومَنْ يَـهـيـمُ

وتـلك لـئن عُـنـيـت بـهـا رَدَاحٌ

من الـنِّـسـوان مَـنْـطِـقـهـا رَخـيـمُ

نِـيـافُ الـقُـرْطِ غَـرّاءُ الـثـنـايـا

ورَيـداءُ الـشـبـاب ونِـعـمُ خِـيـمُ(٣)

وهذه هي الصورة المثال، كما هي عند كل الشعراء، تكتمل بالطيف في الحلم واليقظة، وتأبط شراً يعيش تجربة الحب، تجربة الصبا، تجربة الحلم، كما عاشها كل شاعر، فيقول:

(١) ديوانه، ص ١٢٦ . وانظر حاشية، ص ص ١٤٢ - ١٤٤.

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ . الرداح: المرأة الممتلئة العجيزة الثقيلة الأوراك التامة الخَلق. وخيم: لين منخفض رقيق. نياف: طويلة . القرط: حلق الأذن. غراء: ناصعة. الثنايا: مقدم جانبي الأسنان. نعم خيم: حسنة المعشر.

أَلَم تَشلِ اليومَ الحُمولُ البواكرُ
بَلى فاعترف صَبْراً فهل أنت صابرُ
وشاقَتْك هندٌ يومَ فارق أهلُها
بها أسفاً إنَّ الخطوب تُغادرُ
فإنْ تَصرمِيني أو تُسِيئي لِعشرَتي
فإنِّي لَصَرّام القَرِينِ مُعاشِرُ(١)

مع ملاحظة ذكر الإبل "الحمول"، وهو جوّ الرحيل في القصيدة الجاهلية.

وهذه هي التي يخاطبها في وقت الضيق والشدة، بقوله:

ومرقبةٍ يا أمَّ عمرو طِمِرَّةٍ
مُذَبْذَبةٍ فوق المراقب عَيطل(٢)

أما واقع تأبط شراً، فهو واقع كل شاعر أيضاً من عدم الاستقرار والاضطراب في الحياة الزوجية:

ألا تلكما عرسي مَنِيعةُ ضُمِّنت
من الله إثماً مستسِراً وعالنا
تقول تَركتَ صاحباً لك ضائعاً
وجئتَ إلينا فارقاً مُتباطنا(٣)

وهذه هي التي يقول عنها:

تُوَلولُ سُعدى أنْ أتيتُ مُجَرَّحاً
إليها وقد مَنَّت عليَّ المقاتلُ

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٧.

إن تصرميني: إن تقطعي وصلي. القرين: الرفيق.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨١.

(٣) المصدر نفسه، ص ص ٢١٢-٢١٣. الفارق: الذي فرق شعر رأسه وسرّحه. متباطناً: أي، قد امتلأ بطنك.

وكـائِنْ أتـاهـا هـاربـاً قـبل هـذه

ومِنْ غـانمٍ أو أين مـنكِ الـولاولُ(١)

وهو يقول هذا، ليس قبل أن يتصعلك، بل يقوله وهو يمارس الصعلكة.

إن تأبط شراً هو القائل يفخر بنفسه:

سبَّاق غـايـاتِ مجـدٍ في عـشـيـرته

مـرجِّع الـصـوت هـدّاً بـين أرفـاقِ

هو جزء من قومه، بل له مكانة بارزة فيهم.

وخضوعاً للحلم، وليس للتحقيق، يقول تأبط شراً، في وصف امرأة سباها، فأسبغ عليها من صفات الكمال والجمال ما يتوافق مع الحلم لا مع التحقيق، وتأبط شراً إنما يقول هذا الشعر تعبيراً عن ذلك الحلم، ولم يكن يريد به حال المرأة، فهذا ما لا يتوافق مع طبيعة الفن، وطبيعة تعبير الأبيات نفسها التي لا تعكس إلا الرغبة والتمني، ولهذا وصفها بأنها "آنسة" وهو الوصف الذي يتفق عليه كل الشعراء في إسباغ العذرية والبكارة على المرأة، إضافة إلى بقية الصفات التي تتطابق مع غيره في مثل هذه المرأة، فيقول:

بِحَـلـيـلـة الـبجـلِيِّ بِتْ مِنْ لـيـلـهـا

بـين الإزار وكَـشْـحِـهـا ثـم الـصَقِ

بـآنـسـة طُـويت عـلى مَـطْـويِّـهـا

طَيَّ الحِـمَـالـة أو كـطَيِّ المـنـطِقِ

فـإذا تـقـوم فـصـعـدةٌ في رمـلـةٍ

لَـبِـدت بَـريِّقِ دِيمَـةٍ لم تُـغْـدِقِ

وإذا تجيءُ تـسـحب خِـلـتَـهـا

كـالأيْم أصْـعَـد في كَـثِـيبٍ يَـرتـقي

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ص ١٨٠–١٨١.

كـذب الـكـواهـن والـسـواحـر والـهـنـا
أنْ لا وفــاءَ لــعــاجــزٍ لا يــتــقـي(١)

إن هذا التعبير تعبير حلم، وليس تعبير ممارسة، وكيف يلتقي هذا مع زعمهم بأن تأبط شراً أحب جارية من قومه، ثم إنه اتصل بها اتصالاً جنسياً ؟(٢).

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فالرحيلي يطرح رأياً يقول:

"إن الحوار من الزوجة عنصر تكويني محدد، طوّره الشعراء الصعاليك في مقدمات قصائدهم لكي يحل محل النسيب التقليدي في القصيدة النمطية، ومن أشهرهم في هذا عروة بن الورد، الذي دأب على استهلال قصائده مخاطباً زوجته أمَّ حسان، أو ابنة منذر، وفي هذا الحديث الصعلوكي تظهر الزوجة القلقة على مصير زوجها من حياة المغامرة التي ينتهجها، ويتخذ الشاعر الصعلوك من هذا القلق الأنثوي منطلقاً للحديث في نغمة فخر عن رجولته، وعن رؤيته للحياة المبنية على الإيمان بحتمية الموت وعدم إمكان الفرار منه، أو التأخر عن ساعته، وهي رؤية تؤدي إلى قناعة مسلكية تجعل الإنسان يستهْوِن الموت في سبيل الكرامة الشخصية، والتخلص من الفقر والذل".

ويورد قول عروة:

أَقِــلِّي عــليَّ الــلــومَ يــابــنــةَ مُــنــذرِ
ونـامي فإنْ لم تـشتهي الـنومَ فـاسهري
ذريــنـي ونــفــسي أمَّ حــســانَ إنــني
بـهـا قـبل أن لا أملك الـبـيعَ مـشـتري
ذريــنـي أطَـوِّفْ في الــبلاد لــعــلَّـني
أخَـلِّيكِ أو أُغـنـيك عن سـوءِ مـعـشـرِ

---

(١) ديوانه، ص ص ١٤٥ - ١٤٧. جاء في حاشية الديوان: الهنا: لعلها النُّها: ضرب من الخرز والودع، يستعمل في الرُّقى ودفع الشرّ.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩. وانظر ص ص ٢٧٠ - ٢٧١.

فإن فاز سهم للمنية لم أكن
جزوعاً وهل عن ذاك مِنْ متأخَّرِ
وإن فاز سهمي كفَّكم عن مَقاعد
لكم خلف أدبارِ البيوت ومنظرِ
تقول لك الويلات هل أنت تاركٌ
ضبواً بِرَجْلٍ تارةً وبِمَنْسَرِ

ويمضي الرحيلي في رأيه حتى يقول:

"إن مثل هذا الحديث الصعلوك - كما يرى القارئ - مفعم بالعواطف الإنسانية، المتمثِّلة في حنان المرأة، وتضحية الرجل بحياته في سبيل كرامته وكرامة أسرته، غير أن المدَّاحين الأمويين، وجرير على وجه الخصوص، استغلوا فيما يبدو هذا الحوار الجميل، الصادر عن رؤية حقيقية، استغلالاً سلبياً عندما أخضعوه لمتطلبات المديح، فانحرفوا به عن غايته الأصلية، وجرَّدوه من عاطفته النبيلة، وجعلوا نغمته أقرب إلى النغمة المتسوِّلة الذليلة، بعد أن كان نغمة فخر وأَنَفَة ورجولة، وذلك تَبَعاً لتحول القصيدة العربية من قصيدة فخر في العصر الجاهلي إلى قصيدة مديح رسمي في العصر الأموي، وتحوُّل الشاعر العربي تبعاً لذلك من بطل لذاته في قصيدته إلى بوق إعلامي في قصور السلاطين والولاة، لقد درج جرير بالذات، على التمهيد للمديح في عدد من قصائده بالحوار مع زوجته أو ابنته التي تلاحظ خضاب الشيب في رأسه وتحنِّي عظامه، وقصر خطاه، وضعف بصره، وعجزه عن الحركة".

وواضح أن الرحيلي لم يلتفت إلى دور العاذلة(١)، في الشعر العربي القديم،

---

(١) وجعل يوسف عليمات صورة المرأة عند الشعراء الصعاليك نسقاً خاصّاً، وما هي إلا ضمن النسق العام للقصيدة الجاهلية. يوسف عليمات، النسق الثقافي قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم (الأردن: عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩م) ص ص ١٢٦-١٥٩. وانظر: منذر ذيب كفافي، صورة المرأة في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر الأموي (الأردن: دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

وهو إذ يثبت هنا ـ وهو ما أثبته عروة نفسه ـ أن عروة يضحي من أجل أسرته، ينفي بالتالي كونه صعلوكاً، منبوذاً، كما هو وصف الشنفرى، وهل خلا شعر "الصعاليك" من مقدمات طللية؟ وكيف اتفق لجماعات متباعدة، متنائية، في الجزيرة العربية، أن تطور بناءً فنياً،لم يتناقلوه بينهم؟ وهل تأكد لنا أن جريراً "درج.. بالذات على التمهيد للمديح في عدد من قصائده بالحوار مع زوجته أو ابنته التي تلاحظ الشيب في رأسه..."؟ ألم يغلب على كل شعر جرير الابتداء بالمقدمات الطللية؟ وماذا يعني هذا الحوار بين عروة وزوجته، وتفضيل الموت على الحياة؟ وماذا يعني الحوار بين جرير وابنتيه في زمن يصف جرير نفسه بمثل ذلك الانكسار؟

ومهما يكن، فالرحيلي نفسه أثبت في حاشية دراسته:

"قد تعود فكرة الحوار مع المرأة في سياق المديح للأعشى قبل جرير، فقد عثرت أخيراً في واحدة من مدائحه على قطعة تتضمن هذا الحوار، وهي تتضمن حالة من الشكوى والانكسار النفسي الذي يتطلبه المديح، وهي في رؤيتها تطرح موقف الجاهلين عموماً، لأننا نرى فيها إيماناً بأن الإقامة لا تمنع الردى، وأن الطواف ليس سببه بالضرورة غير أن القطعة هنا أتت في نهاية القصيدة، ولم تُستخدم مدخلاً للمديح، كما أن المرأة ليست زوجة الشاعر، بل ابنته التي تخشى عليه مشقَّة السفر مع الكبر..."(١).

وهذا أساس يمكن أن ننطلق منه جميعاً، فما الأعشى إلا واحد ممن دار في تيار تقليد عام، وما الأعشى، وما عروة، وما جرير، إلا أناس عبَّروا عن موقفهم من الحياة، وهروبهم من واقعهم إلى مجالات يستطيعون فيها تحقيق أحلامهم، وتطلعاتهم، إنهم في صراع أبدي بين واقع مرير ورغبة في تأكيد الذات، وكانت

(١) الرؤية النواسية: قراءة في مدحة وخمرية، مجلة جامعة الملك سعود (م٦، الآداب، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، حاشية ص ص ٤٨٥-٤٨٦.

ضبواً: الضبوّ، اللصوق بالأرض.

الرَّجْل: الرَّجّالة. المنسر: الخيَّالة.

المرأة ـ زوجة، أو ابنة ـ هي الحلم الذي أصبح يؤرق الشاعر، ولم تعد أيّ منهما حلماً ينفّس عنه، فقد كان الحلم، بهريرة، وتَيّاً، وكان الحلم يتمثل بـ"أم علي" في شعر عروة(١)، التي هجرته، ولم تبق معه. تحدث عروة عن الأطلال، فذكر "سلمى"، وذكر "أم وهب"، كما تحدث عن رحيل "سلمى"، بل إنه تحدث عن أطلال "أم حسان"(٢).

المرأة هي المرأة، والماضي هو الماضي، أما "أم حسان"، أو "ابنة منذر"، وإن اشتركت الأولى في الاسم مع تلك التي في الأطلال، في ذلك الزمن الماضي البعيد، فهي أم حسان أخرى، إنها هي التي تعيش معه فيما بعد الأطلال، فحتماً ليست هي سلمى، وليست هي أمّ وهب، اللتين جاءتا معاً في أبياته الرائية(٣)، ومن ثم فـ"أم حسان"، هي بعض من كل، والكل واحدة، أما أم حسان الآن، فغير تلك، إنها هذا الشقاء الذي لا يستطيع الخلاص منه إلا بالفرار إلى مواجهة الموت.

ولتصحيح تلك الأخبار المتعلقة بعروة، فعروة أحبَّ المرأة / الحلم، التي عاشت معه في جنوب غرب القصيم، ثم ظعنتِ إلى أرض كنانة، في تهامة.

وإذا كان جرير قد هبط إلى درجة الحضيض، فأين ذلك من قول تأبط شراً:

ولستُ بَعِيداً عن مُدامٍ وقَيْنَةٍ
ولا بِصَفاً جَلْدٍ عن الخير مَعْزِلِ

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ٧٤.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، "غضور". وانظر أبيات العجير السلولي، الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ص ٦٤ ـ ٦٥، وقارن هذا بقصيدتي حاجز، الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ص ٧١–٧٩، وأين هذا من شعر هذيل كله، الذي لا تخلو قصيدة منه من مقدمه طللية ؟

(٣) ديوانه، ص ص ٣٣ ـ ٣٥. وانظر ابن هشام، السيرة، ج ٣، ص ٢٠١، حيث ذكر أم عمرو. أما عن المديح، فلدينا مدائح الأعشى، وأمية بن أبي الصلت، وأوس بن حجر، وزهير والحطيئة، والمسيب بن علس، والنابغة ... إلخ.

ولـكـنـني أُرَوّي منَ الخـمـر هـامـتي
وأمـشي الَملا بـالـسـاحب المتسلسلِ(1)

بل أين منه قول أخت عمرو ذي الكلب، في أخيها عمرٍو وهي ترثيه:

والمخـرجُ الـعـاتِقَ الـعـذراءَ مُـذعِـنـةً
في الـسَّبي يَنْفَح مِنْ أردانـها الطِّيبُ(2)

(1) المسعودي، مروج الذهب، جـ2، ص626. والبيتان ليسا في ديوانه.

(2) ابن حبيب، أسماء المغتالين، نوادر المخطوطات، ج 2، ص243. العاتق: المصونة. أردافها: أكمامها. مذعنة: مطيعة. ينفح: يفوح. وانظر، السكري، شرح أشعار الهذليين، ج2، ص580.

الفصل الرابع

التقليد والاتباع في شعر "الصعاليك"

إن من الدعائم التي بنى عليها يوسف خليف آراءه بأن الصعلكة خروج على المألوف وثورة على الأعراف: هو أن شعر هؤلاء لا يخضع للتقليد السائد في الشعر الجاهلي؛ من وقوف على الأطلال وذكر للظعائن ... إلخ، وما يتعلق بهذا من خوض حروب تقليدية ... إلخ، حتى إنه عندما التقى بقافية تأبط شراً، راح يوجد لها المسوِّغات!(١).

ولن نتعرض هنا إلى شعراء هذيل، فما من أحد منهم إلا وكان يسير وفق ذلك المألوف، ويتمسك بالأعراف؛ ففي شعر غيرهم ممن ضموهم إلى الصعاليك، غَناء وأيٌّ غَناء. ولنأخذ ثلاثة نماذج مشهورة، وكل واحد منهم يشكل منطقة خاصة من مناطق الجزيرة العربية:

الأول: عروة بن الورد، شاعر نجدي، تمتد مسارح عملياته من بلاد طيِّئ حتى المدينة.

يقول:

أرِقْتُ وصحبتي بمضيق عَمْقٍ
لبرقٍ في تهامةَ مستطيرِ
إذا قلتُ استهلَّ على قُدَيدٍ
يَحورُ رَبابُه حَوْرَ الكسيرِ
سقى سلمى وأين ديارُ سلمى
إذا حلَّت مجاورة السريرِ
إذا حلَّت بأرضِ بني عليّ
وأهلي بين إمَّرةٍ وكِيرِ

(١) خليف، الشعراء الصعاليك، ص ص ٢٦٦ - ٢٧٢.

ذكــــرتُ مـــنــــازلاً من أم وَهْبٍ
مــحلُّ الحيِّ أســفلَ ذي الــنَّــقــيــرِ
وأحـــدث مـــعـــهـــداً من أم وهب
مُــعَــرَّسُــنـا بـدار بـني الـنَّـضـيـرِ(١)

وهو هنا مثله مثل غيره من الشعراء، في موقف إنساني تجاه المرأة التي هجرَتْه إلى بلادها: "أرض بني علي" من كنانة، في "السرير"، من تهامة جهة "حسنى" من نواحي جنوب غرب المدينة.

ويقول أيضاً في سلمى هذه:

تَــحِنُّ إلى ســلــمى بِــحُــرّ بلادهــا
وأنت عــلــيــهــا بــالــمَـلا كنتَ أقدرا
تَـــحِلّ بـــوادٍ من كَـــراء مَـــضَــلَّـــةٍ
تحـاول ســلــمى أن أهَــابَ وأجْــصَـرا
وكــيف تُــرَجِّــيــهـا وقد حِــيل دونــهـا
وقد جـاورتْ حَــيّـاً بتَــيْــمَنَ مـنكـرا(٢)

وكما تنتهي العلاقة فيما قبل رحيل ظعائن المحبوبة بنسبة سبب قطع هذه العلاقة إلى الوشاة، في بعض الأحيان، قال عروة:

أطــعتُ الآمِــرِيَّ بــصَــرم ســلــمى
فــطــاروا في بلاد الــيَــسْــتَــعــورِ(٣)

وعلينا أن نضع نصب أعيننا دوماً أن شعر الصعاليك شعر غزو.

---

(١) ديوانه، ص ص ٣٣ - ٣٥. وقال السليك بن السلكة، وهو معدود من الشعراء الصعاليك، البكري، معجم ما استعجم، "نيال":

أَلَمّ خيالٌ من نُشَيبة بالركب وهن عِجال عن نُيَالٍ وعن نَقْب

(٢) ديوانه، ص ص ٣٧-٣٨. أحصر: أضيق عن ذلك.

(٣) البكري، معجم ما استعجم، "اليستعور". "اليستعور": من نواحي المدينة.

الثاني: قيس بن الحدادية الخزاعي : ومنطقة تطوافه منطقة المدينة :

نعلم من "كتاب الاختيارين" للأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ)، وهو عالم ثقة، روى في كتابه (قصائد موثقة)، القولَ المتداولَ عنه أن خزاعة خلعتْه بسوق عكاظ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه، فكان صعلوكاً. وأهم ما في الأمر أن قيساً شاعر قديم، له مع عامر بن الظَّرِب العدواني حديث، وعامر بن الظَّرِب ممن شهد الحروب الأولى بين ربيعة واليمن؛ أي: عاش في حدود النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، وبينما يقول الأخفش عنه:

"كان فارساً، شجاعاً فاتكاً، خليعاً"(١).

وهي العبارة المحايدة التي تعني صفتها الأخيرة "خليعاً"، إما الخلع؛ أي: الطرد والنفي إلى المجهول، وإما الخلع، أي: الطرد والنفي بحيث ينضم إلى جماعة أخرى، يقول قيس:

أَجِــدَّك إنْ نُــعْمٌ نَــأَتْ أنت جــازِعُ
قـــد اقـــتـــرَبَتْ لـــو أن ذلك نـــافعُ

قـد اقـتـربت لـو أن في قُـربِ دارهـا
جَــداءً ولــكن كلُّ من ضَنّ مـــانعُ

فـإن تَـلْـقَـيَنْ أسـمـاءَ يـومـاً فَـحَـيِّـهـا
وسَلْ كيف تُـرعى بـالـمَغيب الودائعُ

فـظنّي بـهـا حِـفْظٌ لـغَـيْبي ورَعْـيَـة
لما استُرعيت والـظنُّ بـالـغيبِ واسعُ

وقـد يـحـمَـدُ الـلهُ الـعَـزاءَ مِنَ الـفتى
وقد يَـجْـمَع الأمـرَ الـشـتـيتَ الجوامعُ

---

(١) الأخفش الأصغر، كتاب الاختيارين، ص ٢١٦. وانظر الحاشية.

ألا قد يُسلِّي ذو الهوى عن حبيبه
فيسلو وقد تُردِي الرجالَ المطامعُ
كما قد يُسلَّى بالعِقال وبالعصا
وبالقَيْد ضِغْنُ الفحل إذْ هو نازعُ
فما راعني إلا المنادي ألا اظْعَنُوا
وإلا الرواغي غُدْوَةً والقعاقعُ
فجئت كمُخْفِي السرِّ بيني وبينها
لأسألها أيانَ مَنْ سار راجعُ
فقالت لقاءٌ بعد حول وحجَّة
وشَحْطُ نوىً إلا لذي العهد قاطعُ
وقالت تَزَحْزَح لا بنا خِلتَ خَلَّةً
إليك ولا منّا لفقرك راقعُ
بحسبك من قُرْبٍ ثلاثةُ أشهر
ومِنْ حَزَنٍ أنْ زاد شوقَك رابعُ
وقد يلتقي بعد الشَّتات أُولُو النَّوى
ويَسْتَرْجِعُ الحَيَّ السحابُ اللوامعُ
فما زلتُ تحت السِّتر حتى كأنني
مِنَ الطَّلِّ ذو طِمْرَين في البحر كارعُ
وهزت إليَّ الرأسَ مِنِّي تَعَجُّباً
وعُضِّضَ مما قد أتَيْتُ الأصابعُ(١)

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٦ . أجدك: أحقاً؟. جداء: نفع. الفحل المنازع: الذي حن واشتاق بشدة. الضغن: الحقد. نازع: ثائر.

الرواغي: الإبل تصوِّت. القعاقع: حركة الظعن. شحط: بُعد.

نوى: بُعد. الطل: – هنا – العرق. شارع: داخل. الطِّمْر: الثوب الخَلَق.

وهذه قصيدة نمطية تقليدية، والقصيدة - بعد ذلك - لا تهجم على الموضوع مباشرة، بعيداً عن ذلك النمط والتقليد، وقيس أحب "نُعْم"، التي رحلت، كما ترحل أية ظعينة في القصيدة القديمة، وهو يعيش في حلم معها، وكان اللقاء عابراً، كما يقع اللقاء عادة فيما قبل تقويض المنازل، في فترات التجاور، في أثناء الارتباع والانتجاع، وهي الفكرة التي تتأسس عليها الطللية ورحلة المحبوبة، وفي مدة ذلك التجاور تنشأ علاقة سرية حميمة بين المحبين، يفضي كل واحد منهما إلى الآخر بمكنونات نفسه، ولواعج أشواقه وهواه.

ولكن فجأة، يحصل ما هو متوقَّع، فترحل المحبوبة مع أهلها عن حبيبها، تاركين المراعي، ووقت الانتجاع الآن، بعد أن ظهرت علامات الجفاف والجدب، عائدين إلى ديارهم الأولى، ولا تبقى إلا الذكرى، تظهر في شكل استدعاءات لما جرى بينهما ذات يوم، وفي أحوال رحلة ظعائن المحبوبة ... إلخ.

فإذا بدت الصورة كما هي عليه، موافقةً للنمط القديم، سواء عند امرئ القيس، أو عند مَنْ جاء بعده، فإن هذا يصبح أحد العوامل التي تدفعنا إلى فهم أقوى البراهين على الاتباع والتقليد حتى بين شعراء "الصعلكة" أنفسهم، فقَيس من واقع تلك الأبيات، كما تعكسها القصيدة التقليدية، كان يعيش بين قومه، وأهله، صبياً ويافعاً، وهو حين يعبِّر عن هذه الحال، إنما يعبر عن الحلم المفقود، وهو الحلم الذي يشترك فيه مع كل شاعر قديم جعل الظعائن محوراً لحديثه، وهو في زمن خطابه ذاك، كان يستدعي ماضيَه إزاء حاضره؛ أي: بعد أن تعاقبت عليه السنون والأيام، في زمن متأخر من حياته؛ فالقصيدة نتاج زمن متأخر، وهو الزمن الذي يُفترض فيه أن يعيش الضياع والغربة والعزلة، وما كان قيس قط غير منتمٍ، فبعد أن اشتد عوده، ووَرِي زَنده، أصبح قائداً، وزعيماً في قومه "خزاعة"، وكان بهم يغير على "هوازن" و"قشير" خارج حدود المدينة، وبعيداً عنها جداً، بعد أن يقطع صحراء رُكْبَة، قادماً من المدينة، ويتجه إلى الشمال الشرقي، صوب ديار قُشير، وبني كلاب، حيث يقول:

نحن جلبنا الخيلَ قُبّاً بطونُها
تراها إلى الداعي المثوِّب جُنَّحا
بكل خُزاعيٍّ إذا الحرب شَمَّرتْ
تَسَرْبَلَ فيها بُردَه وتَوَشَّحا
قَرعنا قُشيراً في المَحَلِّ عَشيَّةً
فلم يجدوا في واسع الأرض مَسْرَحا
قتلنا أبا زيدٍ وزيداً وعامراً
وعُروةَ أقصدنا بها ومُرَوَّحا
وأُبْنا بإبْلِ القومِ تُحدى ونسوةٍ
يُبَكِّين شِلْواً أو أسيراً مُجَرَّحا
غداةَ سقينا أرضَهم مِنْ دمائهم
وأُبْنا بأُدْمٍ كنَّ بالأمس وُضَّحا
ورُعنا كِلاباً قبل ذاك بغارةٍ
فسُقنا جِلاداً في المبارك قُرَّحا
لقد علمتْ أفناءُ بكرِ بنِ عامرٍ
بأنا نذودُ الكاشحَ المتزحزِحا
وأنا بلا مَهرٍ سوى البيضِ والقَنا
نُصيبُ بأفناءِ القبائل مَنْكَحا(١)

أما مسألة خلع قيس، وهي المسألة التي تعلّقت بقيس طويلاً، فهي أن قيساً في فترة من فترات حياته، انتقل إلى عشيرة أخرى من عشائر خزاعة، بعد أن خلعته

(١) الضامن، شعراء مقلون، ص ١٥-١٩ . القب: الضامرة. المثوب: الداعي. جُنَّح: مائلات. تسربل: لبس. أقصده: طعنه، فلم يخطئه. تحدى: تساق. الشلو: كل مسلوخ أُكل منه شيء، وبقيت منه بقية. أدم: نساء. وضح: بيضاء. الجلاد: الغزيرة اللبن. القُرَّح: النياق أول حملها. الأفناء: الأخلاط. الكاشح: الذي يضمر العداوة. المتزحزح: المتباعد.

ـ حقيقةً من حوزتها ـ عشيرتُه التي ينتسب إليها. غير أن هذا الخلع المشهود عليه لم يدعه وحيداً في العراء، بل وجد عند غيرهم الانتماء، وهكذا، عاش، جاء في الأغاني:

"لما خلعت خزاعة قيساً، تحول عن قومه، ونزل عند بطن من خزاعة، يقال لهم بنو عدي بن عمرو بن خالد، فآووه، وأحسنوا إليه، فقال يمدحهم:

جزى الله خيراً عن خليع مُطَرَّدِ
رجالاً حَمَوْه آلَ عمرو بن خالدِ
فليس كمن يغزو الصديق بِنَوْكِه
وهِمَّتُه في الغزو كسبُ المَزاودِ
عليكم بعَرْصَات الديار فإنني
سواكم عديدٌ حين تُبلى مشاهدي
ألاوذتُمُ حتى إذا ما أمِنْتُمُ
تعاورتُم سَجْعاً كسجع الهُداهدِ
تَجَنّى علينا المازنان كلاهما
فلا أنا بالمُغضي ولا بالمساعدِ
وقد حَدَبَتْ عمروٌ عليَّ بعِزِّها
وأبنائها من كل أروعَ ماجدِ
مَصالِيتُ يومَ الرَّوْعِ كَسْبُهُمُ العُلا
عِظامُ مَقيلِ الهام (شُعْرُ) السواعدِ
أولئك إخواني وجُلُّ عشيرتي
وثروتُهم والنصرُ غيرُ المحاردِ(١)

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٤، ص ص ١٤٤–١٤٥. فليس كمن يغزو: أي فليس هذا الحي كمن يغزو. النَّوْك: الحُمْق. المزاود: جمع مزود، وهو وعاء الزاد. العرصات: جمع عرَصة، وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. عديد: معدود. تبلى: تختبر. مشاهد: جمع مشهد، أي شهودي القتال وخوضي غماره. لاوَذَ: استتر. تعاوروه: تداولوه. سجع: غناء. تجنّى عليه: ادعى ذنباًلم يفعله. حدبت: عطفت. الأروع: الشَّهْم. الثروة: الكثرة. المحارد: غير المنقطع.

طردته عشيرته، فهو "مطرَّد" وخلعته، فهو "خليع"، فاستقبلته جماعة أخرى من قومه، فصاروا إخواناً له، وغدَوا الآن هم عشيرتَه، وأصبح جزءاً منهم، يشاطرهم ويشاطرونه .

وبعد، فالواضح جليّاً أن الخليع لا يعيش مخلوعاً طيلة حياته، بل ينتمي إلى آخرين، بالحلف، أو الاستجارة، فيدخل فيهم، ويصبح معدوداً منهم، ويشارك فيما يشترك فيه غيره من سلب ونهب، وحرب، منذ بداية خلعه وانضمامه إلى أولئك الآخرين.

الثالث : حاجز الأزدي:

وهو من زهران، ومنطقة زهران تحديداً، هي: غرب الباحة، فهل كان حاجز منفياً من بني سَلامان، من زهران، خلعته زهران، فهو الآن يعيش بقارعة الطريق، أو بين الأحراش والشقوق الموحشة، لا يقرب الناسَ، ولا يخالطهم؟ فحاجز يقول في ميميته[1]:

سألتُ فلم تكلِّمْني الرسومُ
فظَلْتُ كأنني فيها سقيمُ
بقارعةِ الغَريف فذاتِ مَشْيٍ
إلى العَصْداءِ ليس بها مُقيمُ
منازلُ عَذْبَةِ الأنيابِ خَودٌ
فما إنْ مثلُها في الناس نيمُ

وهذه مقدمة طللية، وما يعرف بـ "النسيب"، لا تختلف عن أية مقدمة طللية و"نسيب"، عند أي شاعر جاهلي، ومواضع الأطلال في منطقة المندق، بالقرب من الباحة، في سراة غامدوزهران، ويقول:

---

(١) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ٧١ – ٧٤ .

الخود: الجارية الناعمة. النِّيم: الضجيع. التِّرة: الثأر. الغشوم: الظلم.

الولغ: نسق لا يفصل بينها فترة، أي: سريع مستمر.

الثأر المنيم: الثأر الذي فيه وفاء طلبته.

قـتـلـنـا نـاجـيـاً بـقـتـيلِ فَـهْمٍ
وخـيـرُ الـطـالبِ الـتِّـرَةَ الـغَـشـومُ

بـغـزوٍ مـثلِ وَلْغِ الـذئب حـتى
يَـنـوءَ بـصـاحـبي ثـأرٌ مُـنـيمُ

فحاجز هنا، كالشنفرى، عندما قَتَل من أجل الثار، وحاجز لم يَقتل منفرداً، بل كانوا جماعة، من زهران مثله، جاؤوا غُزاةً، مندفعين، كما يقع أشد الغزو فتكاً وانتقاماً في ظروف مشابهة، وحاجز أحدهم، وصاحبه، وهما اللذان تقدما لتنفيذ مهمة القتل، والآخرون ـ وفق تخطيط محبوك ـ بقيا خلفهما، يراقبان الطريق في أثناء عودة حاجز وصاحبيه، أما المقتول، فلم يكن من منطقة نائية، بل كان من قبيلة مجاورة، بينها وبين زهران (الأزد) صولات وجولات، كما هو حال التصاول والتجاول، بين القبائل المتجاورة والمتعادية، إنهم من فَهْم، وهم لم يذهبوا خائفين، في شعاب جبال السراة ووديانها، بل أخذا طريقهما نحو بلاد زهران، قادمين من تهامة، فمرا بأعالي وادي "ترج"، حتى وصلا بلادَهم وحيث أهلوهم.

وهذه حالة. أما الحالة الأخرى، فهي حالة الهجوم من أجل السلب والنهب، يقول:

ورَجْلٍ قـد لَـفَـفْـتُـهُم بِـرَجْلٍ
عـلـيـهم مـثلُ مـا نُـشِـر الـجَـرِيمُ

يُـصـيب مـقـاتلَ الأبـطـالِ مـنـهم
قَـحِيطُ الـطعن والـضَّـرْبُ الـخَذيمُ

كـمـعـمـعـةِ الحَـريـقـةِ في أبـاءٍ
تَـشُـبّ ضِـرامَـهـا ريحٌ سَـمـومُ

وردتُ المـوتَ بـالأبـطـال فـيـهم
إذا خـامَ الجـبـانُ فلا أخـيـمُ

رئيس، قائد، زعيم في قبيلته، كأي رئيس، قائد، زعيم في قبيلته، والحال هنا

حال حرب، كتلك الحروب التي تشنُّها القبائل على أعدائها:

عـــداني أن أزورَكِ حــــربُ قـــوم

كـحـرِّ الـنـار ثـاقـبـةٌ عـذومُ(١)

ومما يؤكد أن حاجزاً كان سيّداً في قومه، ما ورد في الأغاني:

"اجتاز حُجاج من الأزد، ببني هلال بن عامر بن صعصعة، فعرفهم ضمرة بن ماعز، سيد بني هلال، فقتلهم، هو وقومه، بلغ ذلك حاجزاً، فجمع جمعاً من قومه، وأغاروا على بني هلال، فقتل فيهم، وسبى منهم، وقال ....

ولـقـد شـفـاني أنْ رأيتُ نـسـاءكم

يَـبـكـين مُـرْدَفَـةً عـلى الأكـفـالِ(٢)

وهذا عصبية قبلية، والتزام قبلي، فالقتلى من الأزد، زهران، وبنو هلال كانوا مجاورين لهم من الشرق، وطريق الحج اليمني يمر بديارهم. وكذلك، فإن السبي لا يؤخذ إلى المجهول، بل يؤخذ إلى المعلوم.

وما هذه الصورة إلا الصورة العامة، التي يمثلها شعر حاجز، وهي صورة تعكس شخصية قتالية، قيادية، شجاعة، مقدامة. وهذه قصيدته حاجز الرائية، طويلة، تقليدية، نمطية، حربية، وليس في بنائها ما يميزها عما عداها من أي شاعر جاهلي. فيها مقدمة طللية، وتخلّص منها إلى الفخر بحرب ضروس بين قومه – زهران وجماعات ضخمة من مذحج وحمير، ومن بين وسائل الانتقال "الخيل"، ومن بينها فرس يركبها حاجز الذي قاد المعركة، وكان المغيرون يصطحبون معهم ظعائنهم، وأموالهم "جامل"، وهذا دليل على أن المعركة كانت معركةً مصيرية، مشهودة:

---

(١) المصدر السابق، ص ص ٧١ – ٧٣. الرجل: جماعة راجلون. الجريم: التمر المصروم. قحيط: شديد. خذيم: قاطع سريع. المعمعة: صوت الحريق في القصب ونحوه. الأباء: القصب. خام: جبن وضعف. عداني: شغلني وصرفني. عذوم: شديدة.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص ص ٢١٦–٢١٧. المردفة: التي أُركبت خلف الراكب. الأكفال: جمع كفل، وهو العجز.

وأعْــرَضَ جــامِلٌ عَــكَــرٌ وسَــبْيٌ
كــغِــزلانِ الــصــرايم من بُــحــارِ

وانتهت المعركة بانتصار زهران (الأزد)، وهم قِلّة، على تلك الكثرة من مذحج وحمير، وهم كثرة، ومن قبائل متفرقة.

وفي مقدمة الطللية قال:

ومَــبْــرَكِ هَــجْــمَــةٍ ومَــصــامِ خــيلٍ
صَــــوَافِنَ في الأَعِــــنَّــــة والأَواري

وبلاد زهران من السَّراة، بل قلب السراة، وهنا ذكر لنوعين من وسائل النقل والانتقال: "الإبل" و"الخيل"، والصورة التي يريد بثَّها: هي أن الإبل آمنة في معاطنها، والخيل متهيئة للدفاع عنها؛ فالإبل والخيل عصب الحياة الاقتصادية، حتى لدى سكان هذه المنطقة الجبلية الوعرة، ذات الأودية والشعاب.

يقول حاجز:

بِــمَــحْــبَــسِــنــا الــكــتــائبَ إنَّ قــومي
لــهــم زَنْــدٌ غــداةَ الــنــاسِ واري

و"الكتائب" فِرَق الجيش المنظم، حتى بين سكان السَّراة، ولم يتكوَّن الجيش من أفراد يضربون، ثم يهربون، في حرب عصابات، أو قطاع طرق، ولصوص. وهذه الكتائب تجمعها عصبية قبلية، "قومي"، توحِّد فيما بينها، ولا يكون الجيش ذو العصبية الواحدة، إلا تحت إمرة قائد واحد منها، هو حاجز هنا، فماذا يعني هذا؟ وماذا يعني قوله:

فــأمــا تــعْــقِــروا فَــرَسي فــإنِّي
أُقَــدِّمُــهــا إذا كَــثُــرَ الــتَّــغــاري
وأَحــمِــلُــهــا عــلى الأبــطــال إنِّي
عــلى يــوم الــكــريــهــة ذو اصــطــبــارِ

صَلَيْتُ بِغَمرةٍ فخَرَجْتُ منها
كنَصْلِ السيفِ مُخْتَضِبَ الغِرارِ
كأن الخيل إذ عَرفت مقامي
تُفادي عن شتيمِ الوجهِ صارِ

وبعده:

فلم أَبْخَلْ غداتئذٍ بنفسي
ولا فرسي على طَرَف العِيار؟(١)

فإن صرفنا النظر عن هذا، التقينا بنموذج آخر يقدِّمه حاجز، وهو نموذج "الصعلكة" كما نعرفها: فها هو حاجز يقول في ميميته السابقة:

ومرقبةٍ نَميَتُ إلى ذُراها
يُقَصِّر دونها السَّبِطُ الوَسيمُ
علوت قَذالها وهبطتُ منها
إلى أخرى لقُلَّتها طَميمُ
فلم يَقْصُر بها باعي ولكن
كما تَنْقَضُّ ضاريةٌ لَحومُ
من النُّمْر الظُّهورِ كأن فاها
إذا أَنْحَت على شيء قَدومُ
وليلةِ قِرَّة أَدْلَجتُ فيها
يُحَرِّق جلدَ ساقَيَّ الهَشيمُ

(١) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ص ٧٦-٧٨ . الجامل: القطيع من الإبل مع رعاته وأربابه. العَكَر: جمع عَكرة، وهي القطيع الضخم من الإبل. الصرايم: الرمال. مجار: واد. الهجمة: ما زاد على الأربعين من الإبل. مصام: موقف. صوافن: واقفات على ثلاث قوائم. الأواري: الحبال تُشدُّ بها الدابة. التغاري: الغليان، أي شدة الحرب. الغرار: حد السيف. شتيم: قبيح. بصار: قاطع. العيار: اسم جبل.

فـأصـبَـحَتِ الأنـاملُ قـد أُبـيـت
كـأن بَـنـانـهـا أنْفٌ رثـيمُ
تـراهـا منِ وِثـام الأرضِ سُـوداً
كـأنَّ أصـابعَ الـقـدمـين شِـيمُ(١)

وهذه صورة نمطية لشاعر ـ بطبيعة الحال ـ من أهل السَّراة، وليس من أهل السهل والنجد، يقدِّم صورة نموذجية لـ"الصعلوك" (المتفرد) (المتوحِّش)، بل (المعذَّب) في سبيل البقاء، إن ذهبنا هذا المذهب، في حين يمكن أن نرى الصورة صورة من يتسلل، فيباغت، فينقض من علو شاهق، ويأتي التشبيه بالنمر الضاري ـ والنمر من وحوش السَّراة، بلاد حاجز ـ المنقض على الفريسة، ليدل على أنه قام بالعمل من أجل النهب والسلب، فالنمر الأنثى هنا ستعود بصيدها إلى جحرها، حيث جراؤها، وحاجز سيعود بغنيمته إلى أهله. وتقدم الصورة الثانية انعكاساً للصورة الأولى مع تركيز على شدة المعاناة والمخاطرة، حيث هنا ليلة قارسة البرودة، يضعُف فيها الجسد، لولا ارتفاع معنوياته عن التشبث بمواطئ الأقدام ومواضع قبض الأصابع التي تجرَّحت أطرافها. ولا تسير الأمور في كل الأحوال على ما يرام، فالمغزوُّون يتحسَّبون للغزاة، ويتعقبونهم، وهذا ما اعترف به حاجز عند فَرَّته:

فـغـيـرُ قـتـالي في المـضـيق أغـاثـني
ولـكنْ بـذلِيَ الـشَّـدَّ غـيـر الأكـاذبِ
فِـدىً لـكـمـا رجـلَيَّ أمي وخـالـتي
وشـدُّكـمـا بـين الـرُّبى والأثـائبِ

---

(١) المصدر السابق، ص ص ٧٢–٧٣ . السبط: الحسن القد والاستواء. قذالها: قمتها. القلة: أعلى الجبل. طميم: صوت وهدير.

لحوم: آكلة للحم. أنحت: اعتمدت وقصدت. القدوم: الفأس. الرثيم: المكسور المدمى. من وثام الأرض: أي من شدة وطئها وعدْوها على الأرض. الوثم: الدق والكسر. شيم: التراب. رجل: الرجالة.

حططتُ على جنبي الشمالَ وعَيَّعُوا
حُطوطَ رَباعٍ مُحضِرِ الجَرْيِ قاربِ
نجوت نَجاءً لا أَطُبُّك طِبَّه
وينزو بشيرٌ نَزْوَ أزعرَ خاضبِ
أبي وألات قد تحصَّص ريشُه
يجيءُ بأَوْبِ الشَّدِّ مِنْ كل جانبِ
كأنّ روافي ظلّةٌ غامدية
على ما أقل رأسه بالمناكبِ
أوانَ سمعتُ القومَ خلفي كأنهم
حريقُ أباءٍ في الرياح الشواقبِ
سيوفُهمُ تغشى الجبانَ ونَبْلُهمْ
يضيء لدى الأقوام نارَ الحباحبِ
وَجَدْتُ بعيراً هاملاً فركِبْتُه
فكادت تكون شرَّ رَكْبَةِ راكبِ(١)

وهذا الموقف مشابه لقوله، حين فر منه تأبط شراً:

فإنْ تَكُ جاريتَ الضلالَ فربما
سبقتَ ويوم القَرن عريانُ أسنعُ

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٠. الشد: العدو. الأثائب: شجر ينبت في بطون الأودية. حططت: الحَطّ، الاعتماد على السَّيْر. عيّعوا: يقال: عيّع القوم تعييعاً، إذا عَيُوا عن أمر قصدوه. الرباع: الحمار الوحشي إذا ألقى رباعيته: إحدى أسنانه الأربع التي تلي الثنايا، في السنة الخامسة من عمره. محضر: شديد. قارب: يعجل ليلة الورد. لا أطبك طبه: دعاء بمعنى لا ترى مثله. ينتزو: يثب. أزعر: قليل الريش. خاضب: ذكر النعام المغتلم، الذي احمرت ساقاه في الربيع. الأباء: جمع أباءة، وهي أجمة القصب. الحباحب: ذباب يطير بالليل، له شعاع في ذنبه كالسراج. الهامل: المتروك سدى، المهمل.

وخـلـيت إخـوان الـصـفـاء كـأنـهم
ذبـائـح (عـنـز) أو فَـحـيلٌ مـصـرعُ
تُـبَـكِّـيـهُم شَـجْوَ الحـمـامـة بـعـدمـا
أرحت ولم تُـرْفَع لـهم مـنك أصـبعُ
فـهـذي ثلاثٌ قـد حـويت نجـاتـهـا
وإن تَـنْجُ أخـرى فـهي عـنـدك أربعُ(١)

وما فَرَّةُ حاجز، وما فرةُ تأبط شراً، إلا تكتيك عسكري، فمن يمتلك قلب النمر الضاري، والذئب الضاري، لا يعتريه الخوف والهلع من الموت، وهو الذي يقول في ميميته السابقة أيضاً:

وردتُ المـوتَ بـالأبـطـال فـيـهم
إذا خـام الجـبـانُ فلا أخِـيمُ
ومـعـتـرَك كـأنَّ الـقـومَ فـيـهم
تـبل جـلـودَ أوجُـهـهم جـحـيمُ
صـلـيـت بـحـرِّه وتجـنَّـبـتْه
رجـالٌ لا يُـنـاط بـهـا الـتَّـمـيمُ
إذا أنـسـى الحـيـاءَ الـروعُ نـادوْا
ألا يـاحـبَّـذا الأَنَسُ المـقـيمُ

يتساوى الموت والحياة في اللقاء الأخير، فلا يكون للفرار معنى، فإذا ما فَرّ المحارب، فليس يعني هذا كرهاً في الموت، وإن كان الخوف من الموت هاجس البشرية جمعاء، وإنما يعني أن الموت الآن، في مثل هذا الموقف ليس جديراً بالمغامرة والمجازفة والتضحية.

---

(١) المصدر السابق، ص ٨١. القرن: اسم موضع. أسنع: قائم بارز. ذبائح (عنز): ينبغي أن تكون: ذبائح عتر، وهو الذبح للأصنام. الفحيل: ذو الفحولة.
وانظر في الفرار، السكري، شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ص ٣٣٧-٣٣٩؛ ٤٥٦-٤٥٨.

الفصل الخامس
نطاق التطواف (الصعلكة)

مما لا ريب فيه أن النشأة تتحكم في مجال تحرك "الصعاليك" / "الغزاة"؛ فالذي نشأ في منطقة صحراوية؛ كالدهناء أو الربع الخالي ("يبرين" -قديماً)، أو عرق سبيع ("رمل بني عبدالله بن كلاب" -قديماً)، أو النفود الكبير ("عالج" -قديماً) لا يستطيع التوغل في السَّراة، أو منطقة الحَرّات وشمالها الشرقي شرق المدينة ("حِرار قَيس"-قديماً). غير أن الذين يجاورون هذه المناطق يتسللون أحياناً، فيتوغلون في بعض تلك الجهات، إلا أن الغزو يتركز على أطراف هذه المناطق، أما مجال الاستعداد الفطري للغزو، فهو ما ناسب القدرة البدنية للغازي "الصعلوك".

ومع هذا، فالبلادي يصر على جعل:

"السرد: قنة بجانب ترعة، من جانب حصير: جبل لجهينة"(١).

أي: شمال غرب المدينة، في قول الشنفرى الذي مر بنا سابقاً.

سلكتُ طريقاً بين يَرْبغَ فالسَّردِ

كأن قدْ فلا يغرُرْك منِّي تَمكُّني

ويحتجُّ لما يراه بقوله:

"ليس ما يذكر الشاعر في بلاد قومه، والشنفرى ليس غريباً عن تهامة .. الشنفرى رجل حَوّاف، حَوّام"(٢).

وهذا هو ما ينبغي علينا التركيز عليه، فصحيح أن "الشنفرى ليس غريباً عن تهامة .."، ولكنها ليست تهامة الحجاز، غرب المدينة، بل تهامة غرب مكة، وهذا واضح حتى من قول البلادي نفسه استدلالاً على موضع آخر:

(١) عاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز، (مكة: دار مكة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج ٤، ص ١٨٩.

(٢) المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٨٩.

"ليس شعر الشنفرى .. على جبال الجيّ، وإنما على مكان في ديار هذيل وفهم"(١).

أي: غرب المدينة.

ثم إن البلادي يورد قول الشنفرى ذاك الأول، ويقول:

"يربغ: هذا في ديار كنانة، فالسرد: جبل معروف من مكة"(٢).

وذلك على أساس تحديده:

"السرد: جبل قليل الارتفاع يقابل ثوراً من الغرب ...."(٣).

وإذن، فالبلادي لم يلتفت إلى قول الشنفرى بعد بيته السابق:

وإنّي زعيمٌ أن تلفَّ عجاجتي
على ذي كساءٍ من سَلامان أو بُردِ
هم عرفوني ناشئاً ذا مَخيلَةٍ
أُمَشِّي خلالَ الدار كالأسَد الوَرْدِ
كأنّي إذا لم أُمْسِ في دار خالد
بتيماءَ لا أُهدي سبيلاً ولا أَهدي(٤)

على الرغم من أن ياقوتاً بعد أن أودر قول الشنفرى:

كأن قدْ فلا يغرُرْك منّي تَمكُّني
سلكتُ طريقاً بين يَرْبغَ فالسَّردِ

قال:

"السرد: في بلاد الأزد"(٥).

---

(١) المرجع السابق، ج ٢، ص ١١١ وانظر، ج٣، ص ص ١٥-١٦، ج ٨، ص ١٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ج ١٠، ص ١٨.

(٣) المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٨٩.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، "السرد".

(٥) المصدر نفسه.

وهو التعبير المعهود، والذي يقصدون به سراة زهران، مما يلي المندق، حتى قال البكري:

"سرد: جبل في ديار بني سلامان "(١).

على أن ابن بليهد كان دقيقاً حين حصره في بلاد قوم الشنفرى، وإن جعل أولئك القوم - خطأً - هم بنو شهر(٢). وقد علق الجاسر على قول ياقوت:

"منجل: موضع بغربي صنعاء، قال الشنفرى: ويوماً بذات الرس . . ." .

فقال: "لا أرى صلة لمنجل هذا القريب من صنعاء بما ذكر الشنفرى، وإنما أراه في . . السراة"(٣).

غير أن الجاسر الذي رأى هذا، خالف رأيه في قول الشنفرى:

ونَعْلٍ كأشلاءِ السُّماني تركتُها
على جَنْبِ مَورٍ كالنحيزةِ أغبرا

فياقوت يقول في شرح: "المَوْر: الطريق"(٤).

ويقول الجاسر:

"مور: واد من أعظم أودية تهامة التي تنحدر فيها من السراة، فتخترقها، ويقع غرب بلدة اُلُّحَيَّة شمالها، حتى يصل إلى البحر" .

ثم إنه يقول:

"من المستبعد أن يكون المراد هنا . . الشنفرى ممن يعرف تهامة، ولكن صلته بوادي مور غريبة"(٥). وهو يتفق مع ياقوت على أن المراد هنا: الطريق.

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، "سرد" .

(٢) ابن بليهد، صحيح الأخبار، ج ٥، ص ١٥٤ .

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "صباح" ، وانظر، "هضاض" .

(٤) المصدر نفسه، "مور" . أشلاء: بقية الجلد . السماني: طائر معروف . النحيزة: طريقة من الأرض مستدقة صلبة ممتدة كأنها خط .

(٥) شعر الشنفرى، من تعليقات الجاسر، ص ١٥٤ .

وحيث علمنا أن الشنفرى وصل إلى سوق "حباشة" : شرق القنفذة؟ والشنفرى كثيراً ما يتحدث عن اختراق مواضع، لا عن عبور طرقات، فالذي يبدو أن المقصود هنا "مَوْر" : الوادي، وليس معناه : الطريق.

وسيكون غريباً أن يبتعد الشنفرى حتى يصل إلى صنعاء، وسيكون غريباً جداً أن يخرج عن نطاق تهامة والسراة. أما أن يكون في حدود منطقة سراة زهران وجيزان، فهذا ليس بالغريب. ونجد الموقف نفسه مع قول تأبط شراً:

إذا خَلَّفتُ باطنتَيْ سَرارٍ

وبطنَ هُضاضَ حيث غدا صُباحُ

ويحدد ياقوت:

"صُباح: ... ماء .. من جبال نَمَلى"(١).

أي جهات عفيف.

وكان الجاسر، قد ذكر البيت، ورأى أنه:

"من مواضع شرق الجزيرة التي بقرب سواد العراق .. وقد يكون الاسم لموضع آخر"(٢).

وما "سَرار" إلا الذي ذكره البلادي بضم السين:

"سُرار: واد لبني مالك يصب في بَواء، ينبع من السراة من علو ٢٥٣٠ قدماً شمال جبل بثرة"(٣).

وهكذا ينبغي أن يكون "هُضاض" : وادياً في سراة بني مالك أيضاً جنوب الطائف.

على أن التحقيق يثبت أن هذا القول ليس لتأبط شراً، وإنما لمالك بن الحارث

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، "صباح".

(٢) حمد الجاسر، المنطقة الشرقية (الرياض: مطبعة دار اليمامة، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج ٣، ص ص ٩٦٢-٩٦٣.

(٣) البلادي، معجم معالم الحجاز، ج ٤، ص ١٨٤.

الهذلي وهو يصف وصفاً، تنطبق عليه سِمات : "الصعلكة"[١].

والموضع بحسب وصفه: في سراة بجيلة (سراة بني مالك، تسمى هذه السراة الآن بجبيلة بني مالك) : جنوب الطائف. والشيء نفسه ينطبق على قول تأبط شراً أيضاً:

ألا مَنْ مُبلغ فتيانَ فَهْمٍ
بما لاقَيْتُ يومَ رَحى (بِطانِ)
بأني قد لَقِيتُ الغُول تهوي
بقَفْرٍ كالصحيفة صَحْصَحانِ

فهو ليس في جهة ضَرِيَّة كما يرى البكري[٢]، فلم يصل تأبط شراً جنوبيها، وهو ليس "قطان" من جهات "حَضَن" : شرق الطائف، كما رأى ابن بليهد[٣]. والأولى أن يكون في بلاد هذيل قريباً من دياره، كما نص على هذا أبو الفرج[٤]، إذ كان تطوافُه في حدود جنوب "إدام" ، في تهامة، وحيث ديار الديل بن كنانة، ثم أطراف مكة الجنوبية، حيث ديار هذيل، و"بيشة" حيث ديار بجيلة، و"الأزد" ، أي: زهران في سراة زهران.

جاء في الأغاني:

"شر يوم لقيت: أني خرجت حتى إذا كنت في بلاد ثُمالة أطوف، حتى إذا كنت في القفير عشيّاً، إذا أنا بسبع خَلِفات فيهن عبد ... فوضعت سهمي في قلبه، فخرّ ..."

وجاء في حاشيته:

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ١، ص ص ٢٣٧ - ٢٤١.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، "البطان" . الصحصحان: ما استوى من الأرض ذو الحصى، لا ماء ولا شجر به.

(٣) ابن بليهد، صحيح الأخبار، ج ٢، ص ص ٨٧، ١٥٧ - ١٥٨.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ١٤٦، وانظر عن سراة زهران "الأزد" . ص ص ١٤٤ - ١٩٣.

"القفير: ماء في طريق الشام، بأرض عُذرة"(١).

وهذا غير صحيح، فلم يطف تأبط شراً في نواحي الشام، حيث بلاد عذرة، والمقصود هنا، أطراف (العُلا)، وإنما هذا في بلاد "ثمالة" من زهران(٢). ومعروف أن:

"بلاد ثمالة: متصلة ببلاد ثقيف، في جنوبيها وشرقها، منحدرة عن السَّراة إلى سفوح الأودية الشمالية الشرقية"(٣).

وحيث تتركز غارات الصعاليك / الغزاة، غربي المندق. كما جاء في الأغاني:

"خرج تأبط شراً يوماً يريد الغارة، فلقي سَرْحاً لمراد، فأطرده، ونذرت به مراد، فخرجوا في طلبه، فسبقهم إلى قومه"(٤).

ونسبوا إليه قوله:

على أنّي بسَرْحِ بني مُرادٍ
شجوتُهُمُ سباقاً أيَّ شجْو(٥)

وأين ديار "مراد" من ديار "فهم"؟ هذه في أقصى شمال السراة، وتلك في أقصى جنوب السراة، في صحراء الجوف، شرق اليمن؟ ونطاق طوافه لا يتجاوز هذيلاً (مكة)، الأزد (سراة زهران)، بجيلة (جنوب الطائف حتى غرب بيشة)؛ يقولون:

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ١٧١. وانظر ديوانه، ص ٢٩٦.

(٢) أبوبكر، محمد بن الحسن بن دريد، الاشتقاق، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (بغداد: مكتبة المثنى، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ص ٤٩١-٤٩٢، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٣٧.

(٣) الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٣٥٧.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص ١٦٢-١٦٣ وانظر: خليف، الشعراء الصعاليك، ص ٨٣، الذي قال: "كان تأبط شراً يتعدى على اختصاص السُّليك، فيغير على هذه المنطقة أحياناً"، في حين أن الذي كان يغير على مراد، هو عمرو بن براقة الهمداني، والسليك بن السلكة.

(٥) الأصفهاني، الأغاني ص ١٦٣، وانظر، ديوانه، ص ص٢٨٩ - ٣٥٢. السرح: الإبل خرجت غَدوةً إلى المرعى.

"خرج غازياً يريد بجيلة"(١).

"خرج تأبط شراً يريد أن يغزو هذيلاً"(٢).

"خرج في عدة من فَهْم .. حتى بيّتوا العَوْص، وهم حي من بجيلة"(٣).

"خرج تأبط غازياً يريد الغارة على الأزد"(٤).

يقول تأبط شراً في غاراته على الأزد (زهران – ليس غير) في سراتهم حتى غربي المندق:

تُرَجِّي نساءُ الأَزْد طلعةَ ثابتٍ
أسيراً ولم يَدْرِينَ كيف حَويلي(٥)

ويقول في غاراته على "كنانة" ، في امتداد جنوب الليث:

فمَن مبلغٌ لَيْثَ بنَ بَكر بأننا
تركنا أخاهم يوم قَرْنَ مُعَفَّرا(٦)

وتكفي مثل هذه الأقوال، حين نضعها في ميزان النقد والتحقيق، أن تكشف لنا عن مفهوم الصعلكة، كما كان يمارسها الصعاليك في الجاهلية. ودراسة تأبط شراً من الأغاني وحدها، كفيلة بإمدادنا بتصوّر شامل عن علاقة صعاليك السَّراة، وعن حالات الإغارة بينهم.

ولن تأتي معرفة العلاقة بين هذيل وفهْم إلا بقراءة شعر هذيل، قراءة أخرى تستفيد من الخبرة العلمية التي قدّمها دارسو الصعلكة، وعلى رأسهم يوسف خليف،

(١) المصدر السابق، ص ١٥٣. وانظر ص ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٦ ، وانظر، ص ص ١٨٤، ١٩١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٩ - ١٦٠ . وانظر ص ص ١٦٥–١٨١ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٣، وانظر، ص ١٧٨.

(٥) ديوانه، ص ١٨٦ . وانظر، ص ١٨٨، حاشية ص ص١٨٦–١٨٩، وكذلك حاشية ص١٩٠. ثابت: تأبط شراً نفسه. الحويل: الحِذق وجودة النظر والقدرة على التصرف الدقيق.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٣. وانظر، ص ١٨٠. معفر: ملطّخ بدمه .

ثم تمضي قُدُماً في الاطلاع على جوانب لم تُسلّط عليها الأضواء من قبل، فعلى سبيل المثال يقول قيس بن عيزارة الهذلي لتأبط شراً:

أثابتُ لِمْ تركتَ أُخْتكَ عاتقاً
تُجَمِّعُ عند الحَوْسَمات أيورُها

ثم يقول:

وأَخْبَرَني أبو المضلّلِ أنها
قفا جَذَمٍ يَهْدي السِّباع زَفيرها[1]

ومثل هذا القول ما يُنسب إلى الشنفرى:

وإن امْرأً قد جار عمراً ورهطَه
عليَّ وأثوابِ الأُقيصرِ يَعْنُفُ

إذ لا يمكن أن يصل الشنفرى إلى مشارف الشام، ويحلف بهذا الصنم الأقيصر، وإنما كان هذا الصنم في منى، ومن هنا يصح ذلك القول له[2].

السليك بن السلكة:

والحال نفسها تنطبق على ما ينسب إلى السليك بن السلكة:

على قَرْماءَ عاليةٍ شَواه
كأنَّ بياضَ غُرَّته خِمارُ

على أن "قرماء" - كما يفهم من البيت خطأ - تعني موضعاً باليمامة[3]، (ضرما)، وهذا غير صحيح، فالسليك لم يصل إلى الوشم وغرب اليمامة إطلاقاً،

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ٢، ص ٦٠٢. الحوسمات: قوم. جذم: من أرض فهْم، ناحية جنوب مكة، بطرف "يلملم".

(٢) أبو منذر، هشام بن محمد بن السائب بن الكلبي، الأصنام، تحقيق: احمد زكي (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)، ص ٣٩، وانظر، ص ٥٠، حاشية ص ٤٨ - ٤٩، ياقوت، معجم البلدان، "الأقيصر".

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "قرماء". وقارنه بابن منظور، اللسان، "قرم".

وإنما قرماء: صفة للثور الوحشي، كما هو بيّن من البيت، والرواية فيه ينبغي أن تكون "شواها .. غرتها".

وكانت حدود السليك بن السلكة من الربع الخالي شرقاً حتى أطراف بيشة، وكان أكثر تركيزه على وادي "الجوف": في أطراف اليمن الشرقية الجنوبية، من ناحية مأرب، وهي منطقة قبيلة "مراد"(١)، وبيشة: منطقة خثعم (من "بجيلة")(٢)، ولهذا قال:

لِخَثْعَمَ إنْ بَقِيتُ وإن أبَوْه
أوارٌ بِبيشةَ أو جُفار(٣)

وأما ما جاء عنه:

"قدم فرسان لبكر بن وائل، بقصد الإغارة على تميم، وخشوا أن يعلم السليك بهم، فينذرَ قومه .. فقال:

كَراديسُ فيها الحَوْفَزانُ وحولَه
فوارسُ هَمّام متى يَدْعُ يَرْكَبوا(٤)

فغير صحيح، إذ لم يدرك السليكُ الحوفزانَ بن شريك، وكان الحوافزان يغير على تميم، في شمال الجزيرة العربية، قادماً من الجزيرة الفراتية، في شمال العراق، ولم يصل السليك هناك أبداً.

وأما أن يغير السليك بن السلكة - في خبر خلاف ذلك - على بني تغلب، في

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٢٠، ص ٣٥٠. ورأى خليف، الشعراء الصعاليك، ص ٨٣، أن موطن السليك، باليمن، بينما موطنه في الربع الخالي، الموالي لحضرموت بعيداً عنها شرقاً، انظر البكري، معجم ما استعجم، "الأدمى".

(٢) انظر عن نسب "بجيلة"، الزبيدي، التاج "بجل".

(٣) البكري، معجم ما استعجم، " جبار "، وانظر الحربي، المعجم الجغرافي لمنطقة عسير، ج١، ص ص ٣٨٨-٣٨٩.

(٤) ديوان الشنفرى ويليه السليك بن السلكة وعمرو بن براق، إعداد: طلال حرب (بيروت: الدار العالمية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ص ٨٣.

مائهم "قباقب" : خلف "البشر" من أطراف الجزيرة الفراتية[١] وكذلك، على بكر ابن وائل[٢]، فهو أمر يدل دلالة قاطعة على تداخل الأسماء والمواضع؛ فـ "قباقب" ـ هنا ـ: "قباقب صعدة"[٣]: بصعدة، باليمن، وهذه أرض مراد، وليست أرضاً من الجزيرة الفراتية، حيث بكر وتغلب. وهذا ما بيَّنه، كما يبين طبيعة الغزو/ "الصعلكة"، قوله :

بِحَمْدِ الإله وامرئٍ هو دلَّني
حَوَيْتُ النِّهاب من قَضِيبَ وتَحْتِما[٤]

و"قضيب" ، باليمن ـ الآن ـ يتصل بالربع الخالي[٥]، وكذلك ينبغي أن يكون "تحتم" .

كانت إغارات السليك ـ بحكم الجوار ـ على جنوب شرق اليمن، يقول:

أمعتنقي رَيْب المنون ولم أَرُعْ
عصافيرَ وادٍ بين جاشٍ ومأرِبِ

وأذعر كلاّباً يقود كلابَه
و(مَرْجةُ) لما ألتمسها بمِقنب[٦]

هنا "جاش" : باليمن، أرض قريبة من مأرب، فيها[٧]، وهنا "مرخة" : تقع شمال البيضاء، ورسمها البكري بالجيم تصحيفاً[٨]. وإذ يتحقق هذا، فإن قول

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٠ ص ٣٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٣.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "قباقب". وانظر، "حقل".

(٤) البكري، معجم ما استعجم، "قضيب".

(٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، حاشية الأكوع، ص ١٦٢.

(٦) طلال حرب، ديوان الشنفرى ويليه السليك...، ص ٨٣. وانظر: البكري، معجم ما استعجم "مأرب".

(٧) البكري، معجم ما استعجم، " مأرب ".

(٨) الهمداني، صفة جزيرة العرب، حاشية الأكوع، ص ١٤٧.

السليك بن السلكة:

أَلَمَّ خَـيَـالٌ من نُـشَـيـبَـةَ بـالـركـبِ
وهُنَّ عِـجَـالٌ عن نـيـالٍ وعن نـقْـبِ

وقد شك البكري في الاسم "نيال"، وظنه "نُبَاك"(١)، فحدده، كما حدد "نيال"، مثله: "نيال / نباك: موضع بالبحرين".

وصوّب الجاسر هذا على أساس أن "نباك: اسم هجرة واقعة في أسفل شبه جزيرة قطر، على ٤٤كم جنوب بلدة سلوى، وعلى مسافة نحو ٢٠٠كم من مدينة الأحساء جنوبها "(٢).

وتأتي المشكلة هنا من ذكر "النقب"، الذي حدده البكري:

"نقب: بالبحرين"(٣).

أي: إن المسافة بين الموضعين متقاربة جداً، حسبما أوضح البكري، في "نباك".

وحتى هذه المنطقة - منطقة شرق قطر حتى الأحساء، ومع أنها الأقرب إلى "يبرين" (الربع الخالي)، فإنها بعيدة جداً عن جنوب شرق الربع الخالي، والبلاد المجاورة لجنوب شرق اليمن، قال البُعيث:

ورحـنـا بـهـا عن مـاءِ ثَـجْـرٍ كـأنمـا
تَـرَوَّحْنَ عـصـراً عن نـبـاكِ وعن نـقْـبِ

وقال البكري:

"ثجر: ماء .. بظهر تبالة "(٤).

والملحوظ أن الصياغة بين بيتي البُعيث والسُّليك متشابهة إلى حد بعيد، وقد جاء الجاسر - سهواً - برواية قول البُعيث على النحو التالي:

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، "نيال".

(٢) الجاسر، المنطقة الشرقية، ج ٤، ص ١٧١.

(٣) البكري، معجم ما استعجم، "نقب".

(٤) المصدر نفسه، "نباك".

ورُحنا بها عن ماءِ ثَجْرٍ كأنما
تروَّحْنَ عصراً عن تَبالةَ أو نَقْبِ(١)

وهذه الرواية السهو هي السائغة، سواء في بيت البعيث، أو بيت السليك. ومهما كانت الرواية، فلا علاقة للسليك بمنطقة البحرين، وإنما بمنطقة مراد: الجوف، ونواحيه، وصعوداً حتى مأرب والبيضاء باليمن، ثم اتجاهاً نحو الغرب، حيث بيشة، و"تبالة". أما "نباك"، التي يراها الجاسر، فهجرة حديثة. ويقينا، فإن قول السليك السابق:

وأذعر كلاباً يقودُ كلابَه
و(مرجةُ) لَمَّا ألتمسها بِمقْنَبِ

يؤكد أن السليك "الصعلوك" إنما هو هنا يغزو بـ"مقنب": جيش؛ ولهذا، فهناك من يقول عنه:

"كان أقربَ في صعلكته إلى نموذج الفاتك، مقتنص اللذائذ والغنائم".

وكثيراً ما أكدنا أن أُمَّه أَمَةٌ سوداء، ومع ذلك، فهو القائل:

ألا عَتِبَتْ عليَّ فصارمَتْني
وأعجبَها ذوو اللِّمَمِ الطِّوالِ
فإني يابنةَ الأقوامِ أُربي
على فعل الوَضِيءِ مِنَ الرجالِ
فلا تصلي بصعلوك نؤومٍ
إذا أمسى يُعَدُّ من العيالِ
ولكن كلُّ صعلوك ضَرُوبٍ
بنصل السيف هاماتِ الرجالِ

(١) الجاسر، المنطقة الشرقية، ج٤، ص ١٧٥.

أشــــابَ الـــــرأسَ أنّي كـلَّ يــــوم
أرى لي خــــالــــةً وسْطَ الــــرجـــالِ
يَـــشُقّ عَـلَيَّ أن يَــلْــقَــينَ ضَــيــمــاً
ويــعــجِــزُ عن تــخــلُّــصُــهن مــالي

وتفسير ذلك:

"أن ما يحز في نفسه أن يرى النساء الإماءَ متعة للرجال، يقاسين من حياة الذل، ولا يستطيع هو أن يحرِّرَهن، وقد رمز لهذه الإماء بكلمة (خالة)، وهو يعني كل امرأة سوداء، ويعتبرها أختاً لأمه، لسواد أمه"(١).

وهذا القول الأخير ينقض القول الأول، فليس في شعر الصعاليك حادثة واحدة تؤكد تخليصه الإماء. وفكرة تحرير الإماء (العبيد) فكرة مبكرة، وغير واقعية في الجاهلية، وواضح التداخل في الأبيات؛ إذ لا صلة بينها وبين الحديث عما يدل على فكرة التخليص، ويدل على ذلك أيضاً: الإيطاء (تكرار القافية متعاقبة: هامات الرجال / وسط الرجال)، فإذا قرأنا "وسط الرجال" على أنه تصحيف "وسط الرحال" ، انتقلنا إلى فكرة السبي، سبي الحرائر، وهذا عمل الفرسان، وليس عمل "الصعاليك" : طالبي الحرية، كما توحي به العبارة السابقة. والسليك هنا ذو زوجة تعاتبه، ويبرز على أنه "نموذج الفاتك" ، فيما يتوافق مع كل نماذج الصعاليك؛ أي: الفرسان الغزاة، بحيث يتعذّر علينا إيجاد (نموذج الثائر)، وصاحب الفكرة والمبدأ" !

ويتحقق هذا الفهم حين نسمع من السليك قوله، في إغارته على وادي الجوف، باليمن:

(١) مطاع الصفدي، وإيليا حاوي، موسوعة الشعر العربي (بيروت: شركة خياط، ١٩٧٤م)، ج١، ص ص ١٤١-١٤٦ .

يــا صــاحــبيَّ ألا لا حيَّ بــالــوادي
إلا عَــبِــيــدٌ وآمــاءٌ بــين أذوادِ
أتــنــظُـرانِ قــلــيلاً رَيْثَ غــفــلَــتِــهم
أمْ تــعــدُوانِ فــإنَّ الــريح لــلــعــادي(١)

فـ"الإماء" : جمع أَمَة : أي عبدة، وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال مطروح هو: ماذا فعل السليك بهن، وبالعبيد معهن؟ أأتى لنهب الإبل، أم لتحريرهم جميعاً؟

عمرو، ذو الكلب :

وبالمثل، يعلّق الجاسر على قول جنوب، أخت عمرو، ذي الكلب :

بـأن ذا الـكـلب عـمـراً خـيرُهم نـسـباً
بـبـطن شِـريـانَ يَـعـوي عـنـده الـذيبُ

فيقول:

"وادي شريان: وهو لرفاعة من غامد ... قتل فيه الشاعر، عمرو ذو كلب اللحياني الهذلي .. هذا الشاعر .. كان كثير الإغارة على قبيلة فهْم، وهي لا تبعد منازلها في القديم كثيراً عن هذه الجهات"(٢).

غير أن ديار فهْم ـ المقصودة هنا ـ من نواحي الليث، وهي لا تقرب من ديار غامد، التي تفصل بينهما ديار زهران ؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الشعر لا يقول هذا. وقد وقع في مثل هذا "المعجم الجغرافي لمنطقة عسير"، حين قال:

"شريان: بريد جبل ريدان، الواقع جنوبه، بتهامة بني شهر"(٣).

أي: شمال مركز ثلوث المنظر، أو ثلاثاء المنظر، الواقع في بلدة المنظر على

---

(١) ديوان الشنفرى، ويليه السليك... ، ص٨٧ .

(٢) الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٧٣.

(٣) الحربي، المعجم الجغرافي لمنطقة عسير، ج ٢، ص٨٩٣ .

جانب وادي بقرة، من جنوبه، بتهامة بني شهر، والمنظر: بتهامة باللسمر، وباللحمر[١]. وكل هذا غير صحيح، جاء في الأغاني:

"عمرو، ذو الكلب، وكان يغزو بني فهم، غزواً متصلاً"[٢]؟

وديار فهم التي كانت هذيل تغزوها، هي ما وراء "سعيا ومركوب"، كما جاء في قول جنوب:

أَبْلِغْ بني كاهلٍ عني مُغَلْغَلَةً
والقوم من دونهم سَعْيا ومَرْكوبُ

وبعده:

أبلِغْ هذيلاً وأبلِغْ مَنْ يبلِّغُها
عنِّي حديثاً وبعضُ القوم تكذيب[٣]
بأن ذا الكلب ....

و"سعيا" و"مركوب": من جهات "اللِّيث"، يبعدان عن مكة جنوباً بما يزيد على ١٢٠كم[٤].

وواضح أن الجاسر جمع بين "شريان": جهة الليث، "وشريانة"[٥]: في حرة البُقوم، والذي أصبح ينطق شريان: وهو واد يقع في الطريق من العقيق - عقيق غامد - إلى الطائف، ويبعد عن العقيق ٣٠كم[٦].

ونجد البلادي يحدد "شريان" بما يتوافق مع الشعر، فيقول:

---

(١) انظر، المرجع نفسه، ج ١، ص ص ٣٤٢-٣٤٣؛ ج٣، ص٧٦١؛ ج٣، ص ١٥٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢، ص ٣٨٧.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "شريان". وانظر، البكري، معجم ما استعجم، "سعيا"، والضبط المشهور بفتح الشين، إلا أنه جاء في الأغاني، ج ٢٢، ص ٣٩١، بكسرها.

(٤) انظر، البلادي، معجم معالم الحجاز، ج٤، ص ٢٠٢؛ ج ٨، ص ١٠٩.

(٥) انظر، الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ص ٤٣٣-٤٣٤.

(٦) الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص١٦٦.

"شريان: هو رأس الأزحاف التي تصب في لملم من رأسه وآخر يقاسمه الماء فيسيل جنوباً في جدم، ثم في وادي اللِّيث من الشمال .. أهله بنو فهم"(١).

ومن ثم، فحتى قول عمرو، ذي الكلب:

فلست لحاضنٍ إنْ لم ترَوْني
ببطْن صَريحةٍ ذاتِ النِّجالِ
وأمِّي قَينةٌ إن لم ترَوْني
بعَوْرَشَ وَسْطَ عَرْعَرِها الطِّوالِ(٢)

هو في هذه المنطقة حول اللِّيث؛ واديان، لا يخرجان عن حدود هذه المنطقة، حيث كانت تتركز إغارات عمرو، ذي الكلب، وبها كان مقتله، تقول أخته، جنوب:

فاجزُوا تأبطَّ شَرّاً لا أبا لَكُمُ
صاعاً بصاعٍ فإن الذلَّ معتوبُ(٣)

وبهذا تكون كلُّ المواضع التي يتطرَّفها غزاة السَّراة وتهامة محصورةً في حدود هاتين المنطقتين، حتى إنها متجاورة.

حاتم الطائي:

وينطبق هذا على الرواية المصحَّفة في قول حاتم الطائي:

سقى الله ربُّ الناس سَحّاً وديمَةً
جنوب (السراة) من مآب إلى زُغَرْ(٤)

---

(١) البلادي، معجم معالم الحجاز، ج ٥، ص ٤٥.

(٢) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ٢، ص ٥٧٢، ولم يحدد السكري "عورش" و"صريحة"، إلا على أنهما: موضعان، ولم يذكر ياقوت، معجم البلدان، إلا "عورش"، على أنه اسم موضع فقط.

(٣) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ٢ حاشية ص ٥٨١.

(٤) شرح ديوانه، ص ١٩٠.

فمن الواضح تحديد "السراة"، حيث قال المحقق في حاشيته:

"وهذا بعيد عن أماكن في الشام، أي: في الشمال ... والشراة: أرض من ناحية الشام".

وقد وردت "الشراة" صحيحة في قوله:

فثلاث من الشراة إلى الحَلْـ
ـبَط للخيل جاهداً والرِّكاب(١)

فإذا كان قول جرير السابق:

وكُلٌّ (حاتم) بشمام حولا

... ...

مما يحتمل تداخلاً في الأسماء، فإن قول رشيد بن رميض العنزي يفتخر بفعل هِزّان:

ونحن أسرنا حاتماً وابنَ ظالمٍ
فكلٌّ ثوى في قيدنا وهو يخشعُ(٢)

لا يدع مجالاً إلا أن حاتماً كان يصل في تطرّفه ذاك إلى ديار هزان، في نواحي (الحريق) الواقع ١٢٠كم جنوب الرياض، وإلى جنوب غرب "الخرج": جنوب شرق الرياض، أي: إنه كان يأتي من "حائل"، مجتازاً الدهناء حتى يصل إلى تلك الجهات النائية.

أبو الطمحان القيني:

وبالرغم من القول: إن أبا الطمحان القيني، مجال تطوافه (صعلكته) شمال غرب الجزيرة العربية، وكان يزور مكة، أنقذ قيسبة بن كلثوم السكوني، أحد ملوك حضرموت، من يد بني عقيل، أهل تثليث، ونواحيها(٣)، فإن هذه من الأخبار

(١) المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٢) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، أيام العرب قبل الإسلام (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٢٤هـ)، ج٢، ص ٢٩٦.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ص ٣-٤.

غير المؤكدة والمتضاربة، ومما لا يتوافق مع البحث عن خط رجعة واحتماء.

عروة بن الورد :

ولنأخذ بالتفصيل نطاق تطواف عروة بن الورد؛ ففيه وضوح كاف، وإقناع تام بالمجال الحيوي الذي يمكن للغزاة أن يتحركوا فيه، بما يتلاءم مع طبيعة منطقتهم التي نشؤوا فيها أولاً، وبما يسمح لهم بالعبور والاجتياز ثانياً.

جاء في أخباره :

"إن عروة بلغه عن رجل من بني كنانة بن خزيمة"(١).

وجاء في خبر آخر:

"أصاب عروةُ امرأةً من بني كنانة . . .فحجَّ بها، فأتى مكة، ثم أتى المدينة . . . وكان قومها يخالطون بني النضير . . .فقال عروة :

سقى سلمى وأينَ ديارُ سلمى
إذا حلَّتْ مجاورةَ السريرِ
إذا حلَّت بأرضِ بني عليٍّ
وأهلي بين (زامرةٍ) وكيرِ

وبعد ذلك :

ذكرت منازلاً مِنْ آل وهبٍ
محلّ الحَيّ أسفلَ ذي النَّقيرِ
وأحدث معهداً من أم وهبٍ
معرَّسُنا بدارِ بني النضيرِ(٢)

ولدينا هنا نطاق واضح، إنه من "كير" : جنوب غرب الرس، حتى المدينة،

(١) ديوانه، ص ٢٧.

(٢) ديوانه، ص ٣٤. و"السرير" : في نواحي "ودان"ـ "الجحفة"، وليس في نواحي الجار، أو "خيبر" كما يرى البلادي، معجم معالم الحجاز، ج ٤، ص ص ١٩٨-١٩٩. وانظر، البكري، معجم ما استعجم، "السرير"، ياقوت، معجم البلدان، "السرير" .

فمكة، وهنا نجد: "بنو علي": من "كنانة"، الذين يخالطون سُليماً ومزينة في أطراف المدينة الجنوبية الغربية، وهنا "بنو النضير": من أهل المدنية؛ فـ"بنو كنانة" هؤلاء في هذه الجهة من المدينة، لا تتعداها.

أما قوله:

ذكــــرتُ مـــــنـــــازلاً من آل وهبٍ

مــحلّ الحي أســفلَ ذي الــنّــقــيــرِ

فـ"(ذو) النقير" ينبغي أن يكون إلى جهة "الرس"، وليس: "ماء لبني القين من كلب"، كما جاء في البكري وياقوت[1]؛ فديار "بنو القين وكلب": شمال وادي السرحان، بعيدة عن دياره في جنوب غرب القصيم، وهي منطقة غزو، لا منطقة أطلال.

فـ"بنوكنانة"، أو "بنو علي" هم بنوكنانة من خزيمة، من أهل المدينة، في جهاتها الغربية الجنوبية، فهو يغزوهم؛ ولهذا، جاء في الخبر:

"أن عروة بن الورد بلغه عن رجل من بني كنانة وبني خزيمة أنه من أبخل الناس، وأكثرهم مالاً... فشد على إبله، فاستاقها، ثم قسمها في قومه"[2].

وهو هنا يغزو هذا الرجل، لا لأنه ـ كما يقول الخبر – اختصه بالغزو؛ لأنه بخيل، ولكن لأنه أكثرهم مالاً، فهذا كقوله:

سـيـدفـعـني يـومـاً إلى ربِّ هـجـمـةٍ

يدافع عـنـهـا بـالـعُـقـوق وبـالـبـخلِ[3]

ويصحح هذا ذلك الخبر الآخر، القائل:

"كان عروة قد سبى امرأة من بني هلال بن عامر بن صعصعة .. ثم استزارته

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، "النقير"، ياقوت، معجم البلدان، "النقير".

(٢) ديوانه، ص ٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٤.

أهلَها، فحملها، حتى أتاهم بها، فلما أراد الرجوع، أبت ... فقال في ذلك:

تحِنُّ إلى سلمى بحرٌّ بلادِها
وأنت عليها بالملا كنتَ أقدرا
تحِلُّ بوادٍ من كراء مَضَلَّةٍ
تحاول سلمى أن أهاب وأحصرا
وكيف تُرَجِّيها وقد حِيلَ دونها
وقد جاوزت حياً بتيمن منكَرا
لعلكِ يوماً أن تُسَرِّي ندامةً
عليَّ بما جشَّمتني يوم غضْورا(١)

ويقول عروة:

عَفَتْ بعدنا أمُّ حسانَ غَضْوَر
وفي الرَّحل منها آية لا تغيَّرُ
وبالغر والغراء منها منازلٌ
وحول الصفا مِنْ أهلها مُتَدَوَّر(٢)

وينقل ياقوت عن ابن السِّكِّيت حول "غضور"، في البيتين الآخرين:

"غضور: (مدينة)، فيما بين المدينة إلى خزاعة وكنانة، قال ذلك في شرح قول عروة بن الورد: عفت .."(٣).

ويضيف البكري، عن الأصمعي:

"غضور: ثنية فيما بين المدينة وبلاد خزاعة، وقول عروة بالغر والغراء منها، على أثر ذكر غضور، يدل على صحة هذا القول"(٤).

(١) المصدر السابق، ص ص ٣٧ - ٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "غضور". قول ياقوت: "مدينة"، تصحيف، لابد أن صوابه: "ماء".

(٤) البكري، معجم ماستعجم، "غضور".

فـ "غضور"، في الأبيات الأولى، هو "غضور" في البيتين الأخيرين: "ثنية فيما بين المدينة وبلاد خزاعة .."، أي: في نواحي جنوب غرب المدينة.

أما قول ياقوت، فيما ينقله عن ابن السكِّيت:

"كراء: ثنية ببيشة .. التي ذكرها عروة"(١).

وكذلك قول البكري:

"تيمن: أرض قِبَل جرش ... وثم كراء، ومن أنشده: وقد جاوزت حياً بتيماء، فقد صحف"(٢).

فيتناقض مع كل تحديدات الأمكنة التي ذكروها، وجاءت المشكلة من ذكر "كراء"، في ناحية بيشة، غير أن هذا ليس ذاك، فقد ذكر ياقوت نفسه أن:

"كراء: ثنية ببيشة، وقيل: ثنية بالطائف، وقيل: واد يدفع في تربة ..".

إذن، فـ"كراء"، في قول عروة، ليس في أي موضع من تلك المواضع، وإنما هي: في غرب المدينة، أو جنوبها الغربي.

وأما "تيمن"، فهو تيمن ذي طلال: في نواحي الجرير، "الجريب"، وهذا طريق يؤدي إلى المدينة، وفي "طلال"، قتل صاحباه: قُرّة وبَلْج(٣).

ومن ثم، فحين يقول الخبر:

"كان عروة قد سبى امرأة من بني هلال بن عامر بن صعصعة".

هو خبر غير سليم، فهذه المرأة من أهل المدينة ونواحيها، وليست "من بني هلال"، فديار بني هلال هي نواحي بيشة، وقد اختلط الأمر.

وليس هذا، فحسب، بل إن خبراً آخر يقول:

"أغار عروة على (مزنية)، فأصاب منهم امرأة، فاستاقها، فقال:

---

(١) ياقوت، معجم البلدان "كراء".

(٢) البكري، معجم ما استعجم، "تيمن".

(٣) انظر ديوانه، ص ٨١.

تَـبَغَّ عِـداءً حـيث حـلَّت ديـارُهـا
وأبـنـاء عـوف في الـقـرون الأوائل
فـإلا أنَلْ أوسـاً فـإنّيَ حَـسْبُـهـا
بمنبطح الأوشال من ذي الشلائل(١)

وعداء، وعوف، وأوس: من مزنية(٢).

وهذه المرأة من مزينة ـ تصحفت إلى (مزنية) ـ وديار مزينة المدينة وغربها، سيما جهات العقيق. وجاء ذكر بني هلال في خبر يقول: "أخذ بنو عامر امرأة من عبس ... فقال عروة يعيِّرهم بأخذه ليلى بنت شعراء الهلالية.." .

كما أخذنا حسناءَ كُرهاً ودمعُها
غداةَ اللِّوى مغصوبةً يتصبَّبُ

وهنا بنو عامر، ثم هنا شعراء الهلالية، وديار بني هلال بعيدة جداً عن جنوب غرب القصيم، إنها في امتداد رَنْيَةَ حتى شرق بيشة، واللِّوى هنا: هو الواقع جنوب غرب النِّير، وشمال عفيف، بنجد، ويسكن هنا بنو عامر، غير أنهم ليسوا من بني هلال، وإنما من غَنِيّ، ولذلك جاء في الخبر أيضاً، عن أخذ بني عامر امرأة من عبس:

"بلغ عروة أن عامر بن الطفيل فخَر بذلك"(٣).

وواضح أن الحرب لم تقع إلا في وسط نجد، وليس في جنوبيه الشرقي، يقول خبر آخر:

"غزت بنو عامر يوم شعر، وهم يريدون أن يصيبوا شيئاً، ويدركوا بثأرهم في شعر، وكان أول من لقوا يومئذ بني عبس، فانكشفوا، وأصيب ناس منهم من بني

(١) ديوانه، ص ٨١.

(٢) أبو منذر، هشام بن محمد بن السائب بن الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق: محمود فردوس الأعظمي (دمشق: دار اليقظة، ١٩٨٣م)، ج ١، ص ص ٤٠١ ـ ٤٠٤.

(٣) ديوانه، ص ١٤.

جعفر، فزعموا أن ابن الطفيل . . . "(١).

وهنا ابن الطفيل، هو عامر بن الطفيل أيضاً، ومن بني جعفر كذلك، ومن غَنِيٍّ، وبلاد هؤلاء من غرب ثهلان، وما حوله.

ولدينا حتى الآن جهتان، جهة في الجنوب الشرقي من القصيم، تصل حتى عفيف تقريباً، مارَّة بأعلى الجرير، حتى النقرة، حيث ماوانَ، وخيبر، إضافة إلى بلاد طيِّئ (أجا وسلمى)(٢)، وجهة تصل حتى أطراف المدينة الغربية والجنوبية الغربية تقريباً.

أما الجهة الثالثة، فهي التي جاءت في الخبر الآتي:

"أجدب ناس من بني عبس . . . فأتوا عروة . . وخرج، ليغزو بهم، ويصيب معاشاً . . حتى انتهى إلى بلاد بني القين "(٣).

وبلاد بني القين: شمال وادي السرحان، وفي شعره ما يبين هذا، مستخدماً أهم خاصية من خواص الغزو، منسجماً مع الخبر: "ناس من بني عبس . . . أتوا عروة، خرج ليغزو بهم، ويصيب معاشاً" .

أما ما جاء في ديوان عنترة، بتحقيق شلبي عن عروة، وغضوب: ابني عنترة: "أسر غضوب وميسرة مع . . . عروة بن الورد في حصن العقاب: وهو مكان باليمن"(٤).

ثم قول عنترة:

وكــذا عــروةٌ ومَـيْـسَـرَةٌ حـا
مِي حِمانا عند اصطدام الجِيادِ(٥)

---

(١) المصدر السابق، ٥٠.

(٢) انظر ، المصدر نفسه، ص ص ٢١ - ٢٩- ٤٨-٥٤-٥٩-٧٩-٨١-٨٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٩ .

(٤) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: عبدالمنعم عبدالرؤوف شلبي (القاهرة: مؤسسة فن للطباعة، د- ت)، ص ٦٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٨.

فهو، إن عددناه غزواً، فهو غزو، وإن عددناه صعلكة، أي: غزو بطريق التسلل والتخفّي، فهو كذلك، وينطبق عليه قول عنترة عن نفسه:

طَرَقْتُ ديارَ كندةَ وهي تَدوي
دَوِيَّ الرعدِ مِنْ ركضِ الجيادِ

وبعده:

وخَثْعَمَ قد صبَحناها صباحاً
بُكوراً قبل ما نادى المنادي(١)

وهذه غزوة، وليست حرباً، وهدفها السلب والنهب. وعلى كل حال، فهذه الأشعار، أشعار موضوعة، تأتي في سياق القصص المنسوب لعنترة، أما فيما يخص عروة، فعروة لم يتطرق قط بلاد اليمن، ولعل المقصود هنا أيضاً: بيشة وتثليث والخماسين، وهي منطقة واسعة، لعل الأبرز فيها الخماسين، جنوب وادي الدواسر، وهذه أيضاً منطقة بعيدة على عروة وصاحبيه، لما يتطلّبه الانتقال من غرب القصيم إلى الجنوب الشرقي باتجاه نجران، من مخاطر تصل إلى حد التهلُكة. على أنه جاء في تحقيق المولوي توضيحاً أدلّ، حين يقول عنترة:

يا عروة بن الورد يا خيرَ عَبْس ...

فهو في تحقيق شلبي(٢)، على أنه يخاطب عروة، كخطابه السابق، في حين أن تحقيق مولوي يقول:

"فخر بعروة بن الورد، لأنه من رهطه .. وجعله خيْرَ عبسٍ؛ لأنه كان صعلوكاً مثله، إلا أنه عرَّض به فيما جرى له مع عرسه الكنانية حين تركها في قومها"(٣).

فعروة - إذن - لم يغز (يتصعلك)، إلا في نطاق تطوافه المعهود. ولعل القول

(١) ديوان عنترة، ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٨.

(٣) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: محمد سعيد مولوي (بيروت: المكتب الإسلامي، طبعة أولى، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص ٣٢٤.

الأخير يفيدنا هنا: "فخَرَ بعروةَ بن الورد؛ لأنه من رهطه .. وجعله خير عبس؛ لأنه كان صعلوكاً مثله". ولا داعي للجدال حول هذا الفهم، فالمقصود هو الإغارة بطريق التخفِّي والتسلسل، من أجل السلب والنهب.

وأهم ما في قول عروة هو استعمال: "أطوِّف": مطوِّف، تطوِّف:

أرى أمَّ حسانَ الغداةَ تلومُني
تخوِّفني الأعداءَ والنفس أخوفُ
تقول سُليمى لو أقمتَ لسرَّنا
ولم تدْرِ أني للمقام أطوِّفُ
لعل الذي خوَّفْتنا من أمامنا
يصادفه في أهله المتخلِّفُ
إذا قلتُ قد جاء الغِنَى حال دونَه
أبو صِبيةٍ يشكو المفاقِرَ أعجفُ
له خَلَّةٌ لا يدخل الحقُّ دونها
كريم أصابته خطوب تُجَرِّفُ
فإنِّي لمُستاف البلاد بسُرَبَة
فمُبلغ نفسي عذرها أو مطوفُ
رأيتُ بني لُبنى عليهم غضاضةٌ
بيوتهم وسط الحلول التكنفُ
أرى أمَّ سِرياحٍ غدتْ في ظعائن
تأمَّلُ مِنْ شامِ العراق تُطَوِّفُ(١)

(١) ديوانه، ص ص ٦٩ - ٧١. المفاقر: جمع فَقْر. أعجف: هزيل. التكنف: الاستتار في كنف من شجر ونحوه؛ لأنه ليست لهم بيوت يأوون إليها. مستاف: سالك. السُّربة: جماعة الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين. غضاضة. اي يغضُّون أبصارهم من الحياء من الناس. الحلول: القوم النازلون. غدت: أي غدت تطوف من شام العراق، يريد من الشام إلى العراق.

وهذه هي الجهة التي وردت في الخبر الآخر:

"لما أتى عروة أرض بني (التيم)... وكانوا بأرض التِّيه ... وفي أرض بني القين عرى من الشجر العظام .."(١).

وهنا تصحيف صوابه: "بني القين"، وهؤلاء ليسوا في أرض التيه: بين مصر والعقبة، وإنما شمال وادي السرحان، مما يلي شرق الأردن حتى غور الأردن. وتتركز غارته على "النقرة" و"ماوان" في أقصى جنوب غرب القصيم، وهنا يقع "أفيح" في قوله:

أقـول لـهم يـا مـالُ أمُّكَ هـابِلٌ
مـتى حُـبِسَت عـلى أَفيـحٍ تُـعَقَّل(٢)

وبهذا، تكتمل الدائرة التي يتنقل فيها عروة من أقصى وادي السرحان إلى أقصى جنوب شرق ضَرِيَّة، وإلى أعلى وادي الجرير، فشرق العالية، حتى "خيبر"، ثم يصعد حتى أقصى الجنوب الغربي من المدينة، مشتملاً على بلاد طيِّئ والقصيم، وهذا هو مصداق قوله، حين يصف الأرض ذات الشَّثِّ والعرعر بأنها من الحجاز:

فـيـومـاً عـلى نجد وغـاراتِ أهـلـهـا
ويـومـاً بـأرضٍ ذات شَثٍّ وعـرعـرِ
يُناقِلن بـالـشُّمْطِ الكرامِ أُولي القُوى
نِقابَ الحجاز في السَّرِيح المسيَّرِ(٣)

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، "أفيح".

(٣) ديوانه، ص ٤٦ الشَّثُّ: نبات يُدبغ به الجلود، من نبات الجبال.

قال لبيد: ديوانه، ص ٩٣:

أقول وصوبُه مِنّي بعيدٌ   يحط الشَّث من قُلَلِ الجبالِ

وقال عامر بن الطفيل: ديوانه ص ٧٠:

أفراسَنا بالسهل بدَّلْنَ مذحجا   ذُرى شعف شَثّاً وباناً وعرعرا

=

وفي المَثَل: ولكن بشَعْفَين أنت جَدُود.

وهو منسوب إلى عروة بن الورد. ويخلط ياقوت في تحديده، فمرة يجعله: "في أرض الغور... غور تهامة،.. يقاله له: شعف عثر".

ومرة يجعله:

"هو تل بالسِّيّ، قرب وجرة"(١).

ولم يكن "شعف": شمال الخرمة، شرق الطائف، من نطاق تطواف عروة، وكذلك "عثر".

وأخيراً، من يكون عروة وأصحابه؟ أليسوا غُزاةً / صعاليك ؟

وجاء في ديوان عروة:

"غزت بنو عبس طيِّئاً بعدما رُمي عنترة، فسبَوْا نساءً خارجات من الجبل، فتبعتهم طيِّئ، فقاتلتهم عبسٌ حتى ردوهم إلى جبلهم، وجاؤوا بالنساء إلى بني عبس، وكان عامر بن الطفيل حين بلغه قتلُ عنترة قال: لا ترك الله لطيِّئ أنفاً إلا جدعه، أما علينا، فلُيوث، وأما على جيرتهم، فلا شيء، وقد قتلوا فارس العرب، وكانت عبس إنما تنتظر من طيِّئ مثل تلك الغِرَّة، حين نزلوا من الجبل، وأصابت عبس حاجتها، فقال عروة في ذلك:

أبلِغْ لديك عامراً إنْ لقيتَها
فقد بلَغت دارُ الحفاظ قَرارَها
رحلْنا من الأجبالَ أجبالَ طيِّئٍ
نسوقُ النساءَ عُوذَها وعِشارَها

= يناقلن: المناقلة اتقاء النقل، والنقل: حجارة صغار تكون في هذه النقاب. النقاب: الطرق في الجبال والمرتفعات.

السريح: واحدتها سريحة، وهي كل قدة قدت سيراً يسد بها النعال.

المسير: الذي جعل سيراً.

(١) ياقوت، معجم البلدان، "شعفين". وانظر، "شعف".

تـرى كلَّ بـيـضـاءِ الـعـوارضِ طَـفـلـةٍ
تُـفَـرِّي إذا شـالَ الـسِّـمـاكُ صِـدارَهـا
وقـد عـلـمت أن لا انـقلاب لـرحـلـهـا
إذا تـركت من آخـر الـلـيـل دارهـا(١)

وهذا محكّ في معرفة مفهوم "الصعلكة"؛ فهنا عروة سيّد في قومه، يغزو، ويسلب، وينهب، بل يسبي النساء، وكل ذلك خارج دياره وأهله، إنهم "طيِّئ"، القبيلة المعادية، وبلادهم: الجبلان، أجا وسلمى. ولعلنا بعد الآن نفهم قول بلاشير عنه:

"تشكل السرقة عنده وسيلةً وحيدة للعيش بأَوَد جماعته الجياع"(٢).

فـ"السرقة" تعني "الصعلكة"، أي: الغزو.

عمرو بن براقة:

والذي ليس واضحاً بعد هو علاقة الشنفرى بعمرو بن براق الهمداني، فكيف يجتمع همداني وأزدي، وبين الجماعتين حروب وثارات؟ وكيف يلتقي هذا بذاك على تباين ما بينهما؟ حتى قولهم:

"هذا... رفيق له في الصعلكة"(٣).

حقاً، هناك أبيات منسوبة إلى ابن براق، يرثي فيها الشنفرى(٤)، وفي شعر تأبط شراً قوله:

(١) ديوانه، ص ٤٣. دار الحفاظ: من المحافظة على الحسب والحزم. قرارها: مستقرها. عوذها: العائذ هي الحديثة النتاج. عشارها: العشار هي التي قدر قربت أن تضع. أراد أن من النساء حوامل، ومنهن مراضع. العوارض: الأسنان الضواحك. الطُّفلة: الناعمة الرخصة اللينة. تفري: تشق. صدارها: الصدار: شيء تلبسه المرأة على صدرها.
شال: ارتفع. السماك: نجم.

(٢) بلاشير، تاريخ الآداب العربي، ص ٣١٧.

(٣) شعره، مقدمة المحقق، ص١٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٢.

لـيـلـةَ صـاحـوا وأغـروا بي سـراعـهـم
بـالـعَـيْـكَـتَـين لـدى مَـعْـدَى ابـنِ بـراق[1]

وجاء في تعليق الجاسر: "السراة قريبة من بلاد فَهْم، التي منها تأبط شراً وعمرو ابن بَرَّاق، ومعهما الشنفرى"[2].

على أن طلال حرب أثار شكوكاً حول هذا حين ذكر:

"هل عمرو بن براق الصعلوك هو عمرو بن براقة، أم هما شخصان مختلفان أدى تشابه اسميهما إلى هذا الالتباس، ونشير في هذا الصدد إلى أن القزويني ذكر عمرو بن براقة فتى فهم وجميلها، أي: إنه من قبيلة فهم، ولم يقل: إنه من همدان وشاعرها"[3].

وليس القزويني هو الذي ذكر هذا وحده، بل ذكره أبو الفرج[4]، وكان أبو الفرج نفسه يخلط كثيراً بين الاسمين[5]، مما يثبت أنه من فَهْم، لا من همدان.

على أن الهمداني نسبه إلى زهران "ثُمالة":

"عمرو بن بَرّاق الشمالي من الأزد"[6]. وقد يقال فيه: عمرو بن براقة من همدان، ثم من نِهْم، وكان شاعراً. ولعله انضم إلى "فهم"، كما الشنفرى.

ولا بد من حل ذلك الإشكال المتعلق بابن براق؛ فهنالك شخصيتان: شخصية فهمية، ديارها جنوب غرب الطائف، وتحديداً "يلملم" ونواحيه، وشخصية همدانية: ديارها "الجوف": شرق مأرب، باليمن.

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، "العيكتان". وانظر، التاج، "برق".

(٢) شعره، تعليقات الجاسر، ص ١٥٢.

(٣) ديوان الشنفرى، ص ١٠٥.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٢١. على أنه من فهم، ص ص ١٤٩-١٥٢، ١٥٩، ١٨١، ١٨٤، ١٩٦، ١٩٧.

(٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٦١.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٩٨. وفي هذه الصفحة يتضح الخلط.

ابن براقة الفهمي:

أما ابن براقة الفهمي، فهو الذي ذكره تأبط شراً:

لـيـلـةَ صـاحـوا وأغـرَوْا بي سِـرَاعَـهم
بـالـعَيْكَـتَين لـدى مَعْدَى ابنِ بـرَّاقِ(١)

وهو الذي يقول:

عـرفت من الـكُـنـود بـبـطن ضـيـم
فـجَـوٌ بـشَـائِـمٍ طَـلَـلاً مُـحِـيـلا

و"ضيم"، هو الذي يحدده البلادي:

"ضيم: وادٍ لهذيل، يسيل من جبال الفرع وشعار، من سراة طوَد، جنوب غربي الحجاز الطائف.. عن مكة ٤١كم.. يدفع في ملكان من الجنوب، على ٣٦كم جنوب مكة.. يسكنة بنو دعد من هذيل"(٢).

أما "بشائم"، فقال ياقوت:

"بشائم، وادٍ يصب في بشمى، وبشمى: وادٍ أسفله لكنانة"(٣).

ويقول البلادي:

"بشماء: الجزء العلوي من وادي مركوب، يسيل من الفراع: جبال لبني فهم.. ومركوب: هو وادي الخضراء، يمر جنوب سَعْيا "(٤).

وكل هذه الأماكن تقع جنوب مكة، بما يزيد قليلاً على ١٠٠ كم، ومما يؤكد أن هذا هو الفهمي أنه يقول:

---

(١) ديوانه، ص ١٣٢، وانظر، الحاشية.

(٢) البلادي، معجم معالم الحجاز، ج ٥، ص ٢١٣.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، "بشائم".

(٤) البلادي، معجم معالم الحجاز، ج ١، ص ٢٢٥. وانظر، ياقوت معجم البلدان، "بشمى". و"الكنود"، اسم محبوبته، وليس كما قال محقق شعر همدان وجامعه، حاشية، ص ٢٧٥، الكنود: "الجحود".

وأَدْبَــرَ عــايــذُ الــبُــقْــميُّ شَــدّاً
يَـكُـدّ الـصَّـمْـدَ والـحَـزْنَ الـرَّجِـيـلا
وغـــادَرْنـــا وغـــادرَ مَـــوْلَـــيَّـــانـــا
بـــقـــاعِ أبِـــيـــدَةَ الـــوغْـــمَ الـــطـــويـــلا

وهذه ديار قبيلة (البقوم) المجاورة لفهم.

ثم هو يقول:

ونَـــسْـــلُـــكُـــهُـــمْ مَـــدارِجَ بَـــطْـــن (ضُـــرٍّ)
إلى قَـــرْنٍ كـــمـــا سُـــقْـــتُ الـــحَـــسِـــيـــلا

وهنا "ظرء" الذي جاء مصحَّفاً، قصره الشاعر، يقول البكري:

"ظر: ماء من دُفاق"(١).

ويقول ياقوت، وجاء به ممدوداً على الأصل:

"ظراء: بجانب دُفاق من الجنوب"(٢).

أما عن "دُفاق"، فيقول البلادي:

"دُفاق: وادٍ لهذيل، يسيل من السراة، قرب شفا بني سفيان، ثم ينحدر غرباً مع ميل تدريجي إلى الشمال حتى يصب في ملكان بعد ضيم على ٣٢ كم، جنوب مكة"(٣).

أما "قرن" هنا، فهو "قرن المنازل" (السيل الكبير).

ومن المواضع التي ذكرها ابن برّاقة هذا في دياره قوله هنا:

غـــداةَ تـــصـــارخـــت عُـــبْـــدُ ابـــن عـــمـــرو
وأهـــل تُـــضـــاعَ فـــاحـــتـــمـــلـــوا قـــتـــيـــلا

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، "ظر". وانظر، "رصف". وانظر عن قبيلة "البقوم"، التاج، "بقم".

(٢) البلادي، معجم معالم الحجاز، ج ٥، ص ٥٩.

(٣) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢٢٥.

و"تضاع" – حسبما يتضح من الصريخ – أنه في جهة "دفاق"(١).

وابن براقة هذا يتحدث هنا عن حرب بين قومه و(البقوم): أهل أسفل "أبيدة" (بيده) ووسطها، والمجاورين لزهران، وقد طاردت فهْم رَجّالةً، عدواً، غير راكبين، (البقوم) حتى عقر ديارهم؛ لأن المنطقة جبلية وعرة، يقول:

فلمّا أن رأيتُ القومَ فُلُّوا
فلا زَنْداً قبضتُ ولا فَتيلا

حَبَكْتُ مُلاءتي العليا كأني
حبَكْتُ بها قُطامياً هزيلا

كأنَّ ملائتيَّ على هِجَفٍّ
أحَسَّ عشيةً رِيحاً بَليلا

على حَتٍّ البُرايةِ زَمْخَرِيٍّ الـ
ـسواعد يَنْبَري رَتَكاً زَليلا

ومع هذا، فإن المحقق يفسر: "قطامياً هزيلاً: الصقر، وأراد هنا بعيراً ضامراً، سريعاً كأنه الصقر"، وهذا تفسير غير مناسب؛ إذ لا تنشب الحرب على أباعر هزيلة، وهو نص قول الشاعر، وإنما شبّه عودته إلى دياره، بعد أن أنهكته الحرب، بأنه كالصقر الهزيل طيراناً، لذلك الإنهاك، وكالبعير الضامر.

وأما قوله:

على حَتٍّ البُرايةِ زَمْخَرِيّ الـ
ـسواعِد يَنْبَري رَتَكاً زَليلا

فليس وصفاً لذلك البعير الهزيل، كما جاء في الشرح أيضاً، وإنما شبه جملة خبر لـ "كأن ملاءتي" المحذوفة.

---

(١) وهو غير الذي ذكره ياقوت، معجم البلدان: "تضاع: واد بالحجاز، لثقيف وهوازن". أي: شرق الطائف.

أوَليست هذه حرباً؟ أو بمعنى آخر "صعلكة" قام بها (البقوم)، غازين دياراً بعيدة عن ديارهم؟ إذن، فهذا هو عمرو بن براقة الفهمي، صاحب الشنفرى، وصاحب تأبط شراً(١).

عمر بن براقة الهمداني :

يقول ابن براقة هذا في ميميته الشهيرة:

فإنَّ حريماً إذ رجا أن أَرُدَّها
ويذهب مالي يا بنةَ القَيْل حالمُ

وفيها يقول:

وكنتُ إذا قومٌ غزوْني غزوتُهم
فهل أنا في ذا يالَ همدان ظالِمُ(٢)

وينقل محقق شعر همدان:

"أغار رجل من مراد، يقال له: حريم بن نعمان المرادي، على أبل ومال لعمرو بن براقة .. أغار على مراد، واجتاح كل ما سلبه إياه المرادي، واجتاح معها نَعَماً وأموالاً"(٣).

فهذا هو الهمداني، صاحب الميمية الشهيرة، غير أننا علينا أن نلتفت إلى قوله:

---

(١) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ١٠٢ - ١٠٤، وضبط المحقق "الحزن" في قوله السابق: "يكد الصمد والحزن الرحيلا"، بضم الحاء ضبط غير سليم، وإنما هو بفتحها، عطفاً مفرداً على الصمد. حبكت: شددت. الحث: السريع. البراية: الشحم واللحم. ونجد مثل هذا عند حسن عيسى أبو ياسين، شعر همدان وأخبارها (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، حاشية ص ٢٧٥ - ٢٧٧، سواء في تعريفه لـ"ضيم"، أو لعبد بن عمرو، الذي جعله في همدان، بينما هو من فهم، وقوله: قرن: جبال باليمن، والتعريف بالبقوم، وبحثه عنه، في مذحج ... إلخ. الزليل: الخفيف. الرتك: تقارب الخطو.

(٢) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ٩٨ – ١٠١.

(٣) أبو ياسين، شعر همدان وأخبارها (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، حاشية ص ٢٧٩. وهو أدق مما نقله الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ٩٨ : "أغار رجل من همدان، يقال له: حريم". ومن صحيح النسبة إليه، قصيدته الميمية، شعر همدان، ص ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

تقول سُليمى لا تَعَرَّضْ لِتَلْفَةٍ
وليلُك عن ليلِ الصعاليك نائمُ
وكيف ينامُ الليلَ مَنْ جُلُّ ماله
حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ

وبعده:

ألم تعلمي أنَّ الصعاليك نومُهم
قليلٌ إذا نام الخَليُّ المسالِمُ
إذا الليل أدجى واكْفَهَرَّ ظلامُه
وصاحَ مِنَ الأَفراطِ بومٌ جَواثِمُ
ومال بأصحاب الكَرى غالباتُه
فإنِّي على أمرِ الغِواية حازمُ

ثم يقول:

تَحالفَ أقوامٌ عليَّ ليسلموا
وجَرُّوا عليّ الحربَ إذ أنا سالِمُ

وبعد ذلك:

متى تطلبِ المالَ الممنَّعَ بالقَنا
تعِشْ ماجداً أو تَخْتَرِمْك الخارمُ
وكنت إذا قوم غزَوْني غزوتُهم
فهل أنا ذا يالَ همدانَ ظالِمُ
فلا صُلحَ حتى تَقْدَعَ الخيل بالقنا
وتَضْرِب بالبِيض الخِفاف الجماجِمُ
أَمُسْتَبْطِئٌ عمروُ بنُ نعمان غارتي
وما يُشبه اليَقظانُ من هو حالِمُ

إذا جَـرّ مـولانـا عـلـيـنـا جـريـرةً

صـبـرنـا لـهـا إنّـا كـرامٌ دَعـائمُ

ونـنـصـر مـولانـا ونـعـلـم أنه

كمـا الـنـاس مجـرومٌ عـلـيه وجـارِمٌ(١)

وفي هذا بيان وافٍ لمفهوم "الصعلكة" / الغارة / الغزو / الحرب، ونصرة الحليف، بَلْهَ المنتمي صليبةً، فابن براقة يعيش في وسط قومه، وله إبل ومال(٢)!

إذا جـرَّ مـولانـا عـلـيـنـا جـريـرةً

صـبـرنـا لـهـا إنّـا كـرام دعـائِمُ

ونـنـصـر مـولانـا ونـعـلـم أنه

كـمـا الـنـاس مـجـرومٌ عـلـيه وجـارِمُ

ولا يمكن أن يكون عمرو بن براقة الهمداني ـ على أنه من همدان ـ قد غزا (تصعلك) في جهات الحناكية: شرق المدينة، حيث "دارة الذئب"، كما يقول:

وهُـمْ يَـكُـدُّون وأيَّ كَـدّ

من دارةِ الـذئـب بمُـجْـرَهِـدّ(٣)

وذلك حسبما يوجه ابن جنيدل الموضع(٤)، ذلك أن مجال تحرك ابن براقة هو

(١) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ص ٩٨ ـ ١٠١. اكفهر: أظلم. تخترم: تُهلك. البيض: السيوف.

(٢) حتى إن محقق شعر همدان يورد له قوله، ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

وكيـف ينـام الليـلَ مَنْ جُلُّ ماله — حسـامٌ كلون الملح أبيض صارمُ

غَموضٌ إذا أمضى الكريهةَ لم يدَعْ — لـه طمعـاً طـوْعَ اليمـينِ ملازمُ

نقـدتُ بـه ألفـاً وسامحت ربَّـه — على النقـد إذ لا يُستطاع الدراهمُ

فهنا يدفع ابن براقة ألفاً.

(٣) البكري، معجم ما استعجم، "دارة الذئب".

(٤) سعد بن عبدالله جنيدل، عالية نجد (الرياض: مطبعة نهضة مصر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ج ٢، ص ٥٦٤.

شرق نجران وحواليها، وهذه الدارة أقرب ما تكون إلى شرق نجران، بينها وبين الجوْف، في اليمن[1]، يقول:

إذا الـلـيل أدجى واكـفَـهَـرَّ ظلامُه

وصاحَ مِنَ الأفـراطِ بـومٌ جـواثِمُ[2]

ويحدد الهمداني الموضع:

"مما يصلي نجران .. أعلى الفرط .. ويسمى ما بين الجوف ونجران: الأفراط .. وأكثر من يكون بالأفراط بلحارث .. وقد كثُرت بلحارث بها"[3].

أي: إن العداءَ كان مستحكماً بين همدان وجيرانهم "بلحارث بن كعب"، فبلحارث في أعلى الأفراط وهمدان في أسفلها.

وعلى كلٍّ، فابن براقة الفارس، الغازي، الرئيس، هو القائل:

وعـاديـةٍ سَـوْمَ الجـراد وَزَعـتُـهـا

بـطـعنٍ كَـسَاهـا منه رَدْعـاً كِلامُـهـا

دَنـوتُ لـهـا تحت الـعَجاج فـأدبـرتْ

شواكِلُها اليسرى كثيراً سهامُها[4]

مالك بن الريب:

وإذا لم يصل السليك بن السلكة إلى الجزيرة الفراتية، في أقصى شمال العراق، وهو لم يصل أيضاً إلى "قرماء" (ضرما)، أو حتى جهات حَزْن بني يربوع، مما يصالي (لينة) والحفر، فإن وصول مالك بن الريب إلى أقصى بلاد مهرة، وجهات

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ص ٢٥٥ – ٣١٨.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، "جم". وضبط الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ١٠٠، "الإفراط" بكسر الهمزة، تصحيف.

(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٥.

(٤) الهمداني، الإكليل تحقيق: محب الدين الخطيب (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٦٨هـ)، ج١٠، ص٢٥٢.

الشِّحْر، وأقصى جنوب الربع الخالي يصبح أمراً افتراضياً، ويخضع لاحتمالات عدة؛ منها:

أن نطاق تطواف مالك، أو حسب التعبير المتداول الصعلكة، أو حسب المفهوم الإسلامي (اللصوصية - سرقة الإبل - خاصة) كانت لا تتعدى القصيم، فجهات عفيف، حتى ديار بني مازن في شمال شرق الجزيرة العربية. أما أن يصل إلى تلك الجهات القصيَّة، فأمر شاق، وغاية في الصعوبة. ومنها: أن مالكاً كان مطلوباً من الدولة الإسلامية، ولم يكن بوسعه التنقل بهذه السهولة، عبر الصحارى الشاسعة، دون مطاردة وملاحقة، ولم يكن بمقدور قومه، تميم، نجدته، حتى وإن كانوا في جهات الربع الخالي.

ومنها: أن مالكاً، إن كانَ حقيقةً يرُودُ تلك الجهات - أو يدور فيها حسب رواية البكري، ورواية الأغاني أفضل - كان يُغير على بلاد مهرة؛ لأنه لم يكن بإمكانه الإغارة على المناطق القريبة منه، وهذا حقيقة خلاف الواقع. ولهذا، فإن قوله:

ولا جَزِعٌ مِنَ الحدثان يوماً
ولكني أَرُودُ لكم وَبار(١)

حيث: "وبار: بين رمال يبرين واليمن .. ما بين مهرة والشِّحْر .. منقطعة بين رمال بني سعد وبين الشحر ومهرة"(٢). وهي الآن (أوبار): بعُمَان، حوالي ١٧٠كم شمال صلالة.

ويحمل التعبير: "ولا جَزِعاً من الحدثان دهري"، ذلك الإحساس بالخوف والترقُّب، حَذَرَ القبض عليه. ومن هنا، فمن الواضح أن قوله ذاك ادعاء؛ لأن "وبار" نفسها أرض مجهولة، يضرب بها المثل في البعد والتِّيه، مما يدل على أنه كان يهرب إلى تلك الجهات للتخفي بها بعيداً عن أعين السلطة ورقبائها، ولا تشكل

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٢، ص ٣٠٧.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، "وبار". وانظر، البكري، معجم ما استعجم، "وبار"، الجاسر، المنطقة الشرقية، ج ٤، ص ص ١٧٩٧-١٧٩٨.

هذه المنطقة موضع ارتياد طبيعي له.

إن منطقة مالك هي نجد بشكل عام، ومن هنا وجدناه يتحدث عن نهب إبل مر بها عبر غرب الدوادمي، مجتازاً منطقة الشُّرَيف، وذاكراً "جمران" و"غرب" هناك، يقول:

سرت في دُجَى الليلِ فأصبح دُونَها

مَفاوز جُمران الشُّرَيف فغُرَّبِ

تُطالع من وادي الكُلاب كأنها

وقد أنجدت منه فَرِيَدة ربربِ(١)

فهو فَرّ بالإبل إلى نجد "أنجدت"، وهذا هو الأمر الطبيعي: أن ينهبها في الشمال، ليبيعها في الجنوب، ووجهته هنا نحو القويعية وما بعدها جنوباً.

(١) ياقوت، معجم البلدان، "جمران". فريدة ربرب: بقرة وحشية منفردة.

الباب الرابع

القراءات المعاصرة للصعلكة

الفصل الأول
التوجيه العام

التفسير الحديث للصعلكة:

أحمد أمين:

كان أمين السَّباقَ إلى بعث موضوع الصعلكة، فكل الأفكار التي جاءت بعده تعود إليه(١)، حتى أعقبه خليف؛ إذ نجده يقول:

"من مُثُلهم أنهم كانوا لا يهجُمون إلا على الأشحَّاء البخلاء من الأغنياء، فإذا وجدوا غنياً كريماً تركوه، وإن وجدوا غنياً شحيحاً هاجموه، فهم لصوص شرفاءُ ونبلاءُ"(٢).

ويقول:

"وشيء آخر نبيل كان يفعله هؤلاء الصعاليك، وهو تكوينهم جمعيةً من فقراء قومهم، يصرفون منها ما كسبوه من الأغنياء الأشحَّاء عليهم بالتساوي .. تطبيقاً للاشتراكية"(٣).

كما يقول:

"كان الجاهليون ينقسمون إلى شيوخ قبائل ينعمون بالغنى والترف، وهم ومن اتصل بهم، والباقون هم رِعاع لا يجدون ما يأكلون، وأفراد القبيلة يحاربون ويقاتلون ويقتلون ويجرحون، حتى إذا غنموا، فخير الغنائم لشيخ القبيلة، ولهم اسم خاص، وهي الصفايا. أما أفراد القبيلة، فلهم فُتات الموائد. وهي حالة بائسة تَعِسَة"(٤).

---

(١) شارك جب Gibb في هذا، وأشار إليه صلاح عبدالحافظ، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره (القاهرة: دار المعارف، د-ت)، ج ١، ص ص١٨٨-١٩٣.

(٢) أحمد أمين، الصعلكة والفتوة في الإسلام (القاهرة: دار المعارف ، ١٩٥٢م)، ص ١٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ص، ١٩-٢٠.

(٤) المرجع السابق، ص ص ١١٠-١١١.

ويواصل تحليله لهذه الظاهرة، فيقول:

"هؤلاء لَمَّا رأوا هذه الحال؛ حالَ منغمسٍ في الترف إلى حَدٍّ، ومنغمس في الفقر لا إلى حَدٍّ، لم يرضَوْا عنها، وآلَوْا على أنفسهم أن يأخذوا من الظالم للمظلوم، وأن يقرِّبوا مسافة الخلف بين الطائفتين، ولذلك تركوا من كان غنياً كريماً؛ لأنه يؤدي ما عليه للفقراء، ونقموا على الأغنياء الأشحَّاء، فكانوا يهجمون عليهم هم وأتباعهم من رجال الحرب الشجعان، ويسلبُونهم نُوقَهم وسائر أموالهم، ثم يقسِّمونها على الفقراء قسمة عادلة من غير محاباة، ويُمتدحون بسلبهم أموالَ البخيل وإطعامهم الطعام للفقير "(١).

غير أن أميناً وضع حدّاً فاصلاً بين الجاهلية وما بعد الجاهلية، فقال:

"نرى إذا تقدمت الدولة العباسية جماعة سلاّبين نَهّابين يُسمَّوْن العيارين أو الشُّطَّار يَعيشون في الأرض فساداً ... فكانوا ينهبون ما قدَروا عليه، ويتعدَّوْن على الأغنياء من غير تفرقة بين كريم ولئيم، ثم لا يوزِّعون ما نهبوه"(٢).

وهذا ما لم يَرْضَ عنه عطوان، فجعل الكل سواءً، وتصدَّى للرد على أمين(٣).

على أن لأمين كلمةَ صدق قالها في حق صعاليك الجاهلية، وهي:

"إن كلمة الصعلوك لم تكن تدل على معنى سيِّئ، كالذي كان فيما بعد"(٤).

وهذه ملحوظة قيّمة جداً تتعلق بأعراف المجتمع وسلوكياته، فما دامت الكلمة تدل على معنى محبَّذ – والمقصود هنا الصعاليك الشجعان / الفرسان، فإن هذا

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١١١-١١٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٩.

وقد أصبحت فكرة التمرد مسيطرة على الكتابة المعاصرة، كما في قول: غازي طلمات وعرفان الأشقر، الشعر في العصر الأموي (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨م) ص ٥٥٤: "طائفة أخرى من الصعاليك ارتقت بالصعلكة من التمرد على الأعراف والتفرد في الشعاب...".

(٣) حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م)، ص ١٥٣.

(٤) أمين، الصعلكة والفتوة في الإسلام، ص ١٩.

يعني أن المجتمع يقبل هؤلاء، ولا يرى فيهم خروجاً أو مروقاً، وكل الدلائل تشير إلى هذا ولا تناقضه، غير أنه كان في ذهن أمين معنى الصعاليك الذي أصبح مرادفاً للعيارين والشُّطّار .. إلخ، ولم يكن في ذهنه النواحي الإيجابية في إطار القبيلة ذاتها، غير أن أميناً زرع البذور الأولى لقضية الصعلكة، فأثار "الاشتراكية"، وفكرة "تكوينهم جمعية"، والهجوم على الأغنياء الأشحاء وتوزيع الثروة.

يوسف خليف:

يفسر خليف ظاهرة الصعلكة على النحو الآتي:

"هؤلاء الصعاليك الذين لم يَلقَوْا من مجتمعهم عناية أو اهتماماً في حياتهم.. تظل اللعنة تلاحقهم .. هؤلاء المشردين في آفاق الأرض .. مشردين"(١).

"ينظر هؤلاء الفقراء الجياع المحتقَرون من مجتمعهم، المنبوذون من إخوانهم في الإنسانية .. وقد جُرِّدوا من كل وسائلها المشروعة، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين: إما أن يقبلوا الحياة الذليلة المهينة التي يحيونْها على هامش المجتمع، في أطرافه البعيدة، خلف أدبار البيوت، يخدُمون الأغنياء، أو ينتظرون فضل ثرائهم، أو يستجدونهم في ذِلَّة واستكانة، وإما أن يشقُّوا طريقهم بالقوة ..."(٢).

ويستمر في معطياته، فيقول:

"فَرّ هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامي ليقيموا لأنفسهم "مجتمعاً" فوضوياً، شريعته "القوة"، ووسيلته "الغزو والإغارة"، وهدفه "السلب والنهب"، ووجدوا في الصحراء الفسيحة الواسعة التي لا تقيدها قيود، ولا تَحُدُّ من حريتها حدود، ولا يستطيع قانون أن يخترق نطاقها ليفرض سلطانه عليها، مجالاً لا حدود له، يمارسون فيه نشاطهم الإرهابي، ويقيمون "دولتهم" الفوضوية، "دولة

(١) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ١١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١.

الصعاليك"، حيث يحيَوْن حياة حرة متمردة، تسودها العدالة الاجتماعية، وتتكافأ فيها فرص العيش أمام الجميع. وأخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تحفل بأحاديث هذا التشرد في أنحاء الصحراء الموحشة، ووديانا الرهيبة، حيث يحيا الوحش بعيداً عن البشر، وحيث يكمُن الموت في كل رجء من أرجائها"(١).

وهو يؤكد ناحية يراها مهمة حين يقول:

"يدفعه لا توافقه الاجتماعي..فيصطدم بمجتمعه الذي يرى في هذه الفوضوية الفردية مظهراً من مظاهر التمرد. وتنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك، فيتخلى المجتمع عنه، ويحرمه حمايته، ويعيش الصعلوك خليعاً مشرداً، أو طريداً متمرداً، حتى يلقى مصرعه"(٢).

غير أن خليفاً يقول:

"الغزو والغارة والسلب والنهب ليست عندهم وسائلَ للغِنى وجمع المال فحسب، ولكنها أيضاً وسائل للبذل والعطاء، واكتساب المحامد، والتشبه بالسادة الأغنياء في الكرم والجود "(٣).

وهذا يجرّ إلى السؤال الثاني؟ فإذا كان:

"الغزو والغارة والسلب والنهب ليست عندهم وسائلَ للغنى وجمع المال".

ألا يشكّل هؤلاء - مرة أخرى - طبقة جديدة توازي من ثاروا عليهم أو اضطهدوهم، وبذلك لا يتحقق الهدف السامي من القيام بالثورة والتمرد - الصعلكة -؟ وقد رأينا في المجتمع القبلي سادةً زعماءَ أبوابهم مشرّعة للمحتاجين، بل وفّروا لهم الراحة والأمن دونما عناء.

ثم أين يأخذ أولئك "الغنى وجمع المال" ؟ أيفرِّقونه في عزلتهم أو على ذويهم، في ديارهم؟ يذكر خليف:

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٨ .

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧.

"وفي أخبار تأبط شراً أنه خرج في عدة من فَهْمٍ يريدون الغارة على أحد أحياء بجيلة. وتمت الغارة بقتل نفر من بجيلة، ونهب إبلٍ لهم. وساق الصعاليك الإبل حتى إذا كانوا على يوم وليلة من بلادهم، تصدّت لهم خثعم"(١).

إذن، فتأبط شراً - وهو من أكبر ممثلي هذه المجموعة - لا يُغِير على فَهْم، قبيلتِه، وإنما يغير على بَجِيلة، في نواحي بيشة، ولهذا اصطدموا بخثعم، بعيدين عن نواحي الطائف الجنوبية الغربية، حيث فَهْم، وهو وأصحابه - وكلهم من فَهْم - سيعودون إلى بلادهم، ولو كانوا يهرعون إلى الصحراء، لَمَا عادوا أدراجَهم إلى بلادهم.

ولكن خليفاً له رأي آخر في حالة صعلوك آخر؛ هو السليك بن السلكة، يقول:

"ويجب ألا يُفهم هذا أن السليك كان مرتبطاً بقبيلته كسائر أفرادها، فقد كان يحيا حياة الخاصة - حياة التصعلك - خارج القبيلة، دون أن يرتبط بها في شيء، أو يعتمد عليها في شيء"(٢).

ذلك أن السليك كان يعود إلى بلاده في الربع الخالي، وإلى قومه فيها، بني سعد، ومن تميم، وكان يغزو خثعم(٣) وسواها، ليس لأنه - كما يقال - لم يكن ليغير على مضر، بل لأن القبائل المنسوبة إلى اليمن، كانت هي التي تجاور بلاده، ولأن بني عامر من مضر، عُقيل خاصة - جيرانه - كانوا حلفاء لتميم، وليسوا أعداءً، فهم يد واحدة ضد أولئك، في الجاهلية.

وكان تعليل خليف لظاهرة الصعلكة في جبال السراة التي قال عنها:

"المنطقة التي شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب"(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٦. والنظر، ص ص ١١٤- ١١٥.

(٢) المرجع نفسه ص ١١٦ ولم ينس خليف حاجزاً الأزديّ، وقيس بن الحدادية، وأبا الطمحان القيني، انظر، ص ٥٦.

(٣) انظر البكري، معجم ما استعجم، "الأدمى".

(٤) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ٧٨. وانظر ص ص ٧٩ - ٨٦.

تعليلاً غير متناسب مع مجريات الأمور في هذه المنطقة، ففي العصر الأموي، نجد أن السراة تكاد تخلو من هذه الظاهرة، وهي بالبادية ألصق، ثم إنها لم تقتصر على السراة، بل كانت تمتد حتى أطراف اليمن الموالية للربع الخالي، وتشكل السراة منطقة أكثر استقراراً، وخصباً.

وتثير دراسة خليف عدة أسئلة؛ فحين يقول:

"مضوا خلف أولئك الأغنياء المترفين، وبخاصة البخلاء منهم"(١).

يأتي السؤال: كيف عرفنا ذلك؟ وكيف يميِّز الصعاليك بين الأغنياء؟ ومتى تحقّق هذا التمييز؟ وهو يتحدث عن المجتمع العربي في الجزيرة العربية، فيقول: "مجتمع رعوي ـ في مجموعه ـ لم يعرف الاستقرار"(٢).

ولكن المعروف أن بلاد الأزد ـ غامد وزهران وخثعم ـ وبلاد مضر ـ هذيل وكنانة، كانت مستقرةً منذ قديم الزمان في مواطنها، ولم تتحرك القبائل في وسط نجد تحركاً سريعاً، بل كانت تستقر فترة طويلة، تمتد قروناً، حتى تأتي قبائل أقوى، فتتحرك من مواطنها، أو تثبت فيها، بل حتى في الدهناء والربع الخالي والنفود الكبير، لم يكن تنقل القبائل بتلك السرعة التي نتصورها.

ويبقى أن تصنيفه للظواهر الفنية في شعر الصعاليك(٣)، لم يأخذ في الحسبان

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠.

(٣) على أن لا يغيب عنا أن معيار الفحولة ليس معياراً ثابتاً، كان نحصر فيه من أجاد المديح والهجاء، وغلب عليه الشعر، فعرف شاعراً؛ إذ إن معنى الفحل "هو من له مَزِيَّةٌ على غيره". وهذا كلام عام، فمثلاً: "لبيد بن ربيعة ليس بفحل، كان رجلاً صالحاً، كان ينفي عنه جودة الشعر". هذا أمر، وأمر آخر أن "طفيلاً الغنوي فارس وهو فحل"، و"مالك بن حريم الهمداني من الفحول"، و"دريد بن الصمة من الفحول الفرسان، وهو في بعض شعره أشعر من النابغة الذبياني"، و"أبو ذؤيب فحل"، و"أبو خراش فحل". وفي المقابل ليس الأعشى بفحل. بل إن النابغة مرة فحل، ومرة أخرى كأنه من الفحول. وهكذا، عمرو بن كلثوم ليس بفحل.. وهلم جرا. انظر: الأصمعي، فحولة الشعراء، ص ص ٩-١٢، ١٥.

جو الشعر الجاهلي، وبشكل عام شعر الفرسان، ولا يقيس هذا على شعر حاتم، وشعراء هذيل الذين منهم أبو ذؤيب وأبو خِراش الهذلي، ذلك أن شعر هؤلاء بخاصة، منسجم تماماً مع تقاليد الشعر الجاهلي(١)، وهذا هو ما واجهه خليف حقيقة، فراح يقول:

"الباحث في شعر الصعاليك يجد مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت في أغراض قبليَّة، وتتسم بسمات الشعر الجاهلي القبلي .. تبدو .. غريبة على شعر الصعاليك؛ لأننا نعرف أن هؤلاء الصعاليك قد تحلّلوا من التزاماتهم القبلية، فتحلّلت شخصياتهم الفنية من التأثر بها، فكان طبيعياً أن يخلو شعرهم من تلك الأغراض القبليَّة التي نراها في سائر الشعر الجاهلي".

وهذا اعتراض مبدئي، لا شك يعيق التعميم. ومن هنا قال:

"ولكن المسألة لا تصل إلى درجة المشكلة، فمن الطبيعي أن حياة هؤلاء الصعاليك قد مرت بدورين اجتماعيين: الدور الأول وهو فترة ما قبل التصعلك، تلك الفترة التي كان الصعلوك فيها عضواً عاملاً في المجتمع القبلي قبل أن يبلغ سوء توافقه الاجتماعي الذروة التي يبدأ من عندها الدور الثاني في حياته الاجتماعية، وهو فترة تصعلُكه التي تستمر حتى مقتله أو موته ... ومن الطبيعي أن يكون بعض هؤلاء الصعاليك قد اكتملت مواهبهم الفنية في الدور الأول، فشاركوا شعراء القبيلة في حياتهم الفنية، وأيضاً قد يشاركونهم فيها إذا ما انتهى الدور الثاني بالعودة إلى الحياة القبلية ... ومعنى هذا أن المجموعة القبلية من شعر الصعاليك نِتاج لفترتين تمثّلان في الحقيقة دوراً اجتماعياً واحداً: فترة ما قبل التصعلك، وفترة ما بعد التصعلك... عروة .. صخر الغي.. السليك... حاجز... قيس بن الحدادية"(٢).

(١) المرجع السابق، ص ص٢٥٧ ـ ٣٣٦، وانظر وصفه للصعاليك، ص ٢٥، بأنهم "شطار"، وهو مصطلح متأخر، تسرَّب في كتابات القدماء.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

والسؤال: كيف يكون هذا؟ فهنا يقول:

"تنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك، فيتخلى المجتمع عنه، ويحرمه حمايتَه، ويعيش الصعلوك خليعاً مشرداً، أو طريداً متمرداً، حتى يلقى مصرعه؟".

فكيف يعود إليه في دور ثالث؟ أن يجد الباحث في شعر الصعاليك: "مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت في أغراض قبليَّة، وتتَّسم بسمات الشعر الجاهلي القبلي"، يثبت انتماء الصعلوك قبلياً، واجتماعياً، وأُسَريّاً، فما وَصَلَنا من شعر جاهلي أو إسلامي - أموي لم يكن وليد مرحلة الشباب - عدا شعر طرفة وذي الرمة مثلاً إلى حدٍ ما - وإنما شعر كهول حنَّكتهم التجارب، وتمرَّسوا على قول الشعر وصياغته !!!.

وإضافة إلى هذا، فخليف يتحدث عن ثلاث طبقات اجتماعية؛ هي: الصُّرحاء، والعبيد، والموالي، ويقول:

"طبقة الموالي: ... كانت تتألف من العُتقاء، ومن العرب الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة ... وكانوا يُسَمَّوْن أحياناً الخُلَعاء، وأما العبيد فهم أولئك الذين أعتقهم سادتهم من غير الرِّق، فظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء"(١).

ولا نجد هذا إلا في الإسلام. أما في الجاهلية، فالعبد عبد أبدي، وهناك الحر والحليف، وكلاهما في الحق سواء، وخليف نفسه يُقِرّ بذلك حين يقول عن حادثة عتق عنترة:

"ولكن ليست الفرصة التي أتيحت لعنترة بالتي تُتاح لكل أولئك الأغربة الذين كان يَغَصُّ بهم المجتمع الجاهلي"(٢).

وحقاً؛ ففي مكة كان هناك سُود بكثرة، وأما في نجد وشمال الجزيرة، فكانوا قلةً، والصورة التي قدمها لهم الشعر الجاهلي صورةٍ ناس مسالمين، مدْقعين، لا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٠.

يمارسون الحرب، ومهنتهم الرعي والأعمال المنزلية، فـ"الأغربة" الذين لم يعترف بهم آباؤهم يظلون عبيداً في حكم المجتمع الذي يمارس عليهم سلطة الإخضاع والتبعية، فيجرِّدهم من مقومات الاعتماد على الذات؛ أي الاستعداد للحرب، ولم يكن هؤلاء يشتركون حتى في صراعات القبائل بعضها مع بعض، وخير شاهد على ذلك حرب صفين التي لم يشترك فيها عملياً في القتال حتى الموالي، حسب التعريف الإسلامي.

يقول عبد يغوث:

جزى الله قومي بالكُلاب مَلامَةً
صَرِيحَهم والآخرين المواليا(١)

ويقول ربيعة بن مقروم:

وساقت لنا مَذْحِج بالكُلاب
مواليَها كُلَّها والصَّمِيما(٢)

ويقول المسيب بن علس:

فإنّ مواليكُمُ أصفَقوا
فكلُّهُمُ جَنْبُه أجْرَبُ(٣)

ويقول أبو ضب الهذلي:

هلاّ علمتَ أبا إياسٍ مَشهدي
أيامَ أنت إلى الموالي تَصْخَدُ(٤)

ويقول العباس بن مرداس:

---

(١) الضبي، المفضليات، ص ١٥٧.
(٢) المصدر السابق، ص ١٨٤.
(٣) شعر المسيب بن علس، تحقيق: أنور أبو سويلم (الأردن: جامعة مؤتة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ص ٩٢.
(٤) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ٢، ص ٧٠٣. تصخد: تصرُخ وتصيح.

فـإن يُـقـتَـل بـنـو عـثـمـانَ فـيـهـا
فـهـم قـتـلـوا المـواليَ والـصَّـمـيـمـا(١)

وقال الحصين بن الحمام المُرّيّ في توسيع مفهوم الولاء، ولكن حسب الرؤية السابقة:

مـوالي مـوالـيـنـا الـولادةُ فـيـهـمُ
ومولى الـيـمـينِ حـابـسـاً مُتَقَـسَّمـا(٢)

وقال الفرزدق:

أَبَتِ المـوالي أن تـكـونَ صـمـيـمَـهـا
ونَـفَـتْك عن أحـسـابـهـا مـخـزومُ(٣)

ويقول خداش بن زهير:

مـوالي بـنـي عـمـرو وأهلِ أمـانـة
وقـربى فـلم يـنـفـعْـهُـم قِـيدَ إصبعِ(٤)

وقال مالك بن نويرة:

عُـصـيتُ ولـو طُـووِعـتُ يـومَ ضَـرِيَّـةٍ
أَمَـرْتُـهُـم أمـراً يُـدِيخ المـوالـيـا(٥)

---

(١) ديوان العباس بن مرداس، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، ص ١٤٤ وقول المحقق: "موالي القبيلة: اتباعها وعبيدها" غير صحيح، فالعرب كانت تترفع عن قتل من لا يكافئ دماءهم.

(٢) الضبي، المفضليات، ص ٦٥، وانظر، ص ص ١٦٧ - ١٧٧ - ٣١٧ - ٣٧٦ - ٤٠٨، الأصمعي، الأصمعيات، ص ٥٥-٦٤-٧٦ ، الجبوري ، قصائد جاهلية نادرة، ص ١٣٢. موالي موالينا: القرابة منهم: قسم مواليه قسمين: موالي القرابة، وهم بنو عمه، وموالي اليمين، وهم حلفاؤه. حابساً متقسماً: حالا من اليمين؛ لأنهم يقسم لهم على النصرة، ويحبس كل من الحليفين به.

(٣) ديوانه، ج ٢، ص ٧٧٧.

(٤) شعر خداش بن زهير العامري، تحقيق: يحيى الجبوري (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٨٥.

(٥) أبو عبيدة، النقائض، ج ١، ص٢٥٨.

والموالي في كل هذه الشواهد هم الحلفاء؛ أي عرب صُرحاء، فمَن أسماهم خليف: "الخلعاء" لم يعودوا "خلعاءَ"، وإنما أصبحوا جزءاً من القبيلة، منتمين إليها، لهم الحقوق نفسها، وعليهم الالتزامات ذاتها، وها هم "الموالي" يشتركون في حرب ضروس طاحنة هي حرب "الكُلاب"، حتى إنه جاء في شرح أشعار الهذليين، تعليقاً على قول أبي ضَبٍّ السابق: "الموالي: بنو العم"(١).

وهذا ما يقصده زهير بقوله:

وموليً قد رَعَيتُ الغَيْبَ منه
ولو كنت المُغَيَّبَ ما قَلاني(٢)

وهذا هو ما يقصده طرفة بقوله:

فما لي أراني وابنَ عَمِّيَ مالكاً
متى أدْنُ منه يَنْأَ عني ويَبْعُدُ

وبعده:

فلو كان مولايَ أمرأً هو غيرُه
لَفَرَّجَ كَرْبي أو لأنْظَرني غدي
ولكن مولاي امرؤٌ هو خانِقي
على الشكر والتَّسْآل أو أنا مُفْتَدِ(٣)

كما قال في المعنى نفسه:

وأعْلَمُ عِلْماً ليس بالظَّنِّ إنه
إذا ذَلَّ مولى المرء فهو ذليلُ(٤)

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ٢، ص ٧٠٣.

(٢) ديوانه، ص ٣٤٩. وانظر، ديوان الخنساء، ص ١١٢. قلاني: أبغضني وكرهني، ولم يحفظ مغيبي.

(٣) ديوانه، ص ص ٣٧، ٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٤ وانظر، ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٩٥م)، ص ص١٢، ٧٩. وديوان الأعشى، ص ١١٧.

وقال جرير، يعني بالموالي أبناء العمومة:

وقــائـلــةٍ والــدمـع يَــحْــدُرُ دَمْـعَــهـا
أبَـعْـدَ جَـرِيـرٍ تُـكـرِمـون الـموالـيـا(١)

وأما أولئك الموالي الذين ينظر إليهم المجتمع القبلي نظرة دونية، فحالهم حال العبيد، مرتبتهم ثانوية، هم دائماً في أذيال القبيلة، تابعين لها، ولم يكن أحد من هؤلاء ـ مهما بلغ من الشدة والقوة وارتفاع المعنويات ـ أن يعلن تمرده، ويشكل عصابة خاصة به، في جو قَبَليّ له ظروفه الخاصة.

إذن، فمفهوم "الموالي" في الجاهلية لم يكن يعني الدونية، وإنما يعني المساواة، إذا كان من عرب أحلاف، وليس في الشعر الجاهلي كله إلا "المولى" و"الموالي" بمعنى أبناء العم، ومن انضمَّ إلى القبيلة، فهو "حليف" و"حلفاء"، وهذا هو العرف القبلي بعد ذلك، أما مفهوم الموالي الذي يقصده خليف، وهو الشائع في الكتابات الحديثة، فهو ما صرح به جرير مثلاً:

قـالوا اشـتـروا جَـزَراً مـنـا فقـلت لـهم
بيعوا الموالِيَ واستحْيُوا من العربِ(٢)

إنه نقيض "العرب"، ذلك المفهوم الذي كان في الجاهلية محدود الاستعمال، وكان يعني في الغالب "الأعراب"، ولم يكن أيٌّ من "الموالي" حسب هذا الاستعمال الأخير داخلاً فيهم، قال الفرزدق حسب المفهوم المتداول قبل الإسلام:

ألا يــا طَــيِّئَ الأنــبــاطِ لــســتم
لـمولىً لـلـصـمـيم ولا الـصـمـيم(٣)

وهو أكثر صراحة في قول جرير أيضاً، في نفي نسبة قوم ابن لجأ، التيم، إلى بني سعد:

---

(١) ديوانه، ج١، ص ٨٠.

(٢) ديوانه، ج ١، ص ٤٣٧، الجزر: الإبل والغنم، واحدها: جزرة.

(٣) ديوانه، ج ٢، ٨٣٤. وقارنه بما قال جرير، ديوانه، ج١، ص ٤٦٥. وانظر قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣].

وتـلـقى في الـولاء عـلـيك سـعـداً
ثِـقـالَ الـوطء ضَـالـعـةَ الخُـصـوم
ومـا جـعل الـقـوادِمَ كـالـذُّنـابى
ومـا جـعل المـوالِيَ كـالـصـمـيم(١)

وقال الفرزدق في المعنى ذاته:

هم كَـرِهـوا الـقِـصـاصَ من الـمـوالي
وهم قَـصّوا الصـريحَ مِنَ الـصـريح(٢)

وإذن، كيف ينسجم هذا مع قول خليف:

"يتمرد هؤلاء على الوضع الاجتماعي الذليل المحتقَر الذي فُرض عليهم؛ لأن لديهم من القوة النفسية ما يجعله يرفض قبوله، ومن القوة الجسدية ما يمكِّنه من رفع راية العصيان في وجوه هؤلاء السادة، وقد خرج هؤلاء الأغربة الأقوياء على أوضاع القبيلة، ورفضوا الحياة الذليلة، التي فرضتها عليهم . . . ومن هؤلاء الأغربة تألّفت جماعات من صعاليك العرب"(٣).

(١) ديوانه، ج ٢، ص ٥٨٨ . القوادم: أربع ريشات في مقدَّم الجناح. الذنابي: الذنب.

(٢) ديوانه، ج ١، ص ١٤٨ .

(٣) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ص ١١٠ - ١١١ .

* على أن الجبوري قال في كتابه، الشعر الجاهلي (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٥٩: "الموالي .. بالجوار، أو بالحلف، وهو أن يحتمي بعض الأفراد بقبيلة أخرى غير قبيلتهم، فتتعهد بحمايتهم، أو يحتمي بفرد من أبناء القبيلة، فيكون مولاه، ويعيش في ظل القبيلة" .

وهذا حق فيما يخص الأفراد، أما أن يقول بعد ذلك، ص ٥٩ - ٦٠: "يكون المولى من الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جناياتهم، فيستجير أحدهم بقبيلة أخرى فتجيره، ويكون كأحد أبنائها؛ له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن هؤلاء الخلعاء طائفةُ الصعاليك كالشنفرى وتأبط شراً، وعروة بن الورد وغيرهم" .

فالسؤال هو: ما الفرق بين الأوَّلين والتالين؟ ولماذا يلجأ أحدهم إلى غير قومه؟ وهل كان تأبط شراً وعروة بن الورد في غير قومهما؟ وما علاقة هذا بقوله، ص ٦٢: "وما قولك بقوم يغيرون على=

وكيف يتمرد المولى على الحليف؟ وحسب التنظيم الطبقي لم يكن أي واحد ممن يأتي في تصنيف الدونية بمستطيع الخروج، ولم يتهيأ له شيء مما ذكره خليف، ولو أن هؤلاء خرجوا بهذا الشكل، لطاردوهم، وأعادوهم، أو باعوهم، إن لم يقتلوهم، ما داموا موجودين في جهة ما.

أما وصف السليك بن السلكة، أو تأبط شراً، بأنه أحد أغربة العرب، لسواد لونه، فالسواد ليس غريباً عن العرب، قال الفضل بن العباس اللَّهبي، وهو من علية قريش:

وأنا الأخضرُ مَنْ يعرفُني

أخضر الجِلدة من نَسْلِ العربْ(١)

وخُضر محارب مشهورون، والخُضرة لون العرب، وكانت العرب تعيِّر العرب بالسواد، "الخضرة"؛ كقول الفرزدق:

تَنابلةٌ سودُ الوجوه كأنهم

حميرُ بني غَيْلانَ إذ ثار صِيقُها(٢)

وليس هذا تعبيراً مجازياً فقط، وإنما تعبير عن الحقيقة أيضاً، كما في قول كعب ابن زهير:

يمشون مشي الجِمال الزُّهْرِ يَعْصِمُهم

ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السودُ التنابيلُ(٣)

في إشارة إلى السواد في الأنصار.

= أموال الأغنياء، فيقسمونها بين الفقراء، ويتساوى في طبيعة الكرم هذه السادة والعبيد والخلعاء والصعاليك".

وأخيراً، فإن قوله، ص ٦٠: "ومن الموالي أيضاً العبيد المعتقون ..."، ينطبق على الإسلام، أما في الجاهلية، فالعبد عبد، ولم يكن مفهوم العتق وارداً عندهم!

(١) ياقوت، معجم البلدان، "السواد"، وانظر، الزبيدي، التاج "خضر".

(٢) ديوانه، ج٢، ص ٥٧٣. الصيق: الغبار. يجول في الطرقات.

(٣) ديوان كعب بن زهير (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م)، ص ٢٤. الزهر: البيض. عرد: فرّ.

وقول جرير:

يـا تَـيْمُ نِـسـوَتُـكـم تَـرَكْـنَ جُـلـودَكـم
خُـضْـراً وفِـحْـلَـةَ قَـهْـوَسٍ وَدُهـامِ(١)

وقوله أيضاً:

أجئتَ تَسوقُ السِّيدَ خُضْراً جلودُها
إلى الصِّيد من خَالَيَّ صَخْرٍ وخالدِ(٢)

وعلينا ألا نخلط بين المدح بالبياض ووصف المرأة بأنها بيضاء(٣)، وكان اللون الأبيض في الرجل عند العرب مذمةً واستهجاناً.

وقد أرجع الثعالبي السواد في بعض العرب إلى الأثر البيئي، مثل أثر الحَرّات؛ كحرة بني سليم(٤) الذين منهم "محارب"، والسليك بن السلكة من تميم، وتأبط شراً من فهم، عاشا بين قبيلتيهما، ولم يَفِرّا منها، وكذلك شأن الشنفرى في انضمامه إلى فَهْم.

يقول الثعالبي عن "أغربة العرب":

"أغربة العرب – وذؤبان العرب ـ: سادتها، وهم أربعة سودان، شجعان، فمنهم: عنترة .. وخفاف .. والسليك بن السلكة"(٥).

---

(١) ديوانه ج٢. ص ٥٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٤٧.

(٣) انظر، خليف، الشعراء الصعاليك، ص ١٠٩.

(٤) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ١٥٩–١٦٠. وانظر: أبا عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة البيضان والسودان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج١، ص ص ١٩١–١٩٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٩ ـ ١٦٠. تقول مي، ابنة يوسف خليف، في كتابها: بطولة الشعر الجاهلي، ص ٥٧: "عنترة بن شداد ... مثل صورة للبطل الفارس الذي شق طريقه لتجاوز طبقته، وكان في نفس الاتجاه صورة فردية متميزة تحكي شخصية شاعرها في إطار أحاديث الفروسية والمغامرات وصور العدو والفرار، الأمر الذي انعكست من خلاله مشاهد كاملة كشفتها=

إضافة إلى كثرة أبناء العرب في الجاهلية من الإماء السود، حتى إن عَمراً، ذا الكلب، ينفي أن يكون ابنَ أَمَة، فيقول:

وأُمّي قَـيْـنُـةٌ إن لم تَـرَوْني
بغَرْوَشَ وَسْطَ عَرْعَرِها الطُّوال[1]

ومَن ننسبهم إلى "أغربة العرب" مِن الذين مارسوا الصعلكة هم أفراد معدودون، إذ لدينا عشرات من صعاليك الجاهلية، ليس فيهم أحد من الأغربة، وكانوا جماعاتٍ أيضاً من قبيلة واحدة، كأولئك "الرواطي" الذين ذكرهم عبدة بن الطبيب، من عبدالقيس، في نواحي قطر. وهناك صعاليك هذيل، الذين لم يكن أحد منهم من الأغربة. وكذا لا نجد في العصر الأموي واحداً منهم مذكوراً بأنه من "أغربة العرب" على كثرتهم. وألم يكن خُفاف بن نُدبة شاعراً سيّداً في سُليم، وكان من أغربة العرب؟[2] ولم يكن وصفُه لغزواته إلا نموذجاً من نماذج الصعلكة حسبما نصف، مع أن خفافاً يعدّد خصال العباس بن مرداس الذميمة؛ التي منها:

"مكالبته الصعاليك على الأسلاب".

وما يَقصد بهؤلاء إلا الغزاة كما يقصد الحروب غارةً وتصبيحاً، وسواها[3].

إن الحالة الشهيرة في هذا هو عنترة، ولم يقم عنترة - رغم عزلته - بالصعلكة، بل كان مستسلماً لواقعه، على الرغم من شجاعته وجسارته، وكيف يكون السليك ابن السلكة خارجاً، وهو يعود إلى قومه منتمياً إلى مضر؟ وكم عدد هؤلاء، إزاء ذلك الكم الكبير من أبناء القبائل الصُّرحاء أمّاً وأباً؟ وهل تحققنا من أن دافع هذه

= حياة الصعلوك وفنه ...". وانظر، عبدالله التطاوي، الشعر والفلسفة (القاهرة: دار غريب، ١٩٩٥م)، ص ص ٦٠-٧٠. أشكال الصراع في القصيدة العربية (القاهرة: دار غريب، ١٩٩٥م).

(١) البكري، معجم ما استعجم، "غروش".

(٢) انظر، ديوان النابغة الذبياني، ص ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٨، ص ص ٢٣ - ٢٤.

القِلّة القليلة هو الشعور بالنقص من قِبل اللون أو الأم؟ وألم يكن رَوْح بن زنباع، سيد جُذام أسودَ ضخماً؟(١).

وألم يكن سعيد بن العاص "أسود، نحيفاً، وكان يقال له: عُكَّة العسل"؟(٢)

وألم يكن السواد مما يوصف به أهل اليمن، قال قائلهم:

إذا النَّفَر السُّودُ اليمانون حاولوا

له حَوْكَ بُرْدَيه أجادوا وأَوْسَعوا؟(٣)

وألم يكن الأنصارُ أميلَ إلى سواد البَشَرَة؟

ومن جهة أخرى، فإن خليفاً يقول عن "الصعاليك":

"ومن عناصر قوتهم النفسية: أَنَفَتُهم من القيام بتلك الأعمال التي يصح أن نطلق عليها "الأعمال الفرعية في المجتمع القبلي".

وهي تلك الأعمال التي كان يقوم بها العبيد وأشباههم، ويأنف السادة من القيام بها؛ كخدمة الإبل والقيام بأمرها.

ويصرح تأبط شراً بترفُّعه على هذه الأعمال الفرعية وبأنه يأنف من القيام بها:

ولستُ بِتِرْعِيٍّ طويلٍ عَشاؤه

يُؤَنِّفُها مُسْتَأْنَفَ النَّبْتِ مُبْهِلِ

ويصرح مرة أخرى بأنه يخجل من الوقوف وسط قطعان الغنم، وقد حمل في يده عصا طويلة ...

ولست براعي ثلة قام وسطها ...

فهم لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية التي يقوم عليها المجتمع البدوي كالغزو والإغارة. يقول تأبط شراً:

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٢٤.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: حسن السندوبي (بيروت: دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص٢٩٨. العكة: الزِّقّ الصغير.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٧.

متى تَبْغني ما دمتُ حَيّاً مسلَّماً

تَجِدْني مَعَ المُسْتَرعِل المُتَعَبْهِلِ

فمكانهم الذي يطلبونه لأنفسهم ليس وراء الإبل، أو بين قطعان الغنم، ولكنه في الطليعة المتقدمة بين القادة والأبطال"(١).

إن هنا عبارتين لافتتين للنظر؛ أولاهما: "عناصر قوتهم النفسية".

وثانيتهما: "لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية .. كالغزو والإغارة".

"في الطليعة المتقدمة بين القادة والأبطال".

ولا ينطبق أيٌّ منهما على من يحمل في طياته شعوراً بالنقص، أو هروباً من المجتمع!!!

أيستطيع العبد في الجاهلية أن يفر من وجه مالكيه؟ وإلى أين؟ وحاله في الغزو هي الحال التي نقلها مالك بن حريم الهمداني، وهم في حالة غزو:

ونَخْلَع نعلَ العَبْد من سُوءِ قَوْده

لكَيْما يكون العبدُ للسَّهْل أَضْرَعا

وقد وَعَدوه عُقْبَةً فمشى لها

فما نالها حتى رأى الصُّبحَ أَدْرَعا

وأَوْسَعْنَ عَقْبَيه دماءً فأصبحت

أصابعُ رجليه رواعفَ دُمَّعا(٢)

---

(١) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ص ٣٤ - ٣٥. ترعي: راعٍ. يؤنفها: أي يرعى بالإبل أولَ الكلأ. مستأنف النبت: النبت يُرعى لأول مرة، ويُبدأ به. المبهل: الراعي الذي يترك الإبل ويهملها تسرح في المرعى. المسترعل: الذي ينهض في أول الجماعة المتقدمين. العبهل: المتمنع الذي لا يُمنَح.

(٢) الأصمعي، الأصمعيات، ص ص٦٥ - ٦٦. على أنه في العصر الأموي وجد من العبيد الآبقين من يتخفى عن الأنظار، فيقطع الطريق في عزلته وتنائيه في القفار. انظر، الأصفهاني، الأغاني، ج٢٢، ص٣١١ . أضرع : أدنى وأميل. العُقْبة: النوبة في الركوب. الأدرع: ما فيه بياض وسواد. أوسعن عقبيه: أي ملأت الخيل عَقِبَي العبد دماءً من كثرة السير. رواعف: يتقاطر منها الدم. دُمَّعا: سائله بالدم.

إن من نتائج خليف قوله:

"عروة بن الورد وحاتم الطائي، اللذان يمثلان الفروسية الجاهلية في كلا مظهريها الحسي والمعنوي، واللذان يرسمان في حياتهما وشعرهما صورة قوية للمثالية الرفيعة الكريمة التي يمتاز بها الفارس العربي القديم؛ ففي كثير من قصائدهما نرى هذه الصورة من المقدمات التي تُعَدّ انعكاساً صادقاً لأسلوبهما في الحياة على نحو ما نرى في هذه الأبيات الجميلة التي يخاطب بها حاتم زوجته ماوية التي تلومه على كرمه وإسرافه:

أماويَّ قد طال التجنُّبُ والهجرُ
وقد عذرتني في طلابكم العذرُ

أماويَّ إنَّ المال غادٍ ورائحٌ
ويبقى من المال الأحاديثُ والذِّكرُ

أماويَّ إني لا أقول لسائل
إذا جاء يوماً حل في مالنا نَزرُ

أماويَّ ما يُغني الثراء عن الفتى
إذا حَشْرَجت نفسٌ وضاق بها الصدرُ

أماويَّ إن يُصْبحْ صدايَ بقفرةٍ
من الأرض لا ماءٌ لديَّ ولا خمرُ

ترَيْ إن ما أنفقت لم يكُ ضرَّني
وأن يَدِي مما بخِلْتُ به صِفرُ

فهو هنا يستغل فكرة المصير المحتوم الذي لا مفرّ منه في محاولته إقناع صاحبته بمذهبه في الحياة الذي يعمل له، ومبدئه الذي يؤمن به، وهي فكرة يستغلها أيضاً عروة بن الورد في محاولة إقناع صاحبته بضرورة المغامرة والمخاطرة في الحياة، من أجل اكتساب المحامد والذكرى الطيبة بعد الموت:

أقِلّي عليَّ اللوم يا بنةَ منذرِ

....

فهو يطلب إليها أن تخفِّف من لومها على مخاطرته بحياته، وأن تنام إن شاءت ملْءَ جفنيها؛ فإن وراءها فارساً يعمل على سعادتها..."(١).

وهي نتائج تؤدي إلى: الفروسية، فروسية الغزو، والسطو، والكسب، بشتى الطرق المحمودة عندهم، ومنها أخذ المال (الإبل، والأغنام، والحنطة والشعير..، كلٌّ حسب منطقته) عَنوةً، تسللاً وخُفيةً، وبقطع الطريق أيضاً، كما يتمثل هذا في تائية الشنفرى، في الإغارة على القوافل، ولكن هذه النتائج تعود، فتصطدم بقوله:

"وخلاصة القول: إن إيمان القبيلة بوحدتها أوجد في المجتمع الجاهلي طائفة من الخلعاء والشُّذّاذ، وأن إيمانها بجنسها أوجد فيه طائفة من الأغربة، وأن المتمرّدين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا في عصابات من صعاليك العرب، كافرين بالعصبية القبلية، مؤمنين بعصبية مذهبية، قوامها الغزو والإغارة للسلب والنهب، ومعتمدين على قوتهم في سبيل العيش، شأنهم في ذلك شأن المجتمع الذي يعيشون فيه، وإن يكن عملهم فردياً لم يعترف به"(٢).

بينما واقع السليك مثلاً، أنه:

"خرج السليك في جماعة للغزو"(٣).

وأنه كذلك: "قَدِم فرسان لبكر بن وائل بقصد الإغارة على تميم، وخَشَوا أن

(١) يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي (القاهرة: دار غريب، د-ت)، ص ص ١٦٣ - ١٦٤. وانظر، محمد رشاد خليل في كتابه: ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة (الحضارة) العربية (الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص ص ٥٣٥ - ٥٧٥. وكذلك، ثناء أنس الوجود، دراسات تحليلية في الشعر القديم (القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠م)، ص ص ١٤٠ - ١٤٧. فاطمة حميد السويدي، الاغتراب في الشعر الأموي (القاهرة: مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م).

(٢) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ١١٩.

(٣) ديوان الشنفرى ويليه السليك...، إعداد وتقديم طلال حرب، ص ٧٩، وانظر الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٠، ص٣٥١.

يَعْلَم السليك بهم، فيَنْذُر قومه"(١).

وأنه أيضاً: "خرج يريد الغارة، فلقي سَرْحاً لُمراد، فأطرَدَه، ونذرت به مراد، فخرجوا في طلبه، فسبقهم إلى قومه"(٢).

وأمثال هذه الحالات كثير. وكثير أيضاً من الفرسان هم أبناء سبايا، يقول تأبط شراً:

وكائنْ ترى فينا مِن ابنِ سَبِيَّةٍ
إذا لقي الأبطالَ يطحَنُهم شَزْرا (٣)

يقول خليف: "نلاحظ أن تأبط شراً الفهميَّ ورفاقه من صعاليك فَهْم، ومن شُذّاذ القبائل الذين كانوا بصحبته، كانو مفتونين بالإغارة على هذه المنطقة؛ ففي أخباره أنه خرج في عدة من فهم حتى بيَّتوا العَوْص، وهم حي من بجيلةً، فقتلوا منهم نفراً، وأخذوا إبلهم"(٤).

لقد تحدث خليف حديثاً طويلاً عن أحوال الجزيرة العربية؛ فمما قال:

"بَجبلة: وهي إحدى القبائل التي اشتُهرت بالضعف".

كما قال: "وقد اتجهت أكثر غزوات صعاليك هذه المنطقة إلى ديار بجيلة .. ويبدو أن من أسباب هذا نزول بجيلة في حضرة الطائف، هذا الإقليم الشديد الخصب ومجاورتها فَهْم نتيجة لذلك"(٥).

والطائف خصيب، ولكن ديار فهم خصبة أيضاً، وفي تهامة وعسير من الخيرات ما يوازي الطائف.

أما فيما يخص قبيلة بجيلة، فحقاً تفرقت بجيلة، ولكنها لم تكن بذلك الهون

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٢) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ص ٨٣ - ٨٤ . وانظر، الأصفهاني، الأغاني، ج٢٠، ص٣٤٨.

(٣) ديوانه، ص٢٩٨ . وانظر بقية الأبيات.

(٤) خليف، الشعراء الصعاليك، ص ٨١. وانظر بقية أقواله، ص ص ٨١ - ٨٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٨١ وانظر حديثه عن مكة، ص ص ٨١ - ٨٢.

الذي يتناقله الرواة، فهذا هو الفرزدق يحدثنا عنها، فيقول:

رأيتُ أمور الناس باليمن التقَتْ
إليكم بأيديها عُراها وبابُها
وكنتم لهذا الناس حين أتاهُمُ
رسولُ هدى الآيات ذلّت رقابُها
لكم أنها في الجاهلية دوّخت
لكم من ذُراها كُلُّ قَرْم صِعابُها
أخذتم على الأقوام ثِنْتَيْنِ أنكم
ملوكٌ وأنتم في العديد تُرابُها
وَجَدْتُ لكم عاديّةً فَضَلَت بها
ملوكٌ لكم لا يُستطاع خِطابُها(١)

ويقول في أسد بن عبدالله القسري، وقسر من بجيلة:

وكانت إذا لاقت بَجِيلةُ غارةً
فمنكم مُحاميها ومنكم عَميدُها
وكنتم إذا عالى النساءُ ذيولَها
لِيُسْبَينَ من خوف فمنكم أُسودُها
وما أصبحتْ يوماً بجيلةُ خالدٍ
وإلا لكم أو منكمُ من يقودُها
إذا هي ماست في الدروع وأقبلتْ
إلى البأس مشياً لم تَجِد من يَذودُها
لعمري لئن كانت بجيلةُ أصبحتْ
قد اهتضمت أهلَ الجُدود جدودُها

---

(١) ديوانه، ج ١، ص ٦٢. عراها: مقاليد أمورها. القرم: السيد العظيم.

لـقـد تُـدْلِق الـغـارات يـوم لـقـائـهـا
وقـد كـان ضَـرّابي الجـمـاجـم صِـيـدُهـا
مَـعـاقلُ أيـديـهـا لمن جـاء عـائـذاً
إذا مـا الـتـقـت حُـمـر المـنـايـا وسـودُهـا
وكـانـت إذا لاقت بـجـيـلـة بـالـقَـنـا
وبـالْـهِـنـدِوانـيّـات يَـفْـري حديـدُهـا(١)

وحقاً قال خليف:

" الأزد كانوا ينزلون منطقة خصبة"(٢).

والأزد أهل السراة التي منها بجيلة، وكانت بجيلة جنوب الطائف، وإغارة صعاليك فَهْم على بجيلة هو كما يذكر خليف بدقة، بسبب: "ومجاورتها فهْم" .

إن المقصود بـ "الأزد" في غزوات "صعاليك" فَهْم هم: زهران، وهم من كان يغير عليهم الشنفرى، صاحبه أيضاً. وهذه القبيلة التي ألمح الفرزدق إلى ما يُشاع عنها:

لعـمـري لئن كـانـت بجيـلـةُ أصـبحت
وقـد اهتـضـمـت أهل الجُدود جدودُها(٣)

هي التي كانت تطارد الغزاة القادمين من جنوب مكة وشرقها، وهذا هو الشنفرى يصوِّر التحاماً، وليس جُبناً مع بجيلة حين يقول:

دعـيـنـي وقـولـي بـعـدمـا شـئـتِ أنـنـي
سـيُـغـدى بـنـعـشـي مـرةً فـأغـيَّـبُ
خـرجـنـا ولـم نـعـهـد وقـلّـت وَصـاتُـنـا
ثـمـانـيـة مـا بـعـدهـا مـتـعـتَّـبُ

---

(١) المصدر السابق، ص ص ١٧٧ - ١٧٨. دلق السيف من غمده: أخرجه. ماست في الدروع: ارتدت الدروع. الهندوانيات: السيوف.

(٢) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ٨٣.

(٣) ديوانه، ج١، ص١٧٨. اهتضمت: انتقصت. الجدود: الحظوظ.

سـراحـين فـتـيـان كـأن وجـوهَـهـم
مـصـابـيـحُ أو لـونٌ من الماء مـذهَبُ
تـمـر بـرهـو الماء صـفْحاً وقـد طـوت
ثَـمـائـلـنـا والـزاد ظَنٌّ مُـغَـيّبُ
ثلاثـاً عـلى الأقـدام حـتى سـمـا بـنـا
على العَوص شعشاعٌ مِنَ القوم محْرَبُ
فـثـاروا إلـيـنـا بـالـسـواد فـهَـجْـهَـجـوا
وصـوّت فـيـنـا بـالـصَّـبـاح المُـثَـوِّبُ
فـشن عـلـيـهم هـزةَ الـسـيف ثـابتٌ
وصـمَّم فـيـهم بـالحـسـام المـسـيّبُ
وظَـلْـتُ بـفـتـيـانٍ مـعي أتَّـقـيـهـم
بـهن قـلـيـلاً سـاعـةً ثم خُـيِّـبـوا
وقـد خَـرّ مـنـهـم راجلان وفـارس
كَـمِيٌّ صـرعـنـاه وقَـرْمٌ مُـسَـلّبُ
يـشُنُّ إلـيـه كلَّ رَيْعٍ و(قَـلْـعَـةٍ)
ثـمـانـيـة والـقـومَ رجْل ومـقِـنْبُ
فـلـمـا رآنـا قـومُـنـا قـيل أفْـلَـحـوا
فقلنا اسألوا عن قائل لا يُكَذَّبُ(١)

(١) شعره، ص ص ١١٠ - ١١١. السراحين: الذئاب. الرهو: مستنقع الماء. الثمائل: جمع ثميلة، وهي سقاء الماء. طوت: خلت. ظنّ: قليل. مغيب: مجهول. ثلاث: ثلاث ليالٍ. شعشاع: الطويل الخفيف. محرب: محارب شديد. السواد: الليل الدامس. هجهجوا: صاحوا. المثوّب: الذي ينادي أصحابه ويجمعهم. ظلت: بَقِيت. خيبوا: خسروا. كمي: فارس تام السلاح. يشنّ: يغير. الريع: المرتفع من الأرض، أو طريق في جبل. رجل: رجّالة على أقدامهم. المقنب: الجماعة من الخيل. ورواية "(قلعة)" تصحيف، صوابها: تلعة، أي مرتفع، فليس هناك قِلاع.

وهذه الأبيات الثمينة جداً في دراسة موضوع الصعلكة، ففيها خطاب إلى الزوجة، حتى ليقول خليف نفسه: "يبدأ منذ أن أعلن امرأته أنه خارج.. غير مبال... ثم يصوّر المعركة التي دارت قُبيل الفجر، في ظلام الهزيع الأخير من الليل، وقد تنبّه لهم الحيّ... ودارت المعركة".

ولكن خليفاً لما اصطدم بكلمة "قوم"، قال: "وهنا، وقد انتهى الشاعر من تصوير هذه الغارة الناجحة، لم يعد أمامه هو وأصحابه إلا أن يسرعوا عائدين إلى قومهم سالمين، ليحدثوا قومهم الصعاليك..."(١).

والأمر ليس كذلك، فـ "قوم" هنا واضحة الدلالة على أنها قومه وعشيرته، وهم فهْم، الذين منهم صحبه، خرجوا لا يدرون ما مصيرهم، وعادوا مستبشرين غانمين، ينتظرهم قومه في بشارة وفرح لما يجلبونه من كسب.

شوقي ضيف:

يتفق شوقي ضيف اتفاقاً كلياً مع أطروحة خليف، فهو يقول:

"ويمكن أن نميّز فيهم ثلاث مجموعات: مجموعة من الخلعاء الشُّذّاذ، الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم؛ مثل: حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية، وأبي الطمحان القيني، ومجموعة من أبناء الحبشيات السُّود، ممن نبذهم آباؤهم، ولم يُلحقوهم بهم لعار ولادتهم؛ مثل السليك بن السلكة، وتأبط شراً، والشنفرى، وكانوا يَشركون أمهاتهم في سوادهم، فسُمُّوا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب. ومجموعة ثالثة، لم تكن من الخلعاء، ولا أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها؛ مثل قبيلة هذيل وفَهْم"(٢).

---

(١) خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ص ١٩٠-١٩١.

(٢) ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٧٥. وانظر، الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ٢٩٢ – ٣٠٧. محمد مصطفى هدارة، الأدب العربي في العصر الجاهلي (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م)، ص ص ١٤٧-١٦٥.

وهذا فهم ينبغي النظرُ فيه، فعروة لم يتصعلك بمفرده قط، وإنما كان مع مجموعة دائماً، والسليك وتأبط شراً لم ينبذْهما أبواهما، لعار ولادتهم أبداً، والشنفرى كذلك، طردته قبيلته؛ لأنه جَرّ جرائرَ عليها، وإذا كانت "قبيلة برمتها مثل قبيلة هذيل وفهم" تحترف الصعلكة، فكيف تكون حالةً خاصة؟

تقول أم تأبط شراً ترثيه:

فتى فَهْمٌ جميعاً غادروه

مقيماً بالحُرَيضة من نُمارِ(١)

وعبارة: "فتى فهم جميعاً" تعني بطلها الشجاع، وقائدها الذي تبكي فقدانَه، كما تبكي أية قبيلة فارسَها، ورافعَ لوائها؟

يقول شوقي ضيف:

"ويمتازون بالشجاعة والصبر عند اليأس، وشدة المراس، والمضاء، وسرعة العَدْو... وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها، ويقال: إنه كان للسليك فرس يُسمى النَّحّام، وللشنفرى فرس يسمى اليَحموم، أما اسم فرس عروة بن الورد فقَرْمَل، وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً في جماعات"(٢).

فكأن بين القولين ـ القول السابق وهذا القول ـ ثمة تضارب.

إلا أن شوقي يقول:

"وتتردد في أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء"(٣).

فأية صيحات هذه؟ أهي صيحات الأفراد، أو صيحات القبيلة ؟ وهل اقتصرت

---

(١) الزبيدي، التاج، "نمر". نمار: جبل لهذيل.

(٢) ضيف، العصر الجاهلي، ص ٣٧٥ – ٣٧٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧٥.

الشكوى مِنَ الفقر على هؤلاء فقط؟ ومن هؤلاء "الأغنياء الأشحاء"؟.

ويقول شوقي ضيف:

"أما تأبط شراً، فمن قبيلة فهم ... ويُعَدّ في أغربة العرب؛ إذ كان ابنَ أمة حبشية سوداء، فورث عنها سوادها، وقيل: بل أمه حرة من فهم"(١).

ويستشهد بقوله:

لكنما عولي إذ كنتُ ذا عِولٍ
على بصير بكسب الحمد سبّاقِ
سبّاقِ غاياتِ مجدٍ في عشيرته
مرجِّع الصوت هدّاً بين أرفاقِ
عاري الظَّنابيب ممتدّ نواشره
مِدلاج أدهم واهي الماء غَسّاقِ
حمّالِ ألويةٍ شَهّادِ أنديةٍ
قوالِ مُحكَمة جوّابِ آفاقِ
فذاك هَمّي وغزوي أستغيثُ به
إذا استغثت بضافي الرأس نعّاقِ

ثم يعلّق عليه:

"ويمضي، فيرسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذي يقدِّره ويجلُّه"(٢).

فإذا كانت هذه "صورة الصعلوك من أمثاله الذي يقدره ويجله"، فقد صارت

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨٠. العول: العويل، وهو رفع الصوت بالبكاء والاستغاثة. مرجِّع الصوت: يصيح آمراً ناهياً. هدّاً: رافعاً صوته. الأرفاق: الرفاق. الظنابيب: جمع ظنبوب، وهو حرف عظم الساق، جعلها عارية لهزالها. النواشر: عروق ظاهر الذراع. مدلاج: كثير سفر الليالي الطويلة. الأدهم: الليل. واهي الماء: مطر شديد، سحابه لا يمسك الماء. الغساق: الشديد الظلمة. المحكمة: الكلمة الفاصلة. جواب: صاحب أسفار وغزو. غزوي: مقصدي. ضافي الرأس: كثير شعر الرأس. نعاق: يرفع صوته عالياً.

لـديـنـا صورة لا تـخـتـلـف عن أية صورة عـرفـنـاها عن أولـئك الأسـيـاد، الأبـطال، الشجعان، الغزاة، من أحرار القبيلة وأعلاها طبقةً، إن كانت ثمة طبقية في القبيلة البدوية، وبين الأعراب عموماً، وسبق أن أورد شوقي ضيف قول تأبط شراً:

يـظل بمَـوماةٍ ويُـمـسي بـغـيـرها
جـحـيـشـاً ويـعـرَوْرَى ظـهـور المـهـالكِ
ويـسبق وفدَ الـريح من حيث يـنتحي
بمـنـخـرق من شـده المـتـداركِ
إذا خاط عـيـنـيـه كَرى الـنـومِ لم يـزل
لـه كـالئٌ من قـبل شـيـحـان فـاتكِ
ويـجـعل عـيـنـيه ربـيـئـةَ قـلـبه
إلى سَـلَّـة من حَـدّ أخـضـر بـاتكِ
إذا هـزه في عـظـم قِـرن تـهـلَّـلت
نـواجـذُ أفـواه المـنـايـا الـضـواحكِ
يرى الـوحـشـةَ الأنسَ الأنـيس ويـهتدي
بـحيث اهـتـدت أمُّ الـنـجوم الـشـوابكِ

وقد علق عليه: "وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم؛ إذ كانوا يتّخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم، وهو عيْش مَشُوب بالضنك والشظف، وهذا الصراع الذي يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومَنْ يترصدهم مِنَ الأعداء، وصوَّر ذلك تصويراً طريفاً تأبط شراً"(١).

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٨ – ٨٨. يقناعها: برقعها. ولا سقوطاً قناعها: لا يسقط برقعها لشدة حيائها. الغبوق: ما يشرب بالعشيّ. النسي: الشيء المفقود. تقصه: تتبعه. أمها: قصدها الذي تريده. تبلت: تنقطع في كلامها، فلا تطيله. يخزي: يستحيي. النثا: الحديث والخبر. حليلها: زوجها. آب: رجع. قرةَ عينه: مسروراً، مطمئناً لها. لم يسل أين ظلت: أي على ثقة أنها لا تبرح بيتها. ظل: هنا يغد. الموماة: الفلاة. جحيشاً: منفرداً. يعروري: يركب. وفد=

يقول ضيف:

"الشنفرى يقول في زوجته أميمة:

لـقـد أعـجـبـتـني لا سَقـوطاً قِـنـاعُـها
إذا مـا مــشت ولا بــذات تــلــفُّتِ
تـبـيتُ بُـعـيـدَ الـنـوم تـهـدي غَـبـوقَـها
لجـارتــهــا إذا الــهــديــة قــلَّتِ
تحل بمــنــجــاةٍ من الـلـوم بـيـتُـهـا
إذا مــا بــيــوتٌ بــالمــذمــةِ حــلـتِ
كـأن لـهـا في الأرض نَـسـيـاً تـقـصُّه
عـلى أمِّـهـا وإن تُـكـلِّـمْكَ تَـبْـلَتِ
أمـيـمـةُ لا يُـخـزي نَـثاهـا حَـلـيـلَـهـا
إذا ذُكِـرَ الـنــســوان عــفَّت وجـلَّتِ
إذا هــو أمــســى آبَ قــرةَ عــيــنــه
مآبَ الـسـعـيـد لم يَسَلْ أين ظلَّتِ(١)

وهـذه الصـورة صـورة لامـرأة مثـاليـة، لامـرأة من حـرائـر العـرب، وكريمـاتـهـن. فهل كـان العـرب يزوّجـون مَنْ كـان "من أبنـاء الحبشيـات الـسود، ممـن نبـذهـم آباؤهم ولـم يلـحقـوهـم بـهـم لعـار ولادتـهم؛ مثـل ... الشـنفـرى، وكـانوا يَشـركـون أمـهـاتـهـم في

= الريح: أولها. ينتحي: يقصد. منخرق: العدو السريع. الشد: العدو. المتدارك: المتلاحق. خاط عينه الكرى: نام. الكالئ: الرقيب. الشيحان: الجاد في الأمر. الربيئة: الرقيب. السلة: الواحدة من سلّ السيف. الأخضر: السيف. الباتك: القاطع. القرن: الكفء والنظير. تهللت: تلألأت وأشرقت. أم النجوم: الشمس. الشوابك: المتشابكة.

(١) المرجع السابق، ص ٧٤. نقل شوقي ضيف عن لايل، ص ٣٨٢: "البقر المستأنسة ... اتخذ منه دليلاً على أصل الشنفرى، وأنه يمني حقاً؛ لأن البقر المستأنس ... لم يُعرف عن العرب قديماً إلا في بلاد اليمن". ويقصد لايل اليمن بحدودها الحالية، فالبقر المستأنَس عماد الثروة الحيوانية في سَراة الحجاز وتهامتها منذ القدم، والشنفرى من هذه النواحي، وليس من بلاد اليمن.

سوادهم، فسُمُّوا هم وأضرابُهم باسم أغربة العرب" ؟

يقول شوقي ضيف عن عروة بن الورد:

"وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين: عروة بن الورد العبسي، وكان أبوه من شجعان قبيلته وأشرافهم . . . أما أمُّه، فكانت من نَهْد من قُضاعة، وهي عشيرة وضيعة، لم تُعرف بشرف ولا خطر، فآذى ذلك نفسَه؛ إذ أحس في أعماقه من قِبَلها بعار لا يمحى. . . لُقِّب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضاقت بهم الدنيا" .

يقول:

ومـا بِيَ عـارٌ إخـال عـلـمـتُه

سـوى أن أخـوالي إذا نُـسِـبُـوا نـهـدُ

فهي عارُه الذي حَلَّت البلية عليه منه، والذي دفعه إلى الثورة على الأغنياء، وهي ثورة كانت مهذَّبة؛ إذ لم يتحول إلى سافك دماء، ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء، فقبيلته لم تخلعْه، بل ظل ينزل فيها مرموقَ الجانب .. إذ اتخذ من صعلكته باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها، ومن أجل ذلك لُقِّب عروة الصعاليك"(١).

والذي يبدو أن هذا هجاءٌ لنهد، وليس شعوراً بالنقص فيه، فالعربي يرتبط بآبائه، وكثيراً ما تخلَّى عن أخواله. وإذا كان هذا شعوراً بالعار؛ لأن أخواله طبقة اجتماعية دنيا، فما علاقة هذه الدونية بـ "الذي دفعه إلى الثورة على الأغنياء" ؟ ولماذ لم يَثُر على التفرقة الطبقية، فينادي بالمساواة، لا في المال، بل في المجتمع، ولاسيما أن الصعاليك الذين يثور من أجلهم هم من فقراء عشيرته؟

أما عروة، فهو القائل:

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٢-٣٨٣ . وانظر، محمد مصطفى هدارة، الشعر العربي في العصر الجاهلي (الإسكندرية: الدار الأندلسية، ١٩٨٧م)، ص ص ١٧١ – ١٨٤ .

أعـيَّـرتُـمـوني أنَّ أمِّي (تـريـعـةٌ)
وهل يُنْجِبْنَ في القوم غيرُ (التَّرائعِ)
ومـا طـالبُ الأوتـارِ إلا ابنُ حُـرَّةٍ
طويلُ نجادِ السيفِ عاري الأشاجعِ(١)

وهنا أمه ليست وضيعة، يستخذي منها، وإنما "حرة" يعتز بها، وهل يستقيم هذا الفخر بأمه "النزيعة"؛ أي: المسرعة إلى الشر، وليس لأي سبب آخر، بما جاء في قوله الذي منه ذلك البيت:

إذا مـا أَرَدْتُ المجـدَ قَـصَّـر مـجـدُهم
فـأعـيـا عـليَّ أن يـقـاربَـني المجـدُ
فـيـا لـيـتـهم لم يـضـربـوا فِيَّ ضَـرْبـةً
وأنِّي عَـبْـدٌ فـيـهـم وأبي عـبـدُ
ثـعـالـبُ في الحـرب الـعَوان فـإن تَـبُخْ
وتَـنْـفَـرِجِ الجُـلّى فـإنـهمُ الأُسْـدُ(٢)

وسواء أصحَّت هذه الأبيات له أم لم تصحّ، فإن السؤال: لمَ هذا الهجاء المزري، وليس بين نهد والقبائل المجاورة لعبس أو عبس أيُّ اتصال مباشر، أو حتى غير مباشر، فديار نهد بعيدة جداً عن جنوب غرب القصيم، في نواحي تثليث ـ نجران. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: كيف جاءت هذه الخؤولة في نهد وأم عروة ليست سبيةً؟ وألا يعني قولُه: " ثعالب في الحرب ... "أنه على مقربة من ديار

(١) ديوانه، ص ٦٧ . النجاد: ما وقع على العاتق من حمائل السيف. الأشاجع: مفاصل الأصابع، ورؤوس الأصابع المتصلة بظاهر الكفّ.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦. العوان: الشديدة. تبخ: تنطفئ. وانظر، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م)، ج٤، ص ص٤١٠ ـ ٤١٣ ـ ٥٦٣ ـ ٥٦٥ ـ ٥٥٣. وانظر عن أولاد الإماء الفرسان، عبدالكريم النهشلي، الممتع في صنعة الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام (القاهرة: دار غريب، ١٩٨٠م)، ص ص ٢٤٤-٢٤٧ .

نهد، يستنصرهم، فلا ينصرونه، أو أنه يراهم، تفترسهم القبائل، فلا ينتصرون لأنفسهم؟ وألا يتناقض اعتزازه بأمه - أي: بأخواله -: " طويل نِجَادِ السيف .. " مع هذا الذم الشديد لنهد؟ ولعل القراءة التي تلائم هذا الذم هي:

أعيَّرتُموني أنَّ أمي نزيعَةٌ

وهل ينجبن في القومِ غيرَ النَّزائعِ

أي: إن أمه غريبة، ليست من قومه، وهذا أمر مألوف، في النيل من الخصوم، إلا أنه، مع ذلك، لا يستشعر المذلة والهوان من ناحيتها، بل يؤكد أنها "حرة"، وأنه ورث خصالاً حميدةً منها.

ولابد لنا أخيراً - حسب قول شوقي ضيف - من التوفيق بين من: "يتحول إلى سافك دماء و... متشرد يرُودُ مجاهلَ الصحراء، فقبيلته ... تخلعه".

ومن: "ظل ينزل فيها مرموقَ الجانب .. اتخذ من صعلكته باباً من أبواب المروءة والتعاون ..".

وعلينا أن ننظر مرة أخرى في قول عروة الذي مر بنا:

رحلْنا مِنَ الأجبالِ أجبالِ طيِّئٍ

نسوقُ النساءَ عُوذَها وعِشارَها

كما علينا أن نتأمل في قول شوقي ضيف:

"الخلعاء الصعاليك، وكانوا يمشون على وجوههم في الصحراء، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتَهم ودأبهم، على نحو ما نعرف عن تأبط شراً، والسليك ابن السلكة، والشنفرى. على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضلٍ فيه؛ مثل عروة بن الورد، وكان كريماً فياضاً ... كان يجمع إلى خيمته فقراءَ قبيلته عبس ومعوزوها ومرْضاها..." (١).

---

(١) العصر الجاهلي، ص٦٧.

حفني:

توسّع حفني توسعاً في موضوع الصعاليك، فشمل ما استبعده خليف، وضمّ صخر الغيّ، الشاعرَ الأموي إلى أولئك(١).

سعد ضناوي:

يقول ضناوي:

"ولنا أن نميز التصعلك والصعلكة، فهذه صفة لازمة دائمة في الفرد، تطبعه بصفات وأخلاق خاصة، ولها أسبابها الاجتماعية والسياسية والنفسية. أما التصعلك، فهو عمل الصعلكة من هاو محترف، ولفترة محدودة، فإذا ما أصاب غِنًى، عاد سيرتَه الأولى إنساناً محترماً، سيداً في قومه، كريماً مع الآخرين"(٢).

وهذان مصطلحان جديدان، نجد في ثانيهما تأكيداً على مفهوم الصعلكة.

إحسان سركيس:

يورد إحسان سركيس، ما قال عنه:

"ولا تشير أخبار الجاهلية إلى أهمية هذه الفئات من الناس، وأثرها وتكوينها الاجتماعي، ولكنَّ خبراً أورده ابن سعد يعطينا صورة منسجمةً على الماضي، ويشير فيه إلى أنه عندما ظهر الإسلام، وقوِيَ أمره، وَفَد على النبي جماعة كانت في جبل تهامة، وقد غصبت المارة، وكان فيها من كنانة ومُزينة والحكم والقارة ومن اتَّبعهم من العبيد".

ثم يعلق عليه:

"إنهم كانوا من الخارجين على التقاليد والأعراف، ومن الرقيق الآبق، تجمَّعوا في

(١) حفني، شعر الصعاليك، ص ص ١٢٠-١٢٥ وانظر، ص ص ٢٨٢-٢٩٠. وانظر، مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي (بيروت: دار الأندلس، طبعة أولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص ص ٢٩٥-٣٠٢. عبدالرزاق الخشروم، الغربة في الشعر الجاهلي، (دمشق: دار الأندلس للطباعة، ١٩٨٢م)، ص ص ١٠-٢٩، ١٦٤.

(٢) سعد ضناوي، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي (بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٣م)، ص ٦٣.

هذا المكان المرتفع"(١).

ونص هذا الخبر هو: "كتب رسول الله ﷺ لجُمّاع كانوا في جبل تهامة، وقد غصبوا المارة، من كنانة، ومُزينة، والحكم، والقارة، ومن اتبعهم من العبيد، فلما ظهر رسول الله ﷺ، وفَدَ منهم وفْدٌ على النبيﷺ، فكتب لهم رسول الله ﷺ: "بسم الله، هذا كتاب من محمد، النبي ورسول الله لعباد الله العتقاء، إنهم، إن آمنوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فعبدهم حرٌّ، ومولاهم محمد، ومَنْ كان منهم من قبيلة، لم يُرَدَّ إليها، وما كان فيهم من دم أصابوه، أو مال أخذوه، فهو لهم، وما كان لهم من ديْن في الناس، رُدَّ إليهم، ولا ظُلم عليه، ولا عدوان، وإنَّ لهم على ذلك ذمةَ الله وذمةَ محمد، والسلام عليكم"(٢).

وابتداءً، فالخبر لا يتفق مع تعريف الصعاليك، الشائع بين الدارسين، والذي يأخذ به سركيس؛ فهؤلاء في منطقة متحصِّنة في الجبال، ونص الخبر على أنه "جبل تهامة"، والمقصود الجبال المطلة على تهامة جيزان. وفي ذلك إشارة إلى جبل، وتحديداً ناحية "بِرْك" بجيزان. ثم إن هؤلاء لهم: "من اتبعهم من العبيد".

فالعبيد عبيد عند أسيادهم أولئك، ما زالوا مسترَقِّين، وهم "جُمَّاعٌ كانوا... من كنانة، ومزينة، والحكم، والقارة"؛ فهم ليسوا تائهين، مشرَّدين، وإنما متجمعون. وإذا دققنا في الخبر، وجدناه يقول: "لما ظهر رسول الله ﷺ، وَفَد منهم وَفْدٌ على النبي ﷺ". وهذا يعني أن وفادتهم كانت في عام الوفود، بعد فتح مكة، وفي حدود السنة التاسعة للهجرة. وإذا دققنا أكثر في هذه المجموعات، وجدناها: "من كنانة، ومزينة، والحكم، القارة".

(١) إحسان سركيس، مدخل إلى الأدب الجاهلي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩م)، ص ص ١٩٣ - ١٩٤. وانظر، ابن منظور، اللسان، "جمع".

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، ج١، ص ٢٨٧ وانظر ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٩٠ وقارنه بـ: علي بن حسين بن علي الأحمدي، مكاتبات الرسول (بيروت: دار المهاجر، د-ت)، ص ٤٢٤.

فما الذي دفع بـ "مزينة"، والحكم والقارة: من كنانة إلى ذلك الجبل النائي في تهامة، ولا سيما "مزينة"؟ إن هذا التجمع الغريب، والمريب في آنٍ ـ ولا علاقة له بالتشكيل النمطي للصعاليك، كما هو متصورٌ ـ يعني: أن مجموعتين، منها: "مزينة" و"كنانة"، كانت تسكن المدينة، وغرب المدينة حتى الجُحفة، وأن "الحكم" والقارة، من هذيل، كانت تسكن جهات عسفان، وأنها هربت لَمّا أقبل الإسلام، وانتشر في هذه الجهات، واحتمت بذلك الجبل النائي البعيد، بأهلها، وأموالها، وعبيدها، فلما قويَ الإسلام، لم يكن بد من التسليم بالأمر الواقع، وتقبُّل الإسلام، فهم هربوا بعيداً عن هذه الجهات.

كمال أبو ديب:

يقول أبو أديب: "يبدو بجلاء أن ما يميز شعر الصعاليك أمران:

١- انتماء الصعاليك إلى طبقات أو فئات اجتماعية هامشية، محرومة، أو ملعونة، أو ساقطة اجتماعياً أو اقتصادياً، وتسمح هذا الحقيقة بتصور العلاقة بين القبيلة والضعاليك في إطار مفهومي الداخل / الخارج.

٢- كون شعراء الصعلكة، للمرة الأولى في تاريخ الشعر العربي يلغي الوحدة الاجتماعية الاقتصادية السياسية التي تشكل ضمنها الرؤية المركزية، أي القبيلة، ويطور نظاماً من القيم والفاعليات، ومعالجة شعرية جديدة تتشكل من إطار فئة أو طبقة اجتماعية محددة"(١).

(١) كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م)، ص ٥٧٥.
وانظر: التطاوي، أشكال الصراع في القصيدة العربية، ج١، ص ١٧٨ - ١٩٤.
أحمد موسى الجاسم، دراسات في الشعر الجاهلي (السعودية: أضواء البيان للنشر والتوزيع، الطبعة أولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩١م)، ص ١٥٥-١٩٥.
احمد الخليل، ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي (دمشق: طلاس، طبعة أولى، ١٩٨٩م)، ص ٢٦٤-٣١٦.
علي سليمان، الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع (دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠م)، ص ٢٣٩-٢٧٠.
علي العتوم، قضايا الشعر الجاهلي (الأردن: مكتبة الرسالة الحديثة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م)، ص ٣٧٢-٣٧٧. =

حسين عطوان

العصر العباسي:

يحدّد عطوان موقفه من العصر العباسي فيما يأتي(١):

"إن المجتمع العباسي كانت تتوزعه طبقتان: طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء، دون أن تتوسط بينهما طبقة ثالثة تكون متقلبةً بين الشدة والرخاء، أو بين البؤس والنعيم"(٢).

وهؤلاء الفقراء في نظره هم:

"الفلاحون والعمال والأعراب الذين ظلوا يعيشون في البوادي".

الذين كما قال:

"تؤلف الغالبية العظمى من الأمة"(٣).

ويستشهد بما أورده الأصمعي على لسان أحد الأعراب:

= ولأمرٍ ما توقف العتوم عن مساءلة هذه القضية، مع أنه كان واعياً جداً بها في كتابه، مثلما تجلى هذا في موقفه من أخلاق العرب، انظر، ص ٣٤٣.

غازي طليمات وعرفان الأشقر، الشعر في العصر الأموي (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨م).

وانظر عدم وضوح الرؤية عند الشكعة نتيجة لمحاصرته من قِبَل التأليف السابق عليه، فهو يقول: "كان العصر الأموي حافلاً بكثير من الشعراء اللصوص... ونحن نفضّل أن نطلق عليهم لقب الشعراء اللصوص لأن الصعلكة ارتبطت عند الجاهليين ببعض القيم الطيبة التي لم تتوفّر عند واحد من هؤلاء الشعراء الأمويين". مصطفى الشكعة، رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية (بيروت: دار الكتب، ١٩٧٩م)، ص ٢٧٧. وانظر: ص ص ٢٥٦، ٢٦٠، ٣١٥، ٣٣٤.

وانظر: سعد بن عبدالرحمن العريفي، ظاهرة الخوف في أشعار اللصوص من العصر الجاهلي حتى آخر العصر الأموي، رسالة، جامعة الملك سعود، قسم اللغة العربية (١٤٢١هـ). وفيها من الخلط واللامنهجية ما لا يتفق مع طبيعة البحث العلمي، إلا أنها نموذج لسيطرة ما بثّه خليف وعطوان من أفكار.

(١) الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول (بيروت: دارا لجيل، طبعة أولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ص ٢٣-٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧.

(٣) المرجع نفسه.

أتـرزُقُ أبـنـاءَ الـعُـلـوج وقـد عَـصَـوا
وتـتـرك قِـرْمـاً مِنْ قُـروم تـمـيـم[1]

غير أن هذا الشاهد يعني أن "العلوج" : غير العرب - وكانوا غالبية المجتمع العباسي - لهم رزق، والمحروم أحد بني تميم، وليس كلٌّ تميم.

أما هؤلاء الصعاليك، فيذكر أن من أعمالهم:

"قطعوا الطريق، وانتهكوا المحارم، وتركوا الصلاة"[2].

ومنها أيضاً:

"آذَوُا الناس أذًى شديداً، وأظهروا الفِسق وقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنساء علانيةً من الطرق"[3].

ومنها كذلك:

"عاثوا .. وأخذوا الغَلاَّت .. وأخافوا السبيل"[4].

ومع ذلك، فهو يدافع عنهم بقوله:

"كانو يحققون وجودهم، ويسبُون أقواتهم برماحهم وسيوفهم؛ لأن الدولة أهملتهم وظلمتهم، ولم توفر لهم شيئاً من وسائل الحياة، ولا أجرت عليهم بعض الأرزاق"[5].

ونجد البون شاسعاً بين صعاليك الجاهلية وهؤلاء في قوله:

"الصعاليك العباسيون .. لم يألفوا حياة التشرُّد والمخاطرة، وإنما عاشوا في المدْن مع أزواجهم وأولادهم يسعَوْن لكي يوفروا بلغ العيش لهم، ويحرصون على أن يظلوا بقربهم خوفاً عليهم من الضياع، مما جعلهم لا يميلون إلى المغامرة، ولا إلى

(١) المرجع السابق، ص ٣٣، وانظر، ص ٣٤. العلوج: الرجال الأشداء الغلظاء. القرم: السيد الكريم.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٨.

الإغارة، حفاظاً على حياتهم، وضمانِ أسباب المعيشة لأولادهم، ومما جعلهم يعتمدون على وسائلَ أخرى للحصول على أرزاقهم"(١).

ويواصل قوله:

"كان الصعاليك العباسيون جميعاً من الفقراء المحارفين، في حين كان الصعاليك الجاهليون والأمويون طوائف؛ فمنهم الفقراء، ومنهم الخلعاء، ومنهم الأغربة السود"(٢).

كما يضيف:

"كان الصعاليك الجاهليون والأمويون يصطنعون الغزو والإغارة على القبائل والقوافل والأسواق جهراً، مستعينين بأفراسهم، ومستخدمين أسلحتَهم، وناهبين الناسَ بالقوة والعنف"(٣).

وما كان الجهر إلا حالةً من حالاتهم؛ إذ إن التسلل والتخفِّي كان القاعدة، إلا أنه يقول:

"ولكن الصعاليك الأمويين لا يختلفون عن الصعاليك الجاهليين في ظاهرة مهمة، وهي أنهم جميعاً عاشوا مشرَّدين منبوذين مطاردين، مستقرين في مجاهل الأرض، وفلوات الصحراء، وساعين إلى الانتصاف لأنفسهم، ورفع الظلم عنهم، واستخلاص أقواتهم بالإغارة والغزو، وباستخدام السلاح من سيوف ورماح في غارتهم وغزواتهم"(٤).

وحسين عطوان الذي وصف الصعاليك كل هذا الوصف، يقول عن جعفر بن علبة الحارثي، الصعلوك:

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، ص٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه، ص ٦٣ وانظر، ص ٦٢.

"ومن تلك المشابهة التي تجعله أقرب إلى الصعاليك والخلعاء والشُّذّاذ، الذين كانت قبائلهم تخلعهم وتتخلى عنهم لفساد سيرتهم وانحراف سلوكهم؛ إما لشرب الخمر، وإما للتعدي على الناس"(١).

ولم تكن الخمرة في الجاهلية مثلبة أبداً، ولم يكن التعدي على الناس جريرة، فهذه طبيعة الحياة العربية، حينما لم يكن هناك دولة ونظام، والتعدي الذي يُعدُّ جريمةً هو التعدي على النظام القَبَلي داخل القبيلة نفسها، أو حلفائها.

أما موقفه من صعاليك الجاهلية، فيتمثل في قوله:

"كان للتقاليد القبليَّة التي احتكم إليها العرب في حياتهم، ولتوزيع الثروة توزيعاً غيرَ عادل بين قبائلهم أثرٌ واضح في نشأة ثلاث طبقات من الصعاليك في الجاهلية:

أما الطبقة الأولى: فطبقة الشُّذّاذ والخلعاء، الذين تخلت قبائلهم عنهم، وتبرأت منهم، إما لما جرُّوه من الجرائر عليها، وإما لفساد سلوكهم فيها، ومن أشهرهم حاجز الأزدي، وقيس ابن الحدادية، وأبو الطمحان القيني.

وأما الطبقة الثانية: فطبقة الأغربة السود، الذين سرى السواد إليهم من أمهاتهم الحبشيات، والذين لم تكن قبائلهم تسوِّي بينهم وبين أبنائها الأُصَلاء ممن ورثوا عروبة الأصل، ونقاء الدم في الآباء والأمهات، ومِنْ أذْكَرِهم السليك ابن السلكة، وتأبط شراً، والشنفرى.

وأما الطبقة الثالثة: فطبقة الفقراء الذين كانوا يحيَوْن حياةً شاقة قاسية لم يجدوا معها ما يعينهم على أعباء العيش، بل على كسب أرزاقهم، وإقامة أرماقهم. ومن أخطرهم عروة بن الورد العبسي، وصعاليك قبيلتَيْ هذيل التي كانت تقيم بالقرب من مكة، وفَهْم التي كانت تسكن بالقرب من الطائف. وقد جمع الفقر والتشرد والتمرد بين صعاليك هذه الطبقات الثلاث، وعاشوا في القفار

(١) المرجع السابق، ص ٧١ وانظر تفسيره لشعره، ص ص ٧١ - ٧٢.

ومجاهل الأرض، مؤمنين بأن الحق للقوة، وأنه لا سبيل إلى المحافظة على حياتهم، وتحصيل أقواتهم، وتحقيق وجودهم إلا بالغزو والإغارة للسلب والنهب، ومن أجل ذلك كانوا يغيرون على المناطق الخصبة، وعلى القوافل والقبائل والأسواق، ويسلُبون منها ما يسلبون، ثم يعودون إلى معاقلهم الحصينة في الصحراء" .

ولا صحراء كانت تحمي هذيلاً وفهماً، وإنما جبال وشِعاب ووديان. أما خروج أبي الندى في نحو ألف رجل، وأخذهم قطع الطريق، بإخافة السبل، والعيث في الأرض في غاية الفساد، وترويع الناس وإفزاعهم، وتقتيلهم ونهبهم أيما قتل ونهب(١)، فليست هذه صعلكةً، وإنما خروج وفوضى!

بل إن عطوان ليس مصيباً حتى في الحديث عن بكر بن النطّاح(٢)، في العصر العباسي. ومثله قرقور، الذي قال عنه ابن المعتز :

"كان قرقور ... صعلوكاً، يقطع الطريق حوالي عمل أبي دلف، وكان شجاعاً، بطلاً، لا يقاومه أحد"(٣).

كما يمكن أن ننظر فيما قاله ياقوت:

"رصافه الشام: ...سكان هذا الحصن بادية ... والصعاليك واللصوص"(٤).

وهناك من أمثال هؤلاء عمّار الكلبي، ابن البولانيّة، الذي يقول:

لِصٌّ تعدّى حدودَ الله واشتهرت
أعمالُه وسعى سَعْيَ الفراعينِ
لا يبتغي رزقَه إلا مُناهبةً
يوماً فقيراً ويوماً مثلَ قارونِ

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٣) عبدالله بن المعتز، طبقات الشعراء ، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: دار المعارف، ١٣٧٥هـ/ ١٩٦٥م)، ص ١٧٦ .

(٤) ياقوت، معجم البلدان، "رصافة الشام" .

وتـــابعٌ غـيـــرَ مـتـبـــوعٍ حلائـــله
يُـزجـين أقـعـدةً حُـدْبـاً حـراسـينِ
يُـطـعـمن أصْـبِـيـة مِنْ تحت أَخْبِـيَـةٍ
وخَـيَّـمـوا حـولـهـا مثلَ الـظَّـرابين(١)

أما فيما يخص جعفر بن علّبة، والعُجَير السلولي(٢)، فكلاهما كان بين قومهما، أسلمت الأولَ قبيلتُه للدولة والنظام، ولم تطرُدْه، بل بكاه أهلُه وقوُمه.

(١) الهجري، التعليقات والنوادر، ج ٣، ص ١٦١١. وانظر، ياقوت، معجم البلدان، "كفر نجد".
أقعدة: جمع قعود. حراسين: جمع حرسون، وهو الهزيل. الظرابين: جمع ظَرِب، وهو دون الضب، وفوق الوَزَغ.

(٢) انظر، الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص ص ٥٥، ٦٢ - ٦٤.

الفصل الثاني
التوجيه الخاص

التفسير الحديث للصعلكة:

الشحادة:

"ظاهرة الخوف في شعر تأبط شراً"(١).

درس الشحادة ظاهرة الخوف، فأتى فيه بما ينقض فكرته تماماً، فكل شواهده ضد الخوف، وإثبات للشجاعة والبسالة، ويستحيل عملياً أن يكون من يقول هذا الشعر رجل يستشعر "الخوف".

أما من يقوم بعملية الصعلكة، فهو رجل أصبحت الحياة والموت لديه متساويتين، وهذا هو الوضع في كل شعر جاهلي، يقوم به رئيس شجاع، وهل رجل يُسقط نفسه على الذئب، كما يقول: يعرف "الخوف" قط، كما هو قول تأبط شراً:

ووادٍ كجوفِ العَيْرِ قَفْرٍ قطعتُه
به الذئبُ يعوي كالخليع المعيَّلِ

أما أن يفرَّ المرء من مواجهة الموت، في لحظة الحسم الأخيرة، حباً في الحياة، بعد أن كاد أعداؤه يُطْبقون عليه، سواء أكان تأبط شراً، أم سواه، فإن هذه طبيعة بشرية، وإحساس إنساني عام، يعرفه القادة العسكريون. وتفسير هذا بالخوف مناقض لتلك المواجهة الدموية المستميتة، وهذا هو مضمون قول تأبط شراً:

وحثحثتُ مشعوفَ النَّجاءِ كأنني
هجف رأى قصراً شمالاً وداجنا
مِنَ الحُصِّ هُزروف كأن عفاءه
إذا استدرج الفيفا ومد المغابنا

---

(١) عبدالعزيز محمد الشحادة، مجلة جامعة الملك سعود، ع٢، م٨، الآداب (٢) (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م)، ص٨٣. وقارنة بناصف، دراسة الأدب العربي، ص ص ٣٥١-٣٧١.

أزجٌّ زَلــــوجٌ هِـــــزرِفيٌّ زفـــــارف
هِـزَفٌّ يـبـذٌّ الـنـاجـيـاتِ الـصـوافـنـا
فـزحـزحـت عـنـهـم أو تَـجِـئْـنِي مـنِـيَّتي
بـغـبـراءَ أو عـرفـاءَ تـقـرِي الـدفـائـنـا
كـــأنـي أراهـــا الـمـــوتَ لا درَّ درُّهـــا
إذا أمـكـنـت أنـيـابـهـا والـبـراثـنـا
وقـالـت لأخـرى خـلـفـهـا وبـنـاتـهـا
حُـتـوف تُـنَـقِّي مُخَّ مَنْ كـان واهـنـا
أخـالـيـجُ ورَّادٍ عـلـى ذي مـحـافلٍ
إذا نـزعـوا مـدُّوا الـدِّلاءَ الـشـواطـنـا
فـأدبـرتُ لا يـنـجـو نجـائي نـقْـنـقٌ
يـبـادرُ فـرخَـيْـه شـمـالاً وداجـنـا(١)

بل إن تأبط شراً، القائد الفاتك، يقول، وهو في مثل هذه الحالة:

---

(١) حثت: حركت. قصراً: مساء. الداجن: الماطر بغزارة.
الحصّ: المنجرد الشعر. الهزروف: السريع الخفيف. عفاءه: ريشه.
الفيفاء: الصحراء. المغابن: الآباط. الأزج: الطويل الساقين والبعيد الخطو.
الزلوج: المسرع. الهزرفي: الشديد الحركة كثيرها.
الزفزاف: النعام لخفته في سيره. الهزف: الجافي الشديد.
الغبراء: أنثى الذئب. العرفاء: الضبع. تقري: تتبع.
الدفائن: الموتى. حتوف: جمع حتف، وهو الموت.
تنقي: تُخرج المخ من العظام. الواهن: الضعيف.
أخاليج: جمع إخليج، وهو الجواد السريع، استعاره للضبع.
وُراد: جمع وارد، وهو المستقي الذي يرد الماء.
المحافل: جموع الناس. الشواطن: الحبال.
النقنق: ذكر النعام. الشمال: ريح الشمال.

كـأنمـا حَـشْـحَـشـوا حُـصّـاً قـوادمَه
أو أم خـشـف بـذي شثٍّ وطـبـاقِ
لا شيء أسـرعَ مِـنّي لـيس ذا عُـذَرٍ
وذا جـنـاح بـجـنب الـرَيـدِ خـفّـاقِ
حـتى نجـوتُ ولَـمّـا يـنْـزِعُـوا سَـلَبَي
بـواله مِنْ قـبـيضِ الـشّـدِّ غـيـداقِ(١)

فهو لم يُلق بسلاحه، أو يترك الغنيمة، بل قَرّبهما.

ثم إنه، وبعد أن أكد ظاهرة الخوف، يعود، فيقول:

"في قصيدته التي يتحدث من خلالها عن فراره من "لحيان"، والتي أظهر فيها كيف احتال لنفسه حتى نجا من الموت المحقّق، واستطاع الوصول إلى قبيلته "فهم" بعد أن رأى الموت نُصْب عينيه، يقول:

إذا المـرءُ لم يـحـتَلْ وقـد جَـدَّ جَـدُّهُ
أضـاع وقـاسى أمـرَه وهـو مـدبـرُ
ولـكن أخـو الحـزم الـذي لـيس نـازلاً
بـه الخـطبُ إلا وهـو لـلـقـصـد مـبـصـرُ
فـذاك قـريع الـدهـر مـا عـاش حـولَه
إذا سُـدَّ مـنه مـنـخـرٌ جـاشَ مـنـخـرُ

أما ظاهرة "الغول" في شعر تأبط شراً، وقد أشار إلى أنها ظاهرة مشتركة في الشعر العربي، فهي في سياقها الصحيح؛ أي: إذا كان "الخوف" من "الغول" خاصاً بتأبط

---

(١) القوادم: ما ولي الرأس من ريش الجناح. الحص: جمع أحص، وهو ما تناثر ريشه وتكسر، يشير إلى الظليم، ذكر النعام. الخشف: ولد الظبية. الشث والطباق: نبتان طيبا المرعى.
العذر: جمع عذرة، وهي ما أقبل من شعر الناصية على وجه الفرس؛ يريد الفرس.
الريد: الشمراخ الأعلى من الجبل. سلبي: ما سلبتُه في الحرب.
الواله: الذاهب العقل. الشد القبيض: الجري السريع. الغيداق: الكبير الواسع.

شراً، فهو عام عند غيره، وهل رجل يتزوج "الغول" مرة، ويقتلها مرة أخرى، إلا رجل بلغ عنده الإفراط في مواجهة المجهول حداً لم يعد فيه لـ "الخوف" مكان عنده؟

ويُثبت شعر هذيل أن هذه الظاهرة سائدة عندهم جميعاً، فهم غُزاة محاربون!!

ويأتي الشحادة برأي يقول فيه:

"السرعة التي ينسبها الشاعر لنفسه، والتي تفوق سرعة الطير، كانت نتيجة ملاحقة بعض الصعاليك له ليقتلوه" .

فـ "الصعاليك" الآن هم أعداء "الصعاليك" !!

لقد وصف أبو كبير من يمارس تلك الممارسة بصفات تثبت أن الاجتراء، والتعدي، والهجوم - وهي وليدة ظروف ميعنة - تتطلب صفاتٍ جسديةً ونفسية؛ من أهمها: اللامبالاة، والتحدي، والمجازفة، وكل ذلك بالتأكيد - في حدود الطبيعة البشرية، يقول أبو كبير الهذلي:

ولقد سريتُ على الظلام بِمغْشَم
جَلْدٍ من الفتيان غير مُثَقَّلِ
ممن حَمَلْنَ به وهن عَواقدٌ
حَبَكَ النِّطاقِ فشبَّ غير مُهَبَّلِ
حملت به في ليلةٍ مزؤودة
كُرهاً وعقدُ نطاقها لم يُحلَلِ
فأتت به حُوشَ الفؤاد مُبَطَّناً
سُهُداً إذا ما نام ليلُ الهَوْجَلِ
ومبرأٍ مِنْ كل غُبْرةِ حيضةٍ
وفسادِ مرضعةٍ وداءِ مُغَيّلِ
ما إن يَمَسُّ الأرضَ إلا مِنْكَبٌ
منه وحرف الساق طيء المِحْمَلِ

فإذا طرحتَ له الحصاة رأيتَه
ينْزو لوقعتها نُزوَّ الأخْيَلِ
وإذا يَهُبُّ من المنام رأيتَه
كَرُتُوب كعبِ الساق ليس بزُمَّلِ
وإذا رميتَ به الفِجاج رأيتَه
يَنْضو مخارمها هُويَّ الأجْدَلِ
وإذا نظرت إلى أَسِرّة وجهه
بَرَقَتْ كبرق العارضِ المتهلِّلِ
يحمي الصِّحابَ إذا تكونُ كريهةٌ
وإذا هُم أَزِموا فمأوى العُيَّلِ(١)

(١) قدامة، نقد الشعر، ص ٩٩ - ١٠١. الغشم: الذي يغشم الناس، ويظلمهم، ولا يتباطأ عن شيء. الجَلد: الصلب القوي. غير مثقل: حسن القبول. حبك النطاق: المراد به حبك الثياب؛ لأن النطاق لا يكون له حبك، والحبك: واحدها حبيك، والمعنى: أنه من الفتيان الذين حملت أمهاتهم بهم وهن مستعدات للفراش، وكانوا يقولون: إذا حمَلت المرأة وهي فزعة فجاءت بغلام، جاءت به لا يطاق. والمهبل: الكثير اللحم المتورم الوجه. مزؤودة: فزعة. كرهاً: كارهة. النطاق: ما يشد به الوسط، والمعنى: أنها أُكرهت فلم تحل نطاقها. حوش الفؤاد: حديده، يقال: رجل حوشي: لا يخالط الناس، وليل حوشي: مظلم هائل. مبطن: خمص البطن. سهداً: لا ينام الليل كله، وهو يقظان. الهوجل: الثقيل الكسلان، الأحمق. غير الحيض: بقاياه. فساد مرضعة: لم تحمل عليه، فتسقيه الغيل، وليس به داء شديد. مغيل: المغيل من الغيل وهو أن تغشى المرأة وهي ترضع اللبن فذلك اللبن الغيل، يقال: أغالت المرأة ولدها: إذا أرضعته على حبل. المِحْمل: حمالة السيف، يقول: إذا اضطجع، لم يَمَسَّ الأرض إلا منكبه وحرف ساقه؛ لأنه خميص البطن، فلا يصيب بطنه الأرض. الأخيل: طائر أخضر يُتشاءم به، يريد، أنه حديد القلب لا يستثقل في قومه. الرتوب: الانتصاب. الزمل: الضعيف، يقول: ينتصب إذا قام من منامه كما يقول القعب إذا رتب. الفِجاج: جمع الفج، وهو الطريق الواسع في الجبل ونحوه. ينضو: يقطع ويجوز. المخارم: جمع مخرم، وهو منقطع أنف الجبل. الأجدل: الصقر. الأسِرّة: جمع سِرار، وهي الخيوط التي في الوجه. العارض من السحاب: الذي يعرض في جانب السماء، والمعنى: يصفه بحسن الطلعة وطلاقة الوجه. أزموا: وقعوا في شدة. العيل: جمع عائل وهو الفقير، يقول: يكون حامية أصحابه إذا وقعوا في عظمية، وإذا صاروا في منازلهم، فبيته مأوى للفقراء.

وألم يقل الخطيم العُكلي:

وإنّي لماضي العزم لو تعلمينَه
وركّابُ أهوالٍ يُخافُ بها الرَّدَى(١)

موسى ربابعة:

"الغارة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية"(٢).

يقول: "إن تأبط شراً، على ما عهدناه فيه من سيرته وشرعه، ذو قلب لا يرتجف حتى عند الأهوال المرعبات، مما يحملنا على الاعتقاد أنه لم يقتل الغول فعلاً، فقد قتل حيواناً بشعاً ومرعباً من فصيلة القرود".

وهذا نقضٌ لما قاله الشحادة!!

والحقيقة أن تأبط شراً بطل ملحمي كأي بطل ملحمي في الشعر القديم، وهو بطل كأولئك الأبطال الذين شهدتْهم الجزيرة العربية، عندما كان إثبات الوجود لا يكون إلا بأعمال الغزو والنهب. والحقيقة أن شعر تأبط شراً، وشعر عروة بن الورد الذي أشار إليه، يدخلان في شعر الحرب عامة، ذلك الشعر الذي أعد الجندي عملاً علمياً قيِّماً عنه.

ولا يقتصر هذا على هذا، بل يتجاوزه إلى أن يقول هنا: "ويبدو أن قبيلة بَجيلة كانت ضعيفةً، وتسكن في حضرة الطائف الخصبة، وهي مجاورة لسَراة فَهْم، وعليه فقد حدد الصعاليك نوع الغارة عليها بعد تخطيط مدبر...".

(١) ياقوت، معجم البلدان، "عمّان". الردى: الهلاك.

(٢) موسى سامح ربابعة، مجلة جامعة الملك سعود، م١٠، الآداب ١ (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ص ص ٥٣ - ٩٢. وجرياً وراء الصعلكة، اقام أحمد بوزفور، دراسته عن تابط شراً، مطبقاً المنهج الاجتماعي، ولم يتسنَّ لي الحصول على عمله. تابط شراً: دراسة تحليلية في الشعر الجاهلي (الدار البيضاء، ١٩٩٠م). ولكن انظر عنه، عفيف عبدالرحمن، الشعر الجاهلي حصاد قرن (عَمّان: دار جرير، طبعة أولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م) ص ص ٦٦٥-٦٦٦. وانظر، تركي المغيض، قراءة في تائية الشنفرى الأزدي، مجلة جامعة الملك سعود، م٥ الآداب، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) ص ص ٤٠٩ - ٤٣٧.

وقد تبيّن لنا كثيراً أن من أسماهم "الصعاليك"، لم تكن "بجيلة" هي ضحيتَهم، بل كانت "صعاليك" هذيل تغير على "كنانة" وفهم، في جنوب غرب الطائف، حتى جنوب يلملم، وكانت فهم تغير على هذيل في مكة، وكانت هذيل تغير على "سُليم"، وخزاعة، شمال مكة، وأطراف المدينة، وكانت فهم تغير على الأزد (زهران) وما بعدهم، حتى تتوغل إلى جهات أبها، وكان كل هؤلاء يبادلون الغارة بغارة مثلِها، وهكذا، كانت "بجيلة" . وكانت بجيلة تتصدى للغزاة، ورأينا الغزاة يتحدثون عن أهوال إغارتهم على بجيلة. وليس صحيحاً قوله:

"ويجلّي تأبط شراً موقعةً دارت رحاها بينه وبين غول في منطقة اللّوى ليلاً، فنعرف أن اللوى في منطقة اليمامة ...

فمن كان يسأل عن جارتي

فإنّ لها باللوى منْزِلا"

فلم تكن اليمامة قط من مواضع طواف تأبط شراً، حتى إن طوافه لا يتجاوز منطقة السراة وتهامة، وجهات مكة والطائف بعامة، "واللّوى" هنا، دون الدخول في تحديده الآن، غير الذي كان باليمامة، وإنما في تلك المنطقة.

سوزان ستيتكفتش:

طقس العبور:

ارتكزت الكاتبة على مبدأ "طقس العبور"، الذي وجدت فيه أن الصعلوك لا يرتقي إلى دور الانخراط في المجموعة البشرية، وأنه متفرِّد، متوحش، خطر(١).

وهذه النتيجة مبنية على تلك النتائج المتداوَلة من أن الصعلوك خارج على الجماعة، وغير منتمٍ إليها. وقد تبيَّنّا الموقف من ذلك.

---

(١) سوزان ستتكفتش، طقس العبور، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق (١٩٨٥م)، ع ٦، ص ص ٥٥ـ٨٥. وانظر نقد، ريتا عوض لمنهج ستيتكفش، ريتا عوض، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس (بيروت: دار الآداب، ط١، ١٩٩٢م) ص ص ٣٢-٣٤.

سعود الرحيلي :

تبنّى الرحيلي فكرة ستيتكفتش، وأقام دراسته للامية العرب عليها، فمما قال :

"الصعلوك يدأب في قصيدته على توحيش ذاته الإنسانية كدليل على هويته المتوحشة التي تشكل النقيض المباشر لإنسان القبيلة الداجن المتحضر. وهو في المقابل يُؤَنْسِن الوحوش لكي يتخذ منها جماعةً، وليؤكد انتماءه لها"(١).

وهو يصل إلى أن :

"الدلالة على ملامح الشخصية المنتبذة التي هي النقيض المباشر لإنسان القبيلة"(٢).

كما يقول:

"تنطلق اللامية من تصدع علاقة الصعلوك بمجتمعه القبلي ذلك النوع من التصدع الذي لا يمكن رأْبه، والذي دفع بالصعلوك إلى الانسلاخ من إنسانيته، والدخول في جلد الوحوش الضارية؛ أي: دفعه إلى التحول من عالمه الأول إلى عالم مضاد : العالم الأول: أفراده البشر، وبيئته الحَيُّ القَبَلِيّ الضيّق، وهو عالم أليف داجن مُحاطٌ بقِيَم الحفاظ والحميَّة والإشباع والتناسل. أما العالم الثاني، فعلى النقيض من الأول تماماً: أفراده الوحوش والسباع، وبيئته السباع والبراري الشاسعة، وهو عالم مكشوف للأخطار، وقسوة الطبيعة القاحلة..."(٣).

ويقول الرحيلي:

"إن لامية العرب تصور أزمة الفرد العربي الخارج في تعامله مع طاعته القبلية، ومع بيئته الصحراوية القاحلة"(٤).

كما يقول:

---

(١) لامية العرب أو رحلة التوحش، ص ٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٥.

(٤) المرجع نفسه، حاشية ص ٨.

"خرج الصعلوك من عالم البشر في دائرة الحَيّ الضيّق، متّجهاً إلى عالم التوحّش في الأرض الواسعة التي اتخذ منها بيئةً بديلةً، ومن سباعها الضارية أهلاً وقوماً وجماعةً جديدة"(١).

وهو يعيد أسباب ذلك أيضاً، في إشارة إلى أولئك الراضين بالعيش المدجّن ـ حسب تعبيره ـ إلى أنه:

"يترفع عن كسب العيش بالطرق الدنيئة، والذي يرفض من سبل المعيشة كلَّ ما فيه من ضيم وانتقاص لذاته"(٢).

ولكنه يقول:

"التفرد والتغرب عن الأوطان طلباً للغِنى والكرامة والمجد"(٣).

بل يقول:

"الصبر هو الذي يجعله قادراً على الحياة في حالَيِ الغنى والفقر، ويجعله يبتعد ويبذُل نفسه للمخاطر في سبيل الغنى مع الكرامة"(٤).

أليس معنى هذا أن الشنفرى مثله مثل غيره من الصعاليك؛ خرج من مجتمع، ليدخل في مجتمع بشري آخر؟ وأنه يسعى لتحقيق سبل الزعامة والرئاسة والانتماء بالغنى، وتقديم نفسه ذاتَ مكانةٍ بينهم "المجد"؟ إذ ماذا يفعل صعلوك متشرد في الصحراء، مع أن الشنفرى لا يعيش حياة الصحراء – وإنما حياة جبال السَّراة وأطرافها الجبلية – بالغنى والمجد؟

وينتهي الرحيلي إلى القول :

"إن الدورة الثانية في مقطع (٥٤–٦٠) تمثل عودة من الصحراء إلى الحَيّ، ولهذه العودة دلالتان: فعلى المستوى الظاهري نلاحظ أم مجرد التفكير في العودة

(١) المرجع السابق، ص ٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ، ص ٢٤ .

(٣) المرجع نفسه، حاشية ص ٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣١، وانظر، ص ٢٢.

إلى الحَيِّ إنما هو انعكاس وفضٌ لرغبة اللاشعور في التراجع عن الاستمرار في المشروع الصعب الذي يفرضه العقل الواعي. وعلى هذا الأساس تكون عودة الصعلوك إلى الحَيّ في ظاهرها حلاً للصراع السابق لصالح الاستسلام والانهزام، غير أن هذه العودة لم تكن استسلاميةً في مضمونها؛ بمعنى أن الصعلوك لم يعد إلى الحَيّ لكي ينضوي فيه من جديد، وإنما لكي يدمِّره، وينتقم منه، ويلغي وجوده. ولهذا؛ فإن الدلالة النهائية لهذه العودة إنما هي تأكيد الاستمرار في مشروع التوحش، وليس التراجع عنه؛ لأن الصلعوك عاد إلى الحَيّ في صورة وحش، وليس في صورة إنسان، وعاد إليه لكي يهاجمه، وليس لكي يتصالح معه"(١).

فأي حَيٍّ هذا؟ أهو الحَيُّ الذي خرج منه؟ فإذا كان ذلك، فإن هذا تأكيد قوله السابق:

"خرج الصعلوك من عالم البشر في دائرة الحَيّ الضيّق متجهاً إلى عالم التوحش في الأرض الواسعة التي اتخذ منها بيئةً بديلةً، ومن سباعها الضارية أهلاً وقوماً وجماعة جديدة"(٢).

ولا معنى لـ"الغِنى" و"المجد" بعد ذلك، وما الحقيقة إلا أن الشنفرى مثل غيره، يغير على أحياء، وليس حيّاً واحداً، ثم يعود إلى حيّه الذي انضم إليه من البشر، وهو في رحلته تلك لم يتوحد مع الوحوش، ولم يتَّخذْها أصدقاء، وإنما رأى فيها صورة نفسه كما عبّر يوسف اليوسف(٣)، وهذا واضح من تعبير اجتياز الشنفرى بكل تلك الوحوش والطيور دون البقاء معها، كما يتضح ذلك من قوله بعد أن ذكر القطا:

فوليتُ عنها ....

(١) المرجع السابق، ص ص ٣٤ - ٣٥ . وانظر، ص ٣٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٠ .

(٣) اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص ٢٢٦ . وانظر بقية تحليله، ص ص ٢١٠ - ٢٤٣ . وانظر، فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، ص ص ١٤٦ - ١٨٨ .

أو دون أن تبقى معه:

فعبت غشاشاً ثم مرت ....

وتبقى القيمة للمجموعة البشرية، لا للكائنات الحيوانية، سواء في صورة تشبيه الطيور بـ: أضاميم من سفر القبائل نُزَّلِ

أو:

ركب من أحاضة مجفل

أو في صورة أولئك القوم الذين رحل إليهم، واجتمع بهم من قبيلة فَهْم، فصار حليفاً لفهم.

ومع كل ذلك، فإن الرحيلي، يعود، فيقول:

"نلاحظ ... أن ... المؤسسة الاجتماعية القبليَّة تضمن الإشباع لأبنائها المنضوين فيها، والملتزمين بقيمها" .

ويقول بعده:

"الإنسان الاجتماعي المتحضِّر القادر على توفير القوت بصورة منتظمة"(١).

فكيف يكون هذا في إطار الصورة المرسومة حتى الآن عن الصعاليك ؟

(١) لامية العرب أو رحلة التوحش، ص ٢٥.

وانظر، أبو ديب، الرؤى المقنعة، ص ص ٥٥٥ - ٥٩١، في العلاقة بين "نص البطولة"، كما طبقه على عامر بن الطفيل، وعمرو بن معدي كرب، وعبدالقيس بن خفاف، وما أسماه: "نص الصعلكة: بنية الانقسام والخروج".

حسن عبدالجليل يوسف، الأدب الجاهلي، (القاهرة: مؤسسة مختار، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ص ص ١٨١-١٩٨، ولا سيما موضوع "الغربة" ص ص ١٦٠-١٨٠، وانظر أيضاً، حسن محمد النصيح، لامية العرب بين الشنفرى وخلف الأحمر (الرياض: الدار الدولية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م)؛ أحمد درويش، متعة تذوق الشعر (القاهرة: دار غريب، ١٩٩٧م) ص ص ٩-٣٢؛ عبدالعزيز نبوي، دراسات في الأدب الجاهلي (القاهرة: الصدر لخدمات الطباعة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م) ص ص ٢٣٧-٢٥١؛ ضياء غني لفتة، البنية السردية في شعر الصعاليك (عمّان: دار الحامد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م) حيث داخل بين العصور والشخصيات، ص ص ١٧-٧٥.

عبدالمعين الملوحي:

أشعار اللصوص:

إن مفهوم اللصوص مفهوم إسلامي، ينطبق على كل من خرج على الدولة الإسلامية، مرتكباً أعمال قطع الطريق، والسلبَ والنهب، منذ عصر الخلافة الراشدة، حتى زوال دولة بني أمية، فأصبح الصعلوك الفارس الغازي، في الجاهلية، هو لص، حسب المفهوم الإسلامي فقط، مع أنه جرى تسمية من يقوم بقطع الطريق حتى في الجاهلية "لصاً"، تَبَعاً لاختلاف البيئات. أما مفهوم "الصعلوك" بشكل عام، فلم يعنِ ذمّاً، أو استهجاناً، إلا منذ جاء الإسلام، ثم إن الملوحي سمى هؤلاء "اللصوص"، وكانت شواهده كلُّها من العصر الأموي، على أن أولئك كانوا كأسلافهم الجاهليين، جاعلاً هؤلاء وأولئك سواءً، كما أولئك الشُّطَّار في العصور التالية، وهو يقول:

"أعجبتني طرافة شعر اللصوص، واندفاعاته، وتصويره لحياة فئة من الناس، خُيِّل إليها أن اللصوصية يمكن أن تحلَّ مشكلة الغنى والفقر، فثاروا على مجتمعهم ثورة فردية، فقُتل بعض، وسُجن بعض، وهرب بعض إلى القِفار والبسابس، يعاشر الضباع والذئاب، وبقي بعضٌ طولَ حياته فقيراً"(١).

---

(١) عبدالمعين الملوحي، أشعار اللصوص، مجمع اللغة العربية (دمشق، ٢، م٤٩ ربيع الأول ١٣٩٤هـ/ إبريل ١٩٧٤م)، ص ٣٦٢. وانظر، كتابه، أشعار اللصوص وأخبارهم (بيروت: دار الحضارة الجديدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، وليس بعيداً عن رأي الملوحي رأي حمد الجاسر، مع الشعراء (الرياض: دار اليمامة، ١٩٨٠م)، ص ص ١٢٤–١٢٥.

الخاتمة

اتضح من تحليل المرثيات الأدبية أن "الصعلكة" سلوك اجتماعي في (البوادي) وبين (الأعراب)، "الصعلكة" هي "الغزو"، وكلٌّ له طريقته، و"الصعلوك" هو "الرئيس"، يختلف بعضهم نوعياً، إلا أنهم في النتيجة سواء. حاتم كعروة، وعروة كالشنفرى، وصعاليك هذيل جماعة، وكل صعاليك السراة قاطبة، كصعاليك تميم وعامر، فمِنْ أقصى الجزيرة العربية، في تهامة، وحتى أقصاها، في أطراف العراق، وفي كل أرجائها الشرقية، وكل جوانبها الغربية، هناك تشابُهٌ وملامحُ مشتركة تجمع بينها، والفرق أنه قبل الإسلام كانت جاهليةً، ولم يكن هناك شرع، وبعد الإسلام كان هناك شرع، وكان هنالك دولة.

وكان كل صعلوك منتمياً، كما كان كل (صعلوك) في الإسلام مشرَّداً ومطارَداً. ووسائل أولئك الذين كانوا في الجاهلية، كوسائل أولئك الغزاة، وطرائقهم في الغزو كطرائقهم، هنالك تكييف للغزو، بما يتوافق مع الظروف فقط، ولم يكن يُقْدِم على هذه الأعمال إلا من وصفوه بأنه "الفاتك"، والذي كان يُغير، وكان الحياة في الجزيرة العربية مسؤوليةً جماعية، وكان الغزو بنوعيه: الصعلكة، والمسير إلى ديار الآخرين بجيش، تحقيقاً للطموحات، وتلبيةً للحاجات، أما حين تكون الدولة، وتُقام الحدود الشرعية، فتغيّر المفهوم، وإن ظلت البوادي تسترجع روح الماضي كآبائهم، فيؤول مصيرهم إلى السجون، وتطبيق الحد الشرعي عليهم، وهو ما اتخذ مسمى "اللصوص" حقيقة.

لقد اتسع مفهوم "الصعلكة"، ولم تعد الحدود بين الأفعال تفرِّق بين ما يقوم به الغزاة، بالضبط كما كان مدلول "الغزو" شاملاً، وإنما التفرقة الوحيدة في (التكتيك) فقط، وهو استراتيجية نجدها هنا وهناك في أنحاء الجزيرة العربية.

ثبت المصادر والمراجع

المصادر

الكتب:

* ابن الأثير، عز الدين، أبو الحسن، علي بن أبي الكرم محمد، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

* الأصفهاني، أبو الفرج الأغاني، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (بيروت: دار الثقافة، ط ٤، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)

* الأصفهاني، لغدة، بلاد العرب، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: مط دار اليمامة، ط ١، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

* الأصمعي، أبو سعيد، عبدالملك بن قريب، فحولة الشعراء، تحقيق: ش توري (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٣٨٩هـ / ١٩٧١م).

* البغدادي، عبدالقادر بن عمر، خزانة الأدب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م).

* البكري، أبو عبيد الله بن عبدالعزيز، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا (القاهرة: لجنة التأليف والترحمة والنشر، ط ١، ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م).

* الثعالبي، عبدالملك بن محمد، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م).

* الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر:

* البرصان والعميان والعرجان والحولان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٨٢م).

* البيان والتبيين، تحقيق: حسن السندوبي، بيروت، دار إحياء العلوم، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

* البيان والتبين، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: مؤسسة الخانجي، د – ت).

* الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مط مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٣هـ / ١٩٤٣م).

* رسائل الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مط العربية الحديثة، ١٩٧٩م).

* ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).

* الحازمي، محمد بن موسى، الأماكن، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: المطابع الأهلية للأوفست، ١٤١٥هـ).

* ابن حبيب، محمد، أسماء المغتالين، ضمن كتاب نوادر المخطوطات، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: مط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م).

* ابن حجر، شهاب الدين، أبو الفضل، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة (القاهرة: مطبعة السعادة، طبعة أولى، ١٣٢٨هـ).

* الحربي، أبو إسحاق، المناسك، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: مط اليمامة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م).

* ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ط٣، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).

* ابن خرداذبة ، أبو القاسم ، عبيدالله بن عبدالله ، المسالك والممالك (ليدن: مطبعة بريل ، ١٩٦٧م) .

* ابن دريد، أبوبكر، محمد بن الحسن، الاشتقاق، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (بغداد: مكتبة المثنى، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٩م).

* الربعي البغدادي، أبو العلاء، صاعد بن الحسن، الفصوص، تحقيق: عبدالوهاب التازي سعود (المغرب: مط فضالة، ١٤٢٣هـ / ١٩٩٣م).

* الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس (القاهرة: مط الخيرية، ط أولى، ١٣٠٦هـ).

* ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار بيروت، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م).
* ابن سيده، أبو الحسن، علي بن إسماعيل، المخصص (بيروت: المكتب التجاري، د-ت).
* ابن عبد ربه، عمر، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وآخرين (القاهرة: مط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م).
* العسكري، أبو هلال، جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالحميد قطامش (القاهرة: مط المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).
* الغندجاني، أبو محمد الأعرابي، الأسود، فرحة الأديب، تحقيق: محمد علي سلطاني (دمشق: دار الكتاب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
* القالي، أبو علي، الأمالي (بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).
* ابن قتيبة، أبو محمد، عبدالله بن مسلم، عيون الأخبار (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م).
* كتاب الأنواء (حيدرآباد - الدكن : مط مجلس دائرة المعارف الإسلامية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م).
* الكرماني، شمس الدين، محمد بن يوسف بن علي، شرح صحيح البخاري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) .
* ابن الكلبي، أبو منذر، هشام بن محمد بن السائب، الأصنام، تحقيق: أحمد زكي (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م).
* جمهرة النسب، تحقيق: محمود فردوس الأعظمي (دمشق: دار اليقظة، ١٩٨٣م).

* نسب معد واليمن الكبير، تحقيق: محمود فردوس الأعظمي (دمشق: دار اليقظة، ٢٠٠٠م).
* ابن ميمون، محمد بن المبارك بن محمد، منتهى الطلب من شعار العرب، تحقيق: محمد نبيل طريفي (بيروت: دار صادر، ١٩٩٢م).
* المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد، الكامل، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مط دار النهضة، ١٩٨٠م).
* ابن المثنى، أبو عبيدة، معمر، نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: أ. أ. بيفان (ليدن: مط بريل، ١٩٠٥م).
* أيام العرب قبل الإسلام (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٢٤هـ).
* أبو محمد، عبدالله بن مسلم، ديوان المعاني (الهند ـ حيدر آباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م).
* المرتضى، الشريف، الأمالي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م).
* المرزوقي، أبو علي، الأزمنة والأمكنة (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، د ــ ت).
* المسعودي، أبو الحسين، علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م).
* ابن منبه، وهب، التيجان (حيدرآباد ـ الدكن: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٧هـ).
* ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين بن محمد بن مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د ـ ت).
* المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٨١م).

* النهشلي، عبدالكريم، الممتع في صنعة الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام (القاهرة: دار غريب، ١٩٨٠م).
* النويري، شهاب الدين، أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م).
* الهجري، أبو علي، أبحاث الهجري، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: مط اليمامة، ط ١، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م).
* ابن هذيل، علي بن عبدالرحمن، حلية الفرسان، تحقيق: محمد عبدالغني حسن (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢م).
* ابن هشام، أبو محمد عبدالملك، السيرة، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م).
* الهمداني، أبو محمد، الحسن بن أحمد بن يعقوب، الإكليل، ج٨، تحقيق: محب الدين الخطيب (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٦٨هـ).
* صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع (الرياض: ذار اليمامة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م).
* ياقوت، شهاب الدين، أبو عبدالله، الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

المجموعات الشعرية

* الآمدي، أبو القاسم، الحسن بن بشر، المؤتلف والمختلف، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: مط عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).
* الأخفش، الأصغر، كتاب الاختيارين، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
* الأشنانداني، معاني الشعر، تحقيق: صلاح الدين المنجد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٤م).

* الأصمعي، أبو سعيد، عبدالملك بن قريب، الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م)
* البصري، صدر الدين، علي بن أبي الفرج بن الحسين، الحماسة البصرية، تحقيق: عادل جمال سليمان (القاهرة: مط الأهرام، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م)
* التبريزي، أبو زكريا، يحيى بن علي بن محمد، شرح المفضليات، تحقيق: علي محمد البجاوي (القاهرة: مط نهضة مصر، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م).
* أبو تمام، حبيب بن أوس، الوحشيات، تحقيق: عبدالعزيز الميمني (القاهرة: دار المعارف، ط ٢، ١٩٧٠م).
* الجبوري، يحيى، قصائد جاهلية نادرة (بيروت: مط الرسالة، ط ١، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م).
* ديوان الهذليين (القاهرة: مط دار الكتب المصرية، ط ١، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م).
* الزوزني، أبو محمد، عبدالله بن محمد، حماسة الظرفاء، تحقيق: محمد جبار المعيبد (بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧٣م).
* السكري، أبو سعيد، الحسن بن الحسين، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (بيروت: مكتبة خياط، د-ت).
* الضامن، حاتم صالح، شعراء مقلون (بيروت: عالم الكتب ط ١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).
* الضبي، المفضل، المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون (القاهرة: دار المعارف، ط ٤، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م).
* غاير، رودولف، الصبح المنير في شعر أبي بصير (فينا: مط آدولف هلزهوسن، ١٩٢٧م).
* ابن قتيبة، أبو محمد، مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م).

* القيسي، نوري حمودي، شعراء أمويون (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

* المرزباني، أبو عبدالله، محمد بن عمران بن موسى، معجم الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: مط عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٠م).

* المرزوقي، أبو علي، أحمد بن محمد الحسن، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين وعبدالسلام هارون (القاهرة: مط لجنة البيان العربي، ط ١، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م).

* ابن المعتز، عبدالله، طبقات الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: دار المعارف، ١٣٧٥هـ/ ١٩٦٥م).

* الميمني، عبدالعزيز، الطرائف الأدبية (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م).

* الهجري، أبو علي، التعليقات والنوادر، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: شركة العبيكان، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

* أبو ياسين، حسن، شعر همدان (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

الدواوين والأشعار

* ديوان الأعشى، تحقيق: محمد محمد حسين (القاهرة: مط النموذجية، ١٩٥٢م).

* ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مط دار المعارف، ١٩٥٨م).

* ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق: عبدالحفيظ السطلي (دمشق: مط التعاونية، ط٣، ١٩٧٧م).

* ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

* ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م).
* ديوان تأبط شرا، جمع وتحقيق: علي ذو الفقار شاكر (بيروت: مط المتوسط، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
* ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م).
* تحقيق: محمد إسماعيل الصاوي (بيروت: مكتبة الحياة، د. ت).
* ديوان الحارث بن حلزة، إعداد: طلال حرب (بيروت: الدار العالمية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
* شرح: عمر فاروق الطباع (بيروت: دار القلم، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
* ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: وليد عرفات (لندن: مط ستيفن أوستن وأولاده، ١٩٧١م).
* ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان أمين طه (القاهرة: مط مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط ١، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م).
* ديوان الخنساء، تحقيق: أنور أبو سويلم (الأردن: دار عمار، ط ١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م).
* ديوان ابن الدمينة، تحقيق: أحمد راتب النفاخ (القاهرة: مط المدني، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م).
* ديوان ذي الرمة، تحقيق: عبدالقدوس أبو صالح (دمشق: مط طربين، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).
* ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط ١، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م).
* ديوان سلامة بن جندل، تحقيق: فخر الدين قباوة (حلب: المكتبة العربية، ط ١، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م).

* ديوان شعر حاتم الطائي، تحقيق: عادل سليمان (القاهرة: مط المدني، د ـ ت).
* ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق: صلاح الدين الهادي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م).
* ديوان الشنفرى، ويليه السليك بن السلكة وعمرو بن براق، إعداد: طلال حرب (بيروت: الدار العالمية، ط ١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).
* ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال (دمشق: مط مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م).
* ديوان الطرماح، تحقيق: عزة حسن (بيروت: دار الشرق العربي، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
* ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد (بيروت: مط معتوق، د ـ ت).
* ديوان عامر بن الطفيل، تحقيق: ش. ج. لايل (كمبردج: مط جامعة كمبردج ، ١٩٦٤م).
* ديوان عامر بن الطفيل (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).
* ديوان العباس بن مرداس، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).
* ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: شارلز لايل (ليدن: مطبعة بريل، ١٩١٣م).
* ديوان العجاج، تحقيق: عزة حسن (بيروت: مكتبة دار الشروق، ١٩٧١م).
* ديوان عروة بن الورد، شرح: كرم البستاني (بيروت: دار صادر، ١٩٥٣م).
* ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٩٥م).
* ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: عبدالمنعم عبدالرؤوف شلبي (القاهرة: مؤسسة فن للطباعة، د ـ ت).

* ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: محمد سعيد مولوي (بيروت: المكتب الإسلامي، طبعة أولى، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).
* ديوان الفرزدق، تحقيق: كرم البستاني (بيروت: دار صادر، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م).
* ديوان القتال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م).
* ديوان القطامي، تحقيق: أحمد مطلوب وإبراهيم السامرائي (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦١م).
* ديوان قيس لبنى، تحقيق: عدنان زكي درويش (بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٤١٣هـ / ١٩٨٦م).
* ديوان كثيّر عزة، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).
* ديوان كعب بن زهير (القاهرة: مط دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م).
* ديوان المتنبي، تحقيق: عبدالرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).
* ديوان ابن مرداس، العباس، ديوان العباس بن مرداس، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري (بيروت: مؤسسة الرسالة، طبعة أولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).
* ديوان ابن مقبل، تحقيق: عزة حسن (دمشق: مديرية إحياء التراث، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م).
* ديوان النابعة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م).
* شرح ديوان لبيد، تحقيق: إحسان عباس (الكويت: مط الحكومة، ١٩٦٢م).
* شعر الأخطل، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت: دار الآفاق الجديدة، د-ت).

* شعر أبي دؤاد، ضمن دراسات في الأدب العربي، غوستاف غرونباوم، ترجمة: إحسان عباس وآخرين (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٥٩ م).
* شعر خداش بن زهير العامري، تحقيق: يحيى الجبوري (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).
* شعر الخرنق بنت بدرن تحقيق: حسين نصار (القاهرة: دار الكتب، ١٩٦٩م).
* شعر خفاف ابن ندبة، تحقيق: نوري حمودي القيسي (بغداد: مط المعارف، ١٩٦٧م).
* شعر الشنفرى الأزدي، تحقيق: علي ناصر غالب (الرياض: دار اليمامة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
* شعر عدي بن الرقاع، تحقيق: نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن (بغداد: مط المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م).
* شعر عروة ابن أذينة، تحقيق: يحيى الجبوري (بيروت: مط التعاونية اللبنانية، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م).
* شعر عمرو ابن أحمر، تحقيق: حسين عطوان (دمشق: مجمع اللغة العربية، د ـ ت).
* شعر عمرو بن كلثوم، إعداد: طلال حرب (بيروت: الدار العالمية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
* شعر المسيب بن علس، تحقيق: أنور أبو سويلم (الأردن: جامعة مؤتة، ط ١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

المراجع:

الكتب:

* أبو ديب، كمال، الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م).

* الأحمدي، علي بن حسين علي، مكاتبات الرسول (بيروت: دار المهاجر، د- ت).

* إسماعيل، فاروق، تأثير الإسلام على الوثنية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧م).

* أمين، أحمد، الصعلكة والفتوة في الإسلام (القاهرة: دار المعارف ١٩٥٢م).

* أنس الوجود، ثناء، دراسات تحليلية في الشعر القديم (القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠م).

* البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز (مكة: دار مكة، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩ م).

* بلاشير، ريجيس، تاريخ الآداب العربية، ترجمة إبراهيم الكيلاني (دمشق: دار الفكر، ١٩٥٦م).

* ابن بليهد، محمد بن عبدالله، صحيح الأخبار (القاهرة: مط السنة المحمدية، ط ٢، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م).

* التطاوي، عبدالله، أشكال الصراع في القصيدة العربية (القاهرة: دار غريب ١٩٩٥م).

* الشعر والفلسفة (القاهرة: دار غريب، ١٩٩٥م).

* التل، غسان نيازي، المجتمع العشائري، قضايا وممارسات (عمّان: دار الكندي، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

* الجاسر، حمد، في سراة غامد وزهران (الرياض: مط دار اليمامة، ١٣٩١ / ١٩٧١).

* مع الشعراء (الرياض: دار اليمامة، ١٩٨٠م).

* المنطقة الشرقية (الرياض: مط دار اليمامة، ط ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).

* الجاسم، أحمد موسى، دراسات في الشعر الجاهلي (السعودية: أضواء البيان للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٨هـ / ١٩٩١م).

* الجبوري، الشعر الجاهلي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٨٨م).
* الجعافرة، ماجد، الشعر الجاهلي (الأردن: دار اليرموك، ط ١، ٢٠٠٣م).
* جمعة، محمد محمود، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية (بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٩م).
* الجندي، علي، شعر الحرب (بيروت: مطبعة بيبلوس الحديثة، ط٣، ١٩٦٦م).
* ابن جنيدل، سعد بن عبدالله، عالية نجد (الرياض: مطبعة نهضة مصر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).
* الحربي، علي بن إبراهيم، المعجم الجغرافي لمنطقة عسير (أبها: د- ن، ١٤١٧- ١٤١٨هـ).
* حسنين، سيد حنفي، الشعر الجاهلي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة ١٩٧١م).
* حفني، عبدالحليم، شعر الصعاليك (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م).
* حمّور، عرفان محمد، أسواق العرب (بيروت: دار الشورى، ١٩٧٩م).
* الحوفي، أحمد محمد، الحياة العربية من الشعر الجاهلي (القاهرة: دار نهضة مصر، ط ٥، ١٩٧٢م).
* خليف، مي يوسف، بطولة الشعر الجاهلي (القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨م).
* خليف، يوسف، دراسات في الشعر العربي (القاهرة، دار غريب، د - ت).
* الخشروم، عبدالرزاق، الغربة في الشعر الجاهلي (دمشق: دار الأندلس للطباعة، ١٩٨٢م).
* الشعراء الصعاليك (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م).
* الخليل، أحمد، ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي (دمشق: طلاس، ط١، ١٩٨٩م).

* خليل، محمد رشاد، ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة (الحضارة) العربية (؟، طبعة ثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
* درويش، أحمد، متعة تذوق الشعر (القاهرة: دار غريب، ١٩٩٧م).
* الدسوقي، عمر، الفتوة عند العرب، أو أحاديث الفروسية العليا (القاهرة: مط نهضة مصر ١٩٦٦م).
* الرفاعي، عبد العزيز، زيد الخيل (جدة: شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
* الزهراني، علي بن صالح السلوك، المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران (جدة: مط مؤسسة المدينة للصحافة، ط ٣، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).
* الزهراني، محمد بن زياد، تصحيح الرؤى عن بيئة الشنفرى (الرياض: مطابع الحميضي، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).
* سركيس، إحسان، مدخل إلى الأدب الجاهلي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩م).
* سليمان، علي، الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع (دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠م).
* السويدي، فاطمة حميد، الاغتراب في الشعر الأموي (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧م).
* الشكعة، مصطفي، رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية (بيروت: دار الكتب، ١٩٧٩م).
* الصفدي، مطاع، وحاوي إيليا، موسوعة الشعر العربي (بيروت: شركة خياط، ١٩٧٤م).
* ضناوي، سعد، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي (بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٣م).
* ضيف، شوقي، العصر الجاهلي (القاهرة: دار المعارف، ط٨، ١٩٧٧م).

* طليمات، غازي، والأشقر، عرفان، الشعر في العصر الأموي (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨م).

* عبدالحافظ، صلاح، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره (القاهرة: دار المعارف د – ت).

* عتوم، علي، قضايا الشعر الجاهلي (الأردن: مكتبة الرسالة الحديثة، ط١، ١٩٨٢م).

* عطوان، حسين، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠).

* الشعراء الصعاليك في صدر الإسلام والعصر الأموي (عمان: دار الجيل ط ٣، ١٩٩٧م).

* الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

* علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت : دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٨م).

* عليمات، يوسف، النسق الثقافي قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم (الأردن: عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩م).

* عوض، ريتا، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢م).

* عيسى، فوزي، النص الشعري وآليات القراءة (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٩٧م).

* فاطمة حميد السويدي، الإغتراب في الشعر الأموي (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧م).

* الفريجات، عادل، إضاءات في النقد الأدبي (دمشق: دار كرم، ١٩٨٥م).

* كفافي، منذر ذيب، صورة المرأة في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر الأموي (الأردن: دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
* كمال، محمد سعيد، الأزهار النادية (القاهرة: دار الكتاب العربي، د.ت).
* لفتة، ضياء غني، البنية السردية في شعر الصعاليك (الأردن: دار الحامد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).
* الملوحي، عبدالمعين، أشعار اللصوص وأخبارهم (دمشق: مط العجلوني، ١٩٨٧م).
* أشعار اللصوص وأخبارها (بيروت: دار الحضارة الجديدة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
* المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م).
* ناصف، مصطفى، دراسة الأدب العربي (بيروت: دار الأندلس، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
* نبوي، عبدالعزيز، دراسات في الأدب العربي (القاهرة: الصدر لخدمات الطباعة، ط٢، ١٩٨٨م).
* النصيح، حسن محمد، لامية العرب بين الشنفرى وخلف الأحمر (الرياض: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٢م).
* هدارة، محمد مصطفى، الأدب العربي في العصر الجاهلي (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م).
* دراسات ونصوص في الأدب العربي (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م).
* الشعر العربي في العصر الجاهلي (الإسكندرية: الدار الأندلسية، ١٩٨٧م).
* يوسف، حسن عبدالجليل، الأدب الجاهلي (القاهرة: مؤسسة مختار، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).
* اليوسف، يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي (بيروت: دار الحقائق، ط٢، ١٩٨٠).

الأبحاث :

* رابعة، الغارة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية، مجلة جامعة الملك سعود، م ١٠، الآداب (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).
* الرحيلي سعود، لامية العرب أو رحلة التوحش (الرياض: جامعة الملك سعود، مركز البحوث، ع ٢٢، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م).
* الرؤى النواسية، قراءة في مدحة خمرية، مجلة جامعة الملك سعود، م٦، الآداب٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
* ستتكفتش، سوزان، القصيدة العربية وطقس العبور، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق (١٩٨٥م).
* الشحادة، عبدالعزيز محمد، ظاهرة الخوف في شعر تأبط شراً، (مجلة جامعة الملك سعود، ع٢، م ٨، الآداب، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م).
* الملوحي، عبد المعين، الشطار اللصوص وأشعارهم، مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢، م ٤٩ (بيع الأول ١٣٩٤هـ/ إبريل ١٩٧٤م).

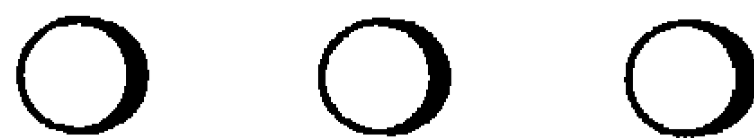
الرسائل الجامعية :

* العريفي، سعد عبدالرحمن، ظاهرة الخوف في أشعار اللصوص من العصر الجاهلي حتى آخر العصر الأموي، جامعة الملك سعود، قسم اللغة العربية (١٤٢١هـ).

الكتب الأجنبية :

Frank. H. Man and Wolf (Dordrecht, W. Junk 1987).
Gross, Christian , Mammals of the southern Gulf
(Dubai : Emirates Printing press1987)
Harrington, F. H.&P.C.Paguet , Wolves of the world (Parkridge: Noyes Publication, N J).
Harrisson .D. L The Mammals of Arabia (London: Errest Benn ltd 1981)
Mammals of the Arabian Gulf (surrey: Biddles Ltd.,1981).
Kingdom, J. Arabian Mammals (Bahrain: gov., press 1990).
Zimmer, Erik, The Wolf his place in the Natural World, The New Encyclopaedia Britannica.

الكشاف العام

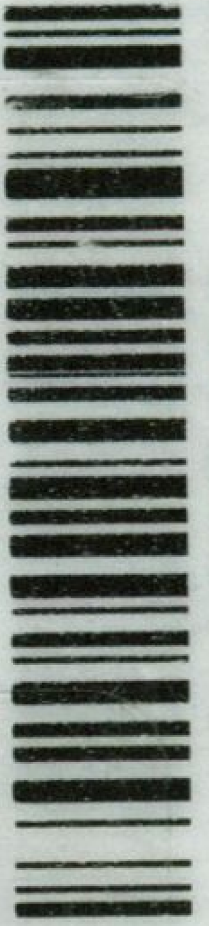




مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية

هذا الكتاب

ما يزال الدارسون يبحثون حياة الصعاليك الاجتماعية، والتاريخية، والبلدانية، والفنية؛ يستشيرون في مقدمة كتاباتهم وبحوثهم، وما يتوقعون من النتائج، المأثورَ من حياة أولئك، وَفق الاستمداد من مصادر التراث العربي الذي استودَع أخبارهم، وأشعارهم، وعلاقاتهم الاجتماعية بقبائلهم، وبغير قبائلهم، ورؤيتهم في الحياة... لذلك تجد الخطوط العريضة للتراكم المعرفي حول الصعلكة في التاريخ العربي محلَ اتفاق يُشبه الإجماع بين جمهرة الباحثين. ومن ثمّ، أصبح لدينا تراكم معرفي أدى إلى قناعات بحثية تراكمت حول ظاهرة الصعلكة دلالةً ووظيفةً. ويُقدّم هذا الكتاب تناولاً، يعيدنا مجدّداً إلى تلك المعطيات السابقة، للوصول إلى تقبل أطروحة لا تتوافق مع ما سلف، ولكنها تتقاطع.





ردمك: ٥-٣٠-٢٣-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨